

مكتبة الثقافة الشعبية

١

تأليف
جواهرلال نهرو

ترجمة
الدكتور عبد العزيز عتيق

لمحات من تاريخ العالم

مختارات

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة /عبد الرزاق باشا السنهوري

القاهرة

مكتبة الثقافة الشعبية — ١

لمحات من تاريخ العالم

مختارات



تأليف
جواهر لال نهرو

ترجمة
الدكتور عبد العزيز عتيق





دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

مكتبة الثقافة الشعبية

يسر دار المعارف أن تقدم للقارىء العربى هذه المجموعة الحديثة من نتاج الفكر وقد أطلقت عليها اسم « مكتبة الثقافة الشعبية » .

وقد يتساءل القارىء عما قصدنا اليه من هذه التسمية ، وهل كلمة « الشعبية » صفة للفظة الثقافة أو هى صفة للفظة المكتبة ؟ انها صفة للفظتين ، وسنحاول فى هذه العجالة أن نعرف ما هى الثقافة الشعبية وما هى المكتبة التى تتوخى نشر تلك الثقافة .

وضع الكتاب كلمة « الثقافة » ترجمة لكلمة culture الأجنبية واستوحوها على الأرجح من تثقيف الرمح ، أى اصلاحه وتقويمه ، وتجوزوا بذلك أن يقصدوا بها العلوم والمعارف .

ولو أننا نظرنا فى الأصل اللاتينى المشتقة منه الكلمة الأجنبية وهو "Cultus" لرأينا أن بين معانيها المختلفة معنى الحضارة ، ومعنى معرفة الحضارات وهى الثقافة . فمن الخير أن نميز بين هذين المعنيين .

ان المقصود بكلمة الثقافة فى هذه المجموعة هو المعنى الثانى ، فالثقافة الشعبية اذن تعنى المعارف التى يجب أن يقف عليها الشعب فى مختلف الثقافات ، وتعنى كذلك الصلة التى توثق تلك المعارف بالحضارات ، فنرى لزاما علينا ، والحالة هذه ، أن نفسر ما عنينا بلفظة « الحضارة » وبلفظة « الشعب » .

تتصل الحضارة اتصالا وثيقـا بمجموعة من الناس تؤلف أمة من الأمم ، وتؤلف كذلك مجموعة العادات المكتسبة ، والمبادىء التى انبثقت على ممر العصور ، فكان من ذلك صورة لروح الأمة ولطرق معاشهـا ولمناحى تفكيرها وشعورها ، وهذا ما يجعل هـذه المجموعة تتطرق الى النظريات الفلسـفية والعلم والآداب والفن والديانات والعـادات والأحوال الاجتماعية والرياضية البدنية ، والى كل مايحيط بحياتنا اليومية .

وليست كلمة الشعب فى هذا المقام بمقصورة على طبقة معينة من الأمة تميزها عن باقى الطبقـات ، فهى لا تميز الطبقـة الأميـة من الطبقة المتعلمة ، ولا الطبقة الفقيرة من الطبقة الغنية ، كما أنها لا تميز كذلك أصحاب الحرف اليدوية من أصحاب المهن الحرة ، فكلمة الشعب انما هى مجموع الناس الذين تتألف منهم الامة ، سواء فى ذلك الفقير والغني والمتعلم وغير المتعلم ..

ومن هذا يتضح تمام الوضوح المعنى المقصود من كلمة « مكتبـة الثقافة الشعبية » فهى مجموعة تخـاطب جميع النـاس وتتعرض لمختلف الموضوعات .

واذا نحن قلنا انها تخاطب جميع الناس فمعنى ذلك انها يجب أن تكون فى متناول جميع الاذهان ولا تشق بسعرها على أحد .

فهذان المطلبان هما اللذان استوحيناهما فى وضع برنامج هـذه المجموعة وطريقة تنفيذه .

ومخاطبة جميع الاذهان معناها أن يفهمك جميع الناس وان تلبى رغبات كل منهم وعلى هذا فنحن نخاطب بهذه المجموعة السواد الاعظم

الذى يرغب فى تنمية ثقافته ومعارفه دون أن يتعمق فى دراسات طويلة ونخاطب بها الطالب الواقف على عتبة العلم والباحث عن معارف تفتح له السبيل الى المؤلفات المتخصصة الصعبة التى يجب أن يتطرق اليها ونخاطب بها كذلك المتعلم المثقف الذىسوف يجد فى هذه المجموعة وثائق أصيلة لأقلام كفية عن الحضارات الأجنبية .

ولعل كلمة وثائق أصدق الكلمات وصفا لهذه المجموعة على أننا لا نتوخى بها أن تكون مكانا لدراسات معجمية موسوعية ولا أن نعالج فيها معالجة مدرسية كلا من التطور والحالة الراهنة للحضارات الانسانية فهدفنا انما الالمام بكل شىء ولهذا :

(١) ففى سبيل معرفة تلك الحضارات سنتجه الى أقلام انغمست بها ومجت خلاصتها وكانت فى رياضها ، فالصين مثلا سنعرفها عن طريق مؤلفين صينيين واسبانيا كذلك سنعرفها عن طريق الأقلام الأسبانية وهكذا دواليك .. وسوف تتألف هذه المجموعة فى غالبيتها العظمى من كتب مترجمة وفى هذا دليل على اننا لن نؤثر ناحية معينة من نواحى التفكير ، وفيه أيضا تفسير لما قد يجده القارىء فيها من آراء ونظريات ومبادىء متعارضة وهدفنا من كل ذلك هو نشر الثقافة ، فالعلم لا وطن له كما يقولون .

(٢) لن نقتصر ما أمكن فى هذه المجموعة على نشر الكتب المبسطة فسوف نؤثر عليها مؤلفات كبار الكتاب أو مؤلفات رجال كان لشخصياتهم أثرها الفعال فى أوطانهم وفى مختلف الميادين بحيث أصبحوا خير من يمثل حضارات بلادهم فتطور الفكر السياسى فى الهند مثلا منذ مستهل القرن العشرين سوف تستقى من مؤلف يكون قد دبجه غاندى أو نهرو .

كذلك توخينا أن تكون هذه المجموعة فى متناول جميع الناس من

الناحية المالية وهذا ما حدانا الى أن نختار لها الاخراج الذى يلائم ذلك الهدف مظهرا وعدد صفحات .

فاضطررنا الى أن تكون باكورة المجموعة كتبا صغيرة ، وكنا كلما عرض لنا كتاب نفيس مفيد من الكتب الضخمة وقفنا حياله عاجزين ولما كنا قد أخذنا على عاتقنا أن نقوم بعمل علمى صرف لا يشوه آراء المؤلف وأفكاره اذا هى لخصت أو ضغطت ، رأينا فى مثل هذه الحال أن نكتفى من الكتاب الضخم ببعض فصول كاملة منه نترجمها ترجمة حرفية .

ولنا عظيم الأمل فى أن اقبال القراء على هذه المجموعة سيمكننا فى القريب العاجل من أن ننشر فيها الكتب المهمة مهما كان حجمها .

هذا ولما كانت الغاية القصوى من هذه المجموعة هى نشر الثقافة فلن نتردد كذلك فى أن ننشر فيها كتبا سبق أن ظهرت فى المكتبة العربية فى طبعات غالية الثمن .

والله ولى التوفيق .

دار المعارف بمصر

مقدمة المترجم

كتاب « لمحات من تاريخ العالم » ألفه باللغة الانجليزية زعيم الهند الكبير جواهر لال نهرو حينما كان سجينا بسبب كفاحه من أجل حرية وطنه واستقلاله ٠

والكتاب فى صورة رسائل وجهها نهرو الى ابنته « أنديرا » ، ويبلغ عدد هذه الرسائل ١٩٦ رسالة ، وصفحاتها نحو ألف صفحة ٠ وقد استغرق تأليفه نحو ثلاث سنوات : من أكتوبر ١٩٣٠ ، الى أغسطس ١٩٣٣ ٠

والفضل فى ظهور هذه الرسائل يرجع الى شقيقته « فيجايا لاكشمى بانديت » ، فهى التى رتبتها وأعدتها للطبع عام ١٩٣٤ تحت اسم « لمحات من تاريخ العالم » ٠

وليست قيمة هذا الكتاب النفيس فى مضمونه أو المادة التاريخية التى يجدها القارىء بين دفتيه عن الأمم فى أدوارها التاريخية ٠

فمن السهل أن يرجع القارىء الى مراجع تاريخ أى أمة كانت ، ويستخرج منها هذه الحقائق التاريخية أو أكثر منها ٠

انما قيمته عندى هى فى الجهد الذى بذله المؤلف فى تحرى تاريخ الأمم من أوثق المصادر التى تهيأت له فى السجن ، ثم فى ابراز هذا التاريخ فى صورة موجزة شاملة لايكاد ينقصها لون من الألوان المكملة للصورة ٠

وعلى سبيل المثال لقد خص نهرو مصر فى كتابه هذا بثلاث رسائل هى :

١ ـ احتلال بريطانيا لمصر ٠

٢ ـ مصر تكافح من أجل حريتها ٠

٣ ـ معنى الاستقلال تحت الحكم البريطانى ٠

فالقارىء المصرى لهذه الرسائل الثلاث يدرك مدى احاطة نهرو بتاريخ مصر ، ومدى فهمه وتتبعه لهذا التاريخ ، كأنما هو مصرى عاصر أحداث مصر ، وشارك فيها ، وسجلها تسجيلا أمينا دقيقا ٠

فاذا أخذنا ماكتبه نهرو عن مصر مقياسا لكل ما كتبه عن سائر الأمم الاخرى عرفنا قيمة هذه اللمحات من حيث هى تاريخ ٠

ولهذه اللمحات التاريخية قيمة أخرى ترجع الى طريقة المعالجة التى استخدمها المؤلف ٠ فعرض تاريخ الأمم فى صورة رسائل شخصية من شأنه أن يبث فى الحقائق التاريخية روحا وحياة ، ويحيل التاريخ الى قصص شائقة فى صورة رسائل ، أو الى رسائل شائقة فى صورة قصص ٠ ولا أعرف مؤرخا سبق نهرو الى مثل هذا النسق المبتكر فى عرض التاريخ واحيائه ٠

وهناك قيمة ثالثة لهذا الكتاب تتجلى فى آراء نهرو وتعليقاته الخاصة على الأحداث التاريخية ، والتى لاتكاد تخلو رسالة منها ٠ فهذه الآراء الصادرة عن شخصية انسانية عالمية كشخصية نهرو جديرة بأن يقف القارىء أمامها ويتدبر مراميها ٠

ومما يزيد من قيمة هذه الآراء المبعثرة فى ثنايا الرسائل انها لاتزال آراء سديدة صائبة ، على الرغم من مرور نحو ربع قرن على كتابتها ، وعلى الرغم مما طرأ خلال هذه الفترة من تقلبات وتطورات عالمية ٠

وهذا يدل بلا شك على ذكاء نهرو وتجربته ، وسعة أفقه ومدى علمه ، وعمق فكره ووضوحه ، وقوة منطقه ، وحسن فهمه للأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بمقدماتها ونتائجها ٠

وعلى الاجمال ان آراء نهرو فى اللمحات وموقفه الخاص من أحداث التاريخ وتقلبات الدول والحضارات ليدل ، فيما يدل ، على واقعية الرجل وانسانيته ، وصدق فراسته وأحكامه ، وعلى أنه مؤرخ سابق لعصره ٠

ويحدثنا كريشنا مينون فى مقدمته لهذا الكتاب عن نهرو فيقول : « ان بانديت نهرو من الشخصيات النادرة فى الحياة العامة التى تجمع بين النشاط الشديد الدائب ، وبين الالهام ، واستقلال الحكم » •

ويحدثنا عن كتابة نهرو فيقول : « تغلب على كتابة نهرو التجربة والمعرفة ، والعمق والالمام الشامل » •

ثم يحدثنا أخيرا عن كتابه هذا فيقول : « ليس كتاب « لمحات من تاريخ العالم » مجرد سرد لحوادث التاريخ • وانما هو أيضا انعكاس لشخصية المؤلف ، وذكائه النادر ، وعقله اللماح ، مما يجعل التاريخ عملا فذا فى ذاته • ويمتاز بالبساطة ووضوح الطريق ، ومعالجته خالية من السطحية • وهو يظهر مؤلفه كمؤرخ كبير عرض لنا التاريخ وفسره تفسيرا صحيحا فى صدق وبعد نظر » •

وبعد ، فالكتاب الذى أقدمه اليوم للقراء هو مختارات من كتاب « لمحات من تاريخ العالم » • وأود أن أنبه الى أن بالكتاب رسائل كثيرة عن مصر والعالم العربى ، وهذه لم أحاول ترجمتها ، لأن مضمونها التاريخى معروف لكل قارىء عربى •

وانما ركزت اختيارى على رسائل خاصة لما تفتحه من آفاق ، وتلقيه من أضواء على جوانب هامة من التاريخ جدير بالقارىء العربى أن يراها ويتبينها ، ويلم بآراء نهرو فيها •

وقد وضعت أمام عنوان كل رسالة رقمها فى الأصل الانجليزى تسهيلا لمن شاء أن يرجع الى الرسالة فى الأصل • كذلك يجد القارىء فى آخر الكتاب خمس خرائط متصلة ببعض الرسائل المختارة هنا ، ووردت فى الأصل الانجليزى •

وعسى أن يجد القارىء فى هذه الرسائل المختارة من المتعة الروحية والعقلية مثل ما وجدت أنا فى قراءتها وفى ترجمتها ••

يناير ١٩٥٨ **عبد العزيز عتيق**

مقدمة المؤلف

لا أعرف متى وأين تنشر هـذه الرسائل ، بل لا أعرف مطلقـا ان كان سيقدر لها أن تنشر · فالهند اليوم قطر غريب ، ومن الصعب أن يتنبأ المرء · ولكنى أنتهز هذه الفرصة السـانحة فأكتب هـذه الأسطر قبل أن تستبد بى الحوادث ·

وبالنسـبة لهذه الرسائل التاريخيـة أرانى بحاجة الى ايضـاح واعتذار · وربما وجد القارىء الايضاح والاعتذار فى ثنايا الرسائل ، وبخاصة الرسالة الأخيرة ·

فقلما كان لدى فى البدء خطة بشأن هذه الرسائل ، وما كان يدور بخاطرى أنها ستكبر وتتضخم الى هذا الحد ·

فمنـذ ست سـنوات تقريبا ، عندما كانت ابنتى فى العاشرة من عمرها ، كتبت لها عددا من الرسائل تضمنت وصفا موجزا بسيطا عن العالم القديم ·

وقد نشرت هذه الرسائل فى كتاب مسـتقل ، واسـتقبلها القراء استقبالا كريما · ثم قامت بنفسى فكرة الاسـتمرار فى كتابة هـذه الرسائل ·

ولـكن حياتى الحافلة بالنشاط السياسى ، ظلت تحول دون ظهور هذه الفكرة الى حيز الوجود ، حتى هيأ لى السجن الفرصة فانتهزتها ··

وحياة السجن لها مزاياها · فهى تمد السجين بوقت الفراغ ، وبدرجة من العزلة والانقطاع عن العالم الخارجى ·

ولكن للسجن عيوبه الواضحة أيضا ·· فليس فيه مكتبات ، ولا يستطيع أن يجد فيه السجين الذى يريد أن يتوفر على عمل علمى ما يشاء من كتب المراجع العلمية ·

لقد وصلت الى بعض الكتب فى السجن ، ولكن هذه ما كان يمكن الاحتفاظ بها طويلا ·

ومنذ اثنتى عشرة سنة بدأ يزج بى فى السجن مع كثيرين غيرى من المواطنين والمواطنات · وما كنت أخرج من السجن الا لأعود اليه ·

وقد اعتدت خلال هذه السنوات أن أدون ملاحظات عن الكتب التى كنت أقرؤها · وعلى مر الأيام والسنين كثرت كراسات ملاحظاتى ، وهذه أسعفتنى عندما شرعت فى الكتابة ·

ولم أقتصر طبعا فيما كتبت على كراسات ملاحظاتى ، وانما استعنت بكتب أخرى كثيرة مثل كتاب « مجمل التاريخ » للكاتب هـ · ج · ويلز ·

ولكن الحاجة الى كتب المراجع القيمة كانت حقيقة واقعة ، ولهذا فكثيرا ما كان عرضى للتاريخ غامضا ، كما كان تعرضى لبعض فترات تاريخية خاصة تعرضا سريعا خاطفا ·

وهذه الرسائل هى رسائل شخصية ، تشيع فيها اشارات خاصة عنيت بها ابنتى فقط · ولست أدرى ماذا أفعل مع هذه الاشارات ، ومحاولة حذفها بدون جهد كبير ليس أمرا سهلا ؟

ان حياة السكون وعدم العمل والحركة الجثمانية من شأنها أن تؤدى بالمرء الى التمعن فى أطواء النفس والعقل ، والى مشاعر وأحاسيس متغيرة ، وهذه المشاعر والأحاسيس المتغيرة واضحة فى ثنايا هذه الرسائل • وفى الوقت نفسه ان طريقة المعالجة التى استخدمتها ليست هى الطريقة الموضوعية الجديرة بالمؤرخ •

ولست أزعم أنى مؤرخ ، فهذه الرسائل يشيع فيها مزيج من الكتابة التى لا تصلح لغير الشباب ، ومن مناقشة لأفكار الكبار أحيانا ، ومن تكرار فى كثير من المواضع ، ومن نبذ غير عميقة انتظم بعضها الى بعض بخيط رفيع • وعلى الاجمال ان ما فى الرسائل من قصور وأخطاء أكثر من أن يحصى •

لقد استعرت حقائقى وأفكارى التاريخية من كتب غريبة ، ولهذا فمن المحتمل أن يكون قد تسرب بعض ما فى هذه الكتب من أخطاء الى الرسائل •

وكان فى نيتى أن يتولى تنقيح هذه الرسائل عنى مؤرخ قدير ، ولكنى لم أتمكن من تحقيق ذلك خلال الفترات القصيرة التى كنت فيها خارج السجن

وكثيرا ما عبرت عن آرائى فى هذه الرسائل بطريقة أقرب الى الهجوم ، ومع ذلك فأنا لا أزال أتمسك بهذه الآراء • ولكن نظرتى للتاريخ قد تغيرت تدريجيا حتى أثناء كتابة هذه الرسائل •

واذا قدر لى اليوم أن أعيد كتابة هذه الأفكار فانى قد أكتبها كتابة مختلفة ، أو مع تأكيد مختلف • ولكنى لا أستطيع أن أمزق ماكتبت ، وأعيد كتابته من جديد •

أول يناير ١٩٣٤ **جواهر لال نهرو**

٤ — آسـيا وأوربا

٨ يناير سنة ١٩٣١

كل شيء يتغير تغيرا مستمرا . وهل التاريخ فى حقيقته الا سجل للتغير ؟ ولو كانت التغيرات التى حدثت فى الماضى قليلة جدا ، لكان ما دون من التاريخ لايعدو نزرا ضئيلا .

والتاريخ الذى نتعلمه عادة فى المدارس والجامعات ليس بالقدر الكافى . وأنا لا أعرف كثيرا جدا عما تعلمه الآخرون ، أما عن نفسى فأعرف أنى تعلمت قليلا فى المدرسة .

لقد تعلمت قليلا ... قليلا جدا من تاريخ الهند وتاريخ انجلترا . وحتى تاريخ الهند الذى تعلمته كان الى حـد كبير مغلوطا ومشـوها ومكتوبا بأقلام رجال نظروا الى وطننا نظرة احتقار وازدراء .

هذا مبلغ علمى بتاريخ وطننا ، أما عن تاريخ الأمم الأخرى فليس لدى عنه صورة واضحة . ولم يتح لى أن أقرأ بعض التاريخ الحقيقى الا بعد أن غادرت الجامعة . ولحسن الحظ ان دخولى السجن المرة بعد المرة قد أعطانى فرصة للاستزادة من المعرفة .

لقد كتبت اليك فى بعض رسـائلى السابقة عن حضـارة الهنـد

القديمة ، عن الدرافيديين ومجيء الآريين • واذا كنت لم أكتب اليك كثيرا عن العصور التي سبقت عصر الدرافيديين فذلك لأنى لا أعرف الكثير عن هذه العصور • ولكن سيشوقك أن تعرفى أن آثار حضارة قديمة فى الهند قد اكتشفت خلال السنوات القليلة الماضية •

هذه الآثار قد اكتشفت فى شمالى غرب الهند بالقرب من مكان يسمى « موهين جودارو » • لقد نقب علماء الآثار عن هذه الآثار التى يرجع تاريخها الى خمسة آلاف سنة ، وقد عثروا أثناء تنقيبهم على موميات أشبه بموميات مصر القديمة • تخيلى ! كل هذا كان منذ آلاف السنين وقبل مجيء الآريين الى الهند بزمن طويل • لابد أن أوربا كانت وقتذاك غابات وكهوفا •

ولكن أوربا اليوم قوية ، وأهلها يعتبرون أنفسهم أكثر شعوب الأرض مدنية وثقافة • وهم ينظرون الى آسيا وأهلها نظرة احتقار • وهم اذ يأتون اليها فانما ليخطفوا كل ما يستطيعون الاستيلاء عليه من الشعوب الآسيوية ، فما أعجب ما تغيرت الأيام والأحوال !

والآن دعينا ننظر نظرة فاحصة الى أوربا وآسيا • ولنحقق ذلك افتحى أى أطلس وانظرى الى قارة أوربا الصغيرة الملتحمة بالقارة الآسيوية الكبيرة ، وكأنها امتداد قليل لها •

واذا طالعت التاريخ فسوف تجدين أن آسيا كانت سائدة متغلبة خلال عصور طويلة ، وأن أهلها رحلوا الى أوربا أفواجا اثر أفواج وقهروها • فالآريون ، والسيثيون ، وقبائل الهون ، والعرب ، والمغول ، والأتراك ، رحلوا كلهم من أماكن مختلفة فى آسيا وانتشروا فى آسيا وأوربا • ويبدو أن آسيا كانت تنسل هؤلاء الناس وتلدهم فى كثرة هائلة كأرجال الجراد • وفى الحقيقة ظلت أوربا طويلا

كمستعمرة لآسيا ، وكثيرون من أبناء أوربا الحديثة يرجعون فى أصلهم الى أولئك الغزاة الآسيويين ٠

وآسيا تمتد على الخريطة كعملاق ضخم كبير ٠ وأوربا تبدو بجانبها ضئيلة ٠ ولكن هذا لا يعنى ، بطبيعة الحال ، أن أهمية آسيا ترجع الى حجمها ، أو أن أوربا أقل أهمية وشأنا منها ٠ فالحجم هو آخر مقياس تقاس به عظمة أى رجل أو أى قطر ٠

ونحن نعرف جيدا أن أوربا اليوم عظيمة وان كانت أصغر القارات٠ كذلك نعرف أن كثيرا من أقطارها تمتعت بفترات مشرقة من التاريخ، وأنجبت علماء استطاعوا بفضل اكتشافاتهم واختراعاتهم أن يخطوا بالحضارة الانسانية خطوات فساحا ، وأن ييسروا الحياة ويسهلوها لملايين البشر٠ ولم تنجب هذه الاقطار علماء فقط وانما أنجبت أيضا كتابا ومفكرين وفنانين وموسيقيين وقادة ٠ ولهذا يكون من الحماقة الا نعترف بعظمة أوربا ٠

ومن الحماقة أيضا أن ننسى عظمة آسيا ٠ ولاحتمال أن نخدع قليلا بتألق أوربا وننسى الماضى ، دعينا نتذكر أن آسيا أنجبت قادة الفكر الذين أثروا فى العالم أكثر من أى شخص وأى شىء فى أى مكان آخر ٠ هؤلاء القادة هم المؤسسون الكبار للأديان الرئيسية ٠ فالهندوكية التى تعتبر أقدم الديانات الكبرى الموجودة حتى اليوم ولدت فى الهند ٠ ومثلها أيضا البوذية التى هى صنو الهندوكية والتى تنتشر فى الصين واليابان وبورما والتبت وسيلان٠ واليهودية والمسيحية ديانتان آسيويتان مهدهما فلسطين على شاطىء آسيا الغربى ٠ والزارادشتية ديانة الفرس بدأت فى ايران ٠ ومحمد نبى الاسلام ــ كما تعرفين ــ ولد بمكة فى شبه جزيرة العرب ٠ وانك لتستطيعين أن تملئى صفحات بأسماء كبار مفكرى آسيا من أمثال

كريشنا وبوذا ، وزارادشت والمسيح عيسى ومحمد ، وكنفشيوس ولوتسى فيلسوفى الصين الكبيرين • وتستطيعين أيضــا أن تملئى صفحات بأسماء القادة والزعماء والقواد•وأستطيع أن آريك بوسائل شتى مقدار عظمة وحيوية قارتنا القديمة فى العصور الغابرة •

فما أشد ما تغيرت العصور وتقلبت الأحوال ! ولكنها تتغير ثانية حتى أمام أعيننا• فالتاريخ يعمل عادة ببطء خلال الأجيال والعصور وان كانت هناك فترات اندفاعات وانفجارات •

ومهما يكن من أمر فالتاريخ اليوم يتحرك بسرعة فى آسيا، والقارة القديمة قد بدأت تستيقظ بعد نعاســها الطويل • ان أعين العــالم تتطلع اليها الآن لأن كل شخص يعرف أن آسيا سوف تلعب دورا كبيرا فى المستقبل •

٨ — امبراطوريات فى غرب آسيا

١٣ يناير سنة ١٩٣١

لقد أسعدنى أن أراكم جميعا أمس • ولكننى صدمت عند ما رأيت جـدك هزيلا مريضـا • ورجائى أن تعنى به عنـاية تامة حتى يستعيد صحته وقوته مرة أخرى •

وأمس لم أستطع أثناء زيارتكم أن أتحدث اليك ، وماذا يستطيع انسان أن يفعل فى زيارة قصيرة كهذه ؟

على أنى سأحاول أن أعوض كل الزيارات والأحاديث التى نتمناها ولم تتحقق بكتابة هذه الرسائل اليك • ولكن هيهات أن تكون هذه الرسائل عوضا أو بديلا عن اجتماعاتنا وأحاديثنا ، فالتصـنع أو خداع النفس لا يستمر طويلا ، وان كان نافعا أحيانا !

والآن دعينا نعود الى القدماء • لقد وقفنا فى أحاديثنا منذ عهد قريب عند قدماء الاغريق • فماذا كانت حقيقة الأقطار الأخرى التى تعاصر الاغريق القدماء ؟

لسنا فى حاجة الى أن نشق على أنفسنا كثيرا بالحـديث عن أقطار أوربا الأخرى • فنحن لا نعرف أو ، على الأقل ، أنا لا أعرف شيئا ذا بال عن هذه الأقطار •

فمن المحتمل أن مناخ أوربا الشمالية قد تغير ، وأن أحوالا جديدة قد تولدت عن هذا التغير • ولعلك تذكرين أن مناخ أوربا الشمالية وآسيا الشمالية كان باردا جدا فى العصر الجليدى الذى امتدت فيه أنهار الجليد الضخمة الى أوربا الوسطى • ومن المحتمل أن الانسان لم يوجد فى ذاك العصر ، ولو افترضنا وجوده فيــه فلا بد أنه كان أقرب الى الحيوان منه الى الانسان •

وقد تسألين فى عجب كيف نستطيع الآن أن نقول انه كان هناك أنهار من الجليد فى تلك الأيام • لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون هناك سجل بذلك فى الكتب ، اذ لم يكن فى العصر الجليدى كتب ولا مؤلفو كتب • ولكنى أرجو أنك لم تنسى بعد كتاب الطبيعة • فللطبيعــة طريقتها الخاصة فى كتابة تاريخها على صخورها وأحجارها • ومن الممكن لكل طالب أن يقرأ تاريخها حيث دونته ، فهو أشبه بترجمة الانسان لحياة نفسه • ولأنهار الجليد طريقة تترك بها علامات خاصة تدل على وجودها • وقلما تخطئين هذه العلامات بعد تبينها لأول مرة•

فاذا أردت دراسة هذه العلامات فما عليك الا أن تذهبى الى أحد أنهارنا الجليدية فى جبال الهملايا أو جبال الألب أو أى جبال أخرى• لقد رأيت بنفسك أنهار الجليد حول « مون بلان » فى جبال الألب ، ولكن من المحتمل أن أحدا لم يلفت نظرك وقتذاك الى هذه العلامات الخاصة •

وهناك عدد كبير من أنهار الجليد هذه فى كشمير وفى أجزاء أخرى من جبال الهملايا ، وأقربها الينــا نهر بندارى الجليــدى الذى على مسيرة أسبوع من ألمورا• لقد زرت هذا المكان مرة وأنا فى سن أصغر من سنك الآن ، ولا تزال صورته حتى اليوم عالقة بذهنى •

وبدل الحديث عن التاريخ والماضى أرى التيار قد جرفنى للحديث

عن أنهار الجليد وبندارى ، ومبعث ذلك هو الاسترسال فى لعبة خداع النفس ! فأنا أريد – اذا أمكن – أن أتحدث اليك كما لو كنت هنا معى · فاذا أمكن هذا كان علينا حقا أن نقوم من وقت الى آخر برحلات قصيرة الى أنهار الجليد وما أشبهها ·

ان الحديث قد تطرق بنا الى أنهار الجليد بسبب اشارتى الى العصر الجليدى · ومن الممكن القول بأن هذه الأنهار قد امتدت الى أوربا الوسطى وانجلترا ، لأننا ما زلنا نستطيع أن نجد فى هذه الأقطار العلامات الخاصة التى تتسم بها أنهار الجليد ·

وهذه العلامات توجد على الصخور القديمة ، وهذا من شأنه أن يجعلنا نظن بأن المناخ لا بد أنه كان وقتئذ باردا جدا فى أوربا الوسطى وأوربا الشمالية · ثم صار المناخ فيما بعد أدفأ ، وتبعا لذلك تقلصت وانكمشت أنهار الجليد تدريجيا ·

ويحدثنا الجيولوجيون أو علماء تاريخ طبقات الأرض أن موجة البرد هذه تلتها موجة دفء أدفأ مما هى عليه الآن فى أوربا ، ونتيجة لهذا الدفء نمت غابات كثيفة فى أوربا ·

وقد وصل الآريون فى جولانهم وارتحالهم الى أوربا الوسطى أيضا ، ولما كانوا لم يخلفوا هناك شيئا يستحق الذكر فى هذه الفترة فاننا نستطيع مؤقتا أن نغفلهم ونسقطهم من حسابنا · وربما نظر المتمدنون من الاغريق وأبناء البحر الأبيض المتوسط الى سكان أوربا الوسطى وأوربا الشمالية على أنهم برابرة · ولكن هؤلاء « البرابرة » كانوا يحيون فى غاباتهم وقراهم حياة أقرب الى الحرب منها الى السلم ، ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يعدون أنفسهم لليوم الذى ينقضون فيه ببطء على حكومات شعوب الجنوب الأكثر تمدنا ·

وقد حدث هذا بعد ذاك بوقت طويل ، ومن ثم فلسنا فى حاجة الى تعجل الحوادث .

واذا جاز أننا نعرف قليلا عن أوربا الشمالية فاننا لا نعرف شيئا مطلقا عن قارات وأصقاع كبيرة . فأمريكا يرجع فضل اكتشافها الى كولومبوس ، ولكن ذلك لا يعنى أنه لم يعش فيها قوم متمدنون قبل أن يذهب كولومبوس اليها . ومهما يكن من أمر فاننا لا نعرف أى شىء عن أمريكا فى تلك العصور القديمة التى نتحدث عنها ، كما لا نعرف أى شىء أيضا عن قارة أفريقية ، هذا اذا استثنينا شاطئها المطل على البحر الأبيض المتوسط ، واذا استثنينا مصر، ومن المحتمل أن حضارة مصر القديمة العريقة كانت آنئذ فى طريقها الى الزوال ، ولكن على الرغم من ذلك فانها كانت فى هذه الفترة من الزمن أمة متقدمة جدا .

والآن دعينا ننتقل الى قارة آسيا ونرى حالتها فى الفترة التى نتحدث عنها . ففى آسيا ـ كما تعرفين ـ كان هناك ثلاثة مراكز للحضارة القديمة ، هى الهند ، والصين ، وما بين النهرين .

أما عن حضارة ما بين النهرين ـ دجلة والفرات ـ وفارس وآسيا الصغرى فى هذه العصور القديمة فتتمثل فى امبراطوريات متعاقبة، فامبراطورية تزول وتفسح الطريق لأخرى جديدة تقوم على انقاضها، فهناك كانت الامبراطورية الآشورية ، والامبراطورية الميدية ، والامبراطورية البابلية ، وأخيرا الامبراطورية الفارسية .

ولسنا فى حاجة الى أن نفصل كيف حاربت هذه الامبراطوريات بعضها بعضا ، أو كيف عاشت جنبا الى جنب فى سلام لمدة ما ، أو كيف قضى بعضها على البعض الآخر .

ولاشك أنك تلاحظين الفرق بين دول المدن الاغريقية وامبراطوريات غرب آسيا • ويبدو أنه كان هناك منذ العصور الأولى رغبة قوية فى تكوين دولة كبرى أو امبراطورية فى هذه الأقطار • وقد تعزى هذه الرغبة الى ما كانوا عليه من حضارة قديمة أو الى أسباب أخرى •

وهناك اسم واحد قد يهمك ، ذلك هو اسم « كروسوس » ـ قارون ـ الذى لابد أنك سمعت به • فصاحب هذا الاسم يضرب به المثل فى اللغة الانجليزية على كثرة الغنى وسعة الثراء • وربما تكونين قد قرأت قصصا عن كروسوس هذا تبين مدى غناه وابائه فى موضع الاباء وتواضعه فى موضع التواضع •

لقد كان كروسوس ملك « ليديا » على شاطىء آسيا الغربى حيث آسيا الصغرى الآن • ولا بد أن حركة التجارة فى بلاده كانت نشيطة رائجة لمتاخمتها لشاطىء البحر الأبيض •

وفى عصر هذا الملك كانت الامبراطورية الفارسية فى عهد « قورش » آخذة فى النمو والقوة • وقد نشبت الحرب بين كروسوس وقورش وهزم قورش كروسوس • وقد روى لنا هيرودوت المؤرخ الاغريقى قصة هذه الهزيمة وكيف أن الحكمة والعقل لم يتخليا عن كروسوس الأبى فى أوقات محنته وبؤسه •

وقد كون « قورش » امبراطورية كبيرة من المحتمل أنها امتدت الى الهند شرقا ، ولكن أحد خلفائه « دارا » كون امبراطورية أكبر ضمت مصر وبعض آسيا الصغرى وجزءا صغيرا من الهند بالقرب من نهر السند • ويقال ان كمية كبيرة من تبر الذهب كانت ترسل اليه كجزية من هذه المقاطعة الهندية التابعة له • ولا بد أنه كان يوجد فى ذاك العصر كميات من تبر الذهب على مقربة من نهر السند • أما

اليوم فلا يوجد شيء منه هناك ، واستحال معظم الأرض التى كان يستخرج منها هذا المعدن الى صحراء ، وهـذا أمر يدل على احتمال تغير المناخ ٠

ولما كنت ستقرئين التاريخ وتفكرين فى أحوال الماضى وتقارنينها بأحوال الحاضر فان ما سيسترعى اهتمامك أكثر من غيره هو التغير الذى حدث فى آسيا الوسطى ، فمن هذا المكان نسلت قبائل لا تعد ولا تحصى ، ارتحل منها من ارتحلوا وانتشروا فى قارات بعيدة٠ وفى هذا المكان نشأت فى الماضى مدن كبيرة قوية غنية٠مدن يمكن مقارنتها من حيث تعداد سكانها بعواصم أوربا الكبرى اليوم، وكانت من حيث مساحتها أكبر من مدن مثل كلكتا وبومباى فى وقتنا الحاضر ٠

وكانت هذه المدن تتمتع بالحدائق وبالخضرة تطيف بها من كل مكان ، وكان مناخها طيبا معتدلا ، فلا هو بالحار جدا ولا البارد جدا ٠

هكذا كانت آسيا الوسطى فى تلك العصور ٠ أما اليوم ولمئـات من السنين خلت فهى أرض قاحلة عقيم تكاد تكون صحراء ، وبعض مدنها الـكبيرة التى ازدهرت فى الماضى لا تزال قائمة مثل مدينـة سمرقند ومدينة بخارى مما يحيى مجرد ذكر اسمائها فى أذهاننـا فيضا زاخرا من الذكريات ٠ ولكن ما بقى منها الى اليوم لا يعـدو أشباح المدن التى كانت حينا حية نابضة بكل مظاهر الحياة ٠

وبعد فمرة أخرى أشعر بأنى أتعجل حوادث التاريخ ٠ فنحن فى هذه المرحلة نستقرىء صحائف التاريخ القديم حيث لم تكن سمرقند ولا بخارى قد ظهرتا الى عالم الوجود ، فتاريخ عصرهما لم يجن حين دراستنا له بعد ٠ ان نقاب المستقبل قد حجبه وأخفـاه ، ولا يزال أمامنا أشواط فى دراسة تاريخ حضارة آسيا الوسـطى من حيث عظمتها وانحلالها وزوالها ٠

١٧ — فاتح عظيم ولكنه شاب مغرور

٢٤ يناير سنة ١٩٣١

فى رسالتى الأخيرة ، وفى بعض الرسائل السابقة ، أشرت بعض اشارات الى الاسكندر الأكبر · وأظن أنى قلت فى احدى هذه الاشارات انه اغريقى ·

ذلك القول لا يدنو تماما من الصواب ، لأن الاسكندر فى الحقيقة مقدونى الأصل ، أى أنه ينتسب الى بلاد مقدونيا التى تقع فى شمال اليونان ·

والمقدونيون يشبهون الاغريق من أوجه كثيرة ، ويمكنك أن تسميهم أبناء عمومتهم أو خئولتهم ·

وكان فيليب أبو الاسكندر ملك مقدونيا ، ملكا قديرا ، استطاع أن يجعل من مملكته الصغيرة مملكة قوية ، وأن ينشىء جيشا ذا كفاية ·

والاسكندر يسمى بـ« الأكبر » وله شهرة عالية جدا فى التاريخ ولكن الفضل فى معظم ما نجح فيه من فتوحات وانتصارات ، انما يرجع الى مجهود أبيه فيليب من قبله ·

وعظمة الاسكندر ، أو عدم عظمته ، هى فى الحقيقة أمر مشكوك فيه ·

واذا قسته بمقياسى للبطولة فهو بالتأكيد ليس بطلا من أبطالى . ولكنه استطاع فى زمن قصير أن يطبع اسمه على قارتين ، كما أنه فى التاريخ يعتبر أول الفاتحين للعالم ، ولا يزال يذكر بعيدا فى قلب آسيا الوسطى باسم « اسكندر » . ومهما يكن من أمره فقد نجح التاريخ فى أن يلقى على اسمه لألاء وبريقا . وقد سميت عشرات المدن باسمه ، وكثير منها لا يزال موجودا الى اليوم ، وأكبرها مدينة الاسكندرية فى مصر .

وعندما تولى الاسكندر الملك كان يبلغ من العمر عشرين سنة . وكشاب يملؤه الطموح الى تحقيق العظمة ، كان تواقا الى أن يزحف بالجيش القوى الذى أنشأه له والده الى الفرس عدو بلاده القديم .

أما الاغريق فلم يحبوا فيليب ، ولا ابنه الاسكندر ، ولكنهم كانوا يخشون قوتهما ، ومن ثم فقد اعترفوا بكليهما واحدا بعد الآخر قائدا عاما لكل القوات الاغريقية التى كانت تعد لغزو الفرس . وهكذا أظهروا الولاء والطاعة للقوة الجديدة التى كانت فى طريقها الى الظهور .

وقد ثارت ضد الاسكندر مدينة اغريقية واحدة هى مدينة « طيبة » ولكنه ضربها ضربة قاضية بفظاعة وقسوة شنيعتين . لقد خرب هذه المدينة العظيمة ، وهدم مبانيها ، وقتل كثيرا من رجالها ونسائها وأطفالها ، وباع آلافا من أهلها عبيدا . وبهذا العمل البربرى أدخل الرعب والفزع على قلوب الاغريق . ولكن هذا وأمثاله من أعمال البربرية التى تخللت حياته لا تنال اعجابنا ، وانما تثير فينا التقزز والاشمئزاز .

لقد هزم الاسكندر دارا الثالث ملك الفرس وخليفة « أردشير » Xerxes ، ثم فتح مصر التى كانت وقتئذ تحت حكم الفرس . ثم

زحف الاسكندر ثانيـة نحو الفرس وهزم دارا الثـالث الذى كان يسمى ب « ملك الملوك » وهدم قصره انتقاما لحرق أردشير لمدينة أثينا ٠

وهناك فى اللغة الفارسية كتاب قديم فى تاريخ ملوك الفرس اسمه « الشهنامة » كتبه منذ ألف سنة الفردوسى الشاعر الفارسى ٠ وهذا الكتاب يصف فى صور خلابة جدا المعارك الحربيـة التى نشبت بين الاسكندر ودارا ٠ فهو يحدثنا أن دارا ، عنـدما هزم ، طلب المساعدة من الهند ، وذلك بأن « أرسل رجلا على جمل فى سرعة الريح » الى « فور » أو « بوروس » الذى كان ملكا على شـمال غرب الهنـد ، ولكن بوروس لم يستطع مساعدته مطلقا ، لأنه هو نفســه كان مترقبا غزو الاسكندر له من وقت الى آخر ٠ ومما يهم أننا نجد فى شهنامة الفردوسى اشارات عديدة الى أن ملوك الفرس ونبلاءها كانوا يستعملون الخناجر والسيوف الهندية ٠ وهذا يدل على أن الهند كانت حتى فى عصر الاسكندر تصنع من الفولاذ سـيوفا ممتازة يرحب بها فى البلاد الأجنبية ٠

ومن بلاد الفرس ، أخـذ الاسـكندر يجول ويتنقل بجيشه مارا ب « هرات » Herat وكابول وسمرقند حتى بلغ وديان نهر السند العليا ، حيث قابل أول حاكم هندى قاومه ٠ ويطلق مؤرخو الاغريق فى لغتهم اليونانية على هذا الحاكم الهنـدى اسم « بوروس » Porus ولا بد أن اسمه الحقيقى كان شبيها بهذا الاسم ولكننا لانعرفه ٠

ويقال ان بوروس قاتل قتالا باسلا مستميتا لدرجة أنه لم يكن من السهل على الاسكندر أن يتغلب عليه ٠ ويقـال ان بوروس كان بطلا شهما مديد القامة جدا ، وان الاسكندر أعجب غاية الاعجاب بشجاعته وشهامته ، حتى لقد تركه بعد أن هزمه حاكما على مملكته ٠ ولكنه أصبح ، بعد أن كان الملك بوروس ، حاكما من حكام الاغريق ٠

لقد دخل الاسكندر الهند عن طريق ممر خيبر فى شمال غرب الهند ، فمدينة تاكسيلا Taxila شمالى«روالبندى» Rawalpindi ويمكنك أن ترى آثار هذه المدينة القديمة وأطلالها الباقية حتى اليوم ٠

ويبدو أن الاسكندر قد فكر ، بعد أن هزم الملك بوروس ، فى التقدم الى الجنوب نحو نهر الكنج Ganges ولكنه لم يفعل ذلك وعاد عن طريق وادى نهر السند ٠

وانه لأمر ذو بال أن نفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو أن الاسكندر تابع زحفه وتقدمه الى قلب الهندستان ٠ أكان يمكن أن يستمر منتصرا ؟ أم كانت الجيوش الهندية تغلبت عليه ؟ ان ملكا على الحدود مثل بوروس قد سبب له عند اصطدامه به متاعب جمة ، ولهذا فقد كان من الممكن للممالك الكبرى فى الهند الوسطى أن تصد بما لديها من قوة غزو الاسكندر وتقف تقدمه وزحفه ٠

ولكن مهما يكن من أمر رغبة الاسكندر أو عدم رغبته فى متابعة الزحف ، فان جنوده قد قرروا نيابة عنه فيما بينهم مايجب أن يكون٠ لقد أتعبتهم وأنهكتهم سنوات طوال من الحرب والقتال والانتقال من مكان الى مكان ٠ وربما أثر فيهم ما شاهدوه من صفات القتال العالية لدى الجنود الهنود فلم يرغبوا فى أن يجازفوا بالاشتباك معهم خشية الهزيمة ٠

ومهما يكن السبب فان الجيش أصر على العودة ولم يملك الاسكندر ازاء هذا الاصرار الا أن يوافقهم ويرضخ لمشيئتهم ٠ ولم تكن رحلة العودة رحلة سهلة ، بل على العكس كانت كارثة قاسى فيها الجيش ما قاسى من قلة الزاد والماء ٠ ولم يمهل القدر الاسكندر طويلا بعد ذلك فمات عام ٣٢٣ قبل الميلاد فى بابل Babylon على نهر الفرات ٠

وهكذا لم يقدر له ثانية أن يرى مقدونيا وطنه بعد أن خرج منها الى الحرب الفارسية ٠

وقد مات الاسكندر فى الثالثة والثلاثين من عمره ، فماذا فعل هذا الرجل « العظيم » خلال حكمه القصير ؟ لقد كسب بعض المعارك الحربية العجيبة ، وكان بلا شك قائدا محنكا ، ولكنه كان فى الوقت ذاته مغرورا معجبا بنفسه ، وأحيانا كان قاسي القلب عنيفا ٠ وقد بلغ به غرور النفس أنه كاد أن يعتبر نفسه الها ! وفى نوبات الغضب أو نزوات الخبال العابرة قتل بعض خيرة أصدقائه ودمر مدنا كبيرة بمن فيها وما فيها ٠ انه لم يخلف وراءه فى امبراطوريته أثرا باقيا حتى الطرق التى بناها ٠ لقد تلألأ ثم خبا كشهاب فى السماء ، ولم يترك بعده شيئا من نفسه الا ذكرى ٠

وبعد موته نشب الصراع والتنافس بين أعضاء أسرته وقاتلوا بعضهم بعضا ، وتمزقت امبراطوريته الشاسعة الأطراف اربا اربا ٠

والاسكندر يسمى فاتح العالم ، ويقال انه جلس ذات مرة وبكى لأنه لم تكن هناك أقطار أخرى باقية ليفتحها ! ولكن الهند ــ الا بعض شمالها الغربى ــ كانت لا تزال أمامه لم يقهرها ولم يفتحها ، والصين كانت وقتئذ دولة كبيرة فلم يتجه اليها الاسكندر أو يقترب منها ٠

وبموته تقاسم قواده امبراطوريته، فوقعت مصر من نصيب بطليموس الذى أقام فيها حكومة قوية وأسس فيها دولة البطالسة ، وفى عهد هذه الحكومة التى اتخذت من الاسكندرية عاصمة لها كانت مصر قوية ، وأصبحت الاسكندرية مدينة كبيرة تتمتع بمركز شهير فى العلم والفلسفة والثقافة ٠

أما الفرس وما بين النهرين (دجلة والفرات) وجزء من آسيا الصغرى فكانت من نصيب قائد آخر يسمى « سيليوكس » Seleucus • وكان من نصيبه أيضا الجزء الذى فتحه الاسكندر من شمال غرب الهند • ولكنه لم يستطع أن يستبقى أى جزء من الهند، وطردت الحامية الاغريقية من هناك عقب وفاة الاسكندر •

لقد كان مجىء الاسكندر الى الهند فى عام ٣٢٦ قبل الميلاد ، ولم يكن مجيئه هذا الا غارة لم تترك أى أثر فى الهند • ويظن البعض أن هذه الغارة قد ساعدت على ابتداء اختلاط الهنود بالاغريق • ولكن الاتصال فى واقع الأمر ، بين الشرق والغرب كان موجودا حتى قبل عصر الاسكندر ، وكانت الهند على اتصال دائم بفارس وباليونان أيضا • ولا بد أن هذا الاتصال قد زاد بطبيعة الحال بسبب زيارة الاسكندر ، ولا بد أن الثقافتين الهندية والاغريقية قد امتزجتا الى حد ما •

ان غارة الاسكندر ووفاته مهدتا فى الهند الى ظهور امبراطورية كبيرة هى الامبراطورية الموريانية the Mauryan Empire. وهذه الامبراطورية كانت أحد العصور الهامة الكبرى فى تاريخ الهند ، ولهذا يجب أن نخصها بشىء من الوقت نتحدث فيه عنها •

٢٧ — روما ضد قرطاجنة

٥ ابريل سنة ١٩٣٢

سنرحل الآن من الشرق الأقصى الى الغرب ، ونتتبع نمو رومة التي يقال انها تأسست فى القرن الثامن قبل الميلاد . ومن المحتمل أن الرومان الأوائل ينتمون الى الجنس الآرى . وقد اتخذ هؤلاء بعض مساكن لهم على التلال السبعة على مقربة من نهر التيبر the Tiber وقد نمت هذه المساكن ببطء على مر الأيام حتى صارت مدينة . ودولة المدينة هذه ظلت تنمو وتتسع فى ايطاليا حتى بلغت الطرف أو الرأس الجنوبى عند مسينا تجاه جزيرة صقلية .

ولعلك تذكرين دول المدن الاغريقية : فالاغريق كانوا ، حيثما ذهبوا ، يحملون معهم فكرة دولة مدينتهم ، وكانت المستعمرات الاغريقية ودول المدن الاغريقية مبعثرة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط .

ولكننا الآن فى رومة نعالج شيئا مختلفا عن هذا كل الاختلاف . فمن المحتمل أن رومة لم تكن مخالفة لدولة المدينة الاغريقية ، ولكن سرعان ما امتدت نتيجة هزيمتها للقبائل المجاورة ، وهكذا اتسعت حدود رقعة الدولة الرومانية وشملت أكبر جزء من ايطاليا . ومساحة كبيرة كهذه لا يمكن أن تكون دولة مدينة . لقد كانت محكومة من

رومة ، وروبة نفسها كان بها نوع غريب من الحكم • فلم يكن هنـاك امبراطور أو ملك ، ولم يكن هناك نظام الجمهورية الحديث • ولـكن الحكومة فيها كانت لونا من الجمهورية تسيطر عليها الأسر الغنية من أرباب الأراضى •

وكان المفروض أن المجلس التشريعى هو الذى يحكم ، وكان أعضاء هذا المجلس يعينون بواسطة شخصين منتخبين يطلق عليهمـا « القاضيان » • ولعهد طويل لم يكن أحـد غير الأشراف والأغنياء يستطيع أن يصبح عضـوا فى المجلس التشريعى • وكان الشعب الرومانى منقسما الى طبقتين : طبقة البطارقة ، أو الأشراف الاغنياء ، وهم عادة أرباب الأراضى ، وطبقة السوقة ، أو عامة المواطنين •

وقد ظل تاريخ الدولة ، أو الجمهورية الرومانية ، لعدة قرون تاريخ صراع بين هاتين الطبقتين • فمقاليد السلطة والحـكم كانت فى أيدى البطارقة أو الأشراف ، وقد ضموا الى السلطة والحكم الغنى والمـال ، وطبقة السوقة أو العامة كانت أقل من الكلاب شأنا ، وكانت محرومة من السلطة والمـال معا •

وظلت طبقـة العامة تكافح وتقاتل من أجل القوة حتى ظفرت فى النهاية ، وان كان فى بطء ، ببعض فتات السلطة • وجدير بالملاحظة أن طبقة العامة فى هـذا الـكفاح الطويل حاولت بنجاح نوعا من عدم التعاون • ذلك أنهم خرجوا من رومة فى حشد كبير ، واستقروا فى مدينة جديدة • وهذه المقاطعة بدورها ملأت أفئدة طبقة الأشراف فزعا وهلعا ، لعلمهم بأنهم لا يستطيعون أن ينجحوا بدون طبقـة العامة ، ولهذا عملوا على ارضائهم بمنحهم بعض الامتيازات الطفيفة • وشيئا فشيئا أصبح من الممكن لأى فرد من طبقة العـامة أن يتبوأ المراكز العالية وأن يترقى حتى يصير عضوا فى المجلس التشريعى •

وقد يظن من حديثنا عن ضروب الصراع بين طبقة الأشراف وطبقة العامة أنه لا أحد غيرهما يستحق الذكر . والواقع غير ذلك ، فبجانب هاتين الجماعتين كان فى الدولة الرومانية عدد عديد من العبيد حرموا كافة أنواع الحقوق ، فلم يكونوا مواطنـــين ، ولم يكن لهم حــق فى الانتخاب ، وكانوا ملكا شخصيا خاصا لسيدهم كالـكلاب والبقـر . وكان يمكن بيعهم وعقابهم وفق مشيئة السيد ، كما كان يمكن عتقهم أو تحريرهم بشروط خاصة . وقد كون من نالوا حريتهم منهم طبقة تدعى طبقة العتقاء أو الأحرار .

وفى العالم القديم كان هناك دائما اقبال شـــديد وطلب متزايد على العبيد فى الغرب . ومن أجل ذلك نشأت أسواق هائلة للعبيـــد ، وخرجت الحملات لتأسر الرجال والنساء وحتى الأطفال من أقطار نائية لتبيعهم عبيدا .

وان مجد اليونان القديم ، وروما ، ومصر القديمة ليقوم فى أساسه على نظام العبودية .

وبعد ، فهل كان نظام العبودية هذا سائدا وقتئذ فى الهند ؟ من المحتمل جدا أنه لم يكن سائدا فيها أو فى الصين . وهـذا لايعنى أنه لم يكن فى الهند القديمة أو الصين عبودية ، فالواقع أنه كان فيهما من يستخدمون غالبا فى الأعمال المنزلية ، وهؤلاء كانوا يعتبرون عبيدا . فالهند والصين لايبدو أنه كان لديهما عمال عبيد يشـــتغلون زمرا وجماعات بالزراعة أو بغيرها . وهكذا نجا هذان القطران من أشـــد ألوان العبودية اذلالا وعارا .

مما تقدم آنفا نرى أن روما قد كبرت واتسعت ، وأن طبقة الأشراف قد أفادت من ذلك وأصبحت أغنى وأكثر يسرا ورخاء . أما طبقة العامة

فظلت فى نفس الوقت فقيرة يعاملها الأشراف معاملة قاسية ، ليجعلوها أقل اعتزازا بنفسها ، وأكثر خضوعا لهم • وكلتا الطبقتين : الأشراف والعامة ، اجتمعتا على سوء معاملة العبيد البؤساء والنزول بآدميتهم •

واذا كانت رومة قد كبرت واتسعت فعلى أى نمط كانت تحكم ؟ لقد كانت ، كما ذكرت من قبل ، تحكم بمجلس الأشراف ، وكان أعضاء هذا المجلس يعينون بواسطة قاضيين منتخبين • فمن كان ينتخب هذين القاضيين ؟ لقد كان ينتخبهما المواطنون ممن كان لهم حق الانتخاب •

وتفصيل ذلك أن رومة عندما كانت صغيرة كدولة مدينة كان كل المواطنين يعيشون فيها ، أو على مقربة منها ، ولهذا لم يكن صعبا جدا عليهم أن يجتمعوا وينتخبوا • وما نسميه الآن بالحكومة النيابية أو الدستورية لم تكن قد ظهرت أو انتشرت وقتئذ ، وبالتالى لم تكن تمارس •

والآن تعرفين أن كل منطقة أو دائرة تنتخب ممثلها الى مجلس الأمة أو البرلمان ، أو المجلس التشريعى ، وهكذا بطريقة ما يمثل كل الشعب فى جمع صغير •

ويبدو أن هذا النوع من التمثيل الانتخابى لم يخطر ببال قدماء الرومان ، ولهذا استمروا على انتخابهم فى رومة ، على حين كان مستحيلا تقريبا على الناخبين من جهات نائية أن يحضروا اليها للانتخاب • وفى الحقيقة قلما عرف ناخبو الجهات النائية ما كان يحدث • وأنى لهم أن يعرفوا ، ولم يكن هناك صحف أو كتب مطبوعة ، ومن يعرفون القراءة منهم كانوا قلة قليلة جدا ؟ ومن ثم فحق الانتخاب الذى أعطى لمن يعيشون بعيدا عن رومة لم يكن ذا فائدة عملية لهم • لقد منحوا حق الانتخاب ، ولكن البعد حرمهم ممارسة هذا الحق •

من ذلك ترين أن الناخبين من سكان رومة فقط هم الذين كان لهم فى حقيقة الأمر نصيب فى الانتخابات ، وفى اتخاذ القرارات الهامة . وهؤلاء كانوا يدلون بأصواتهم فى العراء داخل أماكن مسورة . وكثيرون من هؤلاء الناخبين كانوا من طبقة العامة الفقيرة . وكان الأغنياء من الأشراف ممن تطمح نفوسهم الى السلطة والمناصب العالية يرشون أولئك الفقراء لينتخبوهم . ومن ثم فالانتخابات الرومانية كان يلجأ فى كسبها الى شيء من الرشوة والاحتيال ، كالذى يحدث اليوم أحيانا فى الانتخابات الحديثة .

وبينما كان نفوذ رومة آخذا فى النمو فى ايطاليا ، كان نفوذ قرطاجنة ينمو فى شمال أفريقية ، والقرطاجنيون هم من سلالة الفينيقيين ، وقد اشتهروا بالملاحة والتجارة . وكان نظام حكمهم جمهوريا أيضا ، ولكن سيادة الأغنياء فى جمهوريتهم كانت أشد وأقوى من سيادة الأغنياء فى جمهورية رومة . لقد كانت جمهورية مدينة يسكنها جموع هائلة من العبيد .

وكان بين قرطاجنة ورومة ، فى العصور الأولى ، مستعمرات اغريقية فى جنوب ايطاليا وفى مسينا . ولكن رومة وقرطاجنة اتحدتا على طرد الاغريق . ولما نجحتا فى ذلك أخذت قرطاجنة جزيرة صقلية، ووسعت رومة حدود رقعتها حتى وصلت الى طرف الحذاء الايطالى .

بيد أن الصداقة والتحالف لم يدوما طويلا بين قرطاجنة ورومة . فما أسرع ما نشبت الحروب بين الاثنتين ! وما أسرع ما تطورت حدة المنافسة المريرة بينهما !

لم يكن حوض البحر الأبيض المتوسط على اتساعه ليكفى دولتين قويتين طموحتين تواجه كلتاهما الأخرى عبر البحار الفسيحة . فرومة

كانت تنمو ولديها طموح الشاب واعتداده وثقته بنفسه . ومن المحتمل أن قرطاجنة نظرت قليلا باحتقار وازدراء الى رومة التى انقلبت فجأة من حالة الفقر والضعف الى حالة الغنى والقوة ، والتى بدأت تتطلع فى ثقة الى سيادتها على البحار وتحكمها فيها .

ظلت الحرب سجالا بينهما أكثر من مائة عام تخللتها فترات سلام ، وقاتلت احداهما الأخرى قتال الوحوش الكاسرة ، وجلبتا بسبب هذه الحروب الطاحنة على أبناء دولتيهما ما جلبتا من البؤس والشقاء !

والحروب التى نشبت بينهما هى ثلاث حروب يطلق عليها فى التاريخ « الحروب القرطاجنية » .

أما الحرب الأولى بينهما فاستمرت ثلاثا وعشرين سنة من ٢٦٤ـ٢٤١ قبل الميلاد ، وانتهت بانتصار رومة . وبعد اثنتين وعشرين سنة قامت الحرب القرطاجنية الثانية ، وأرسلت قرطاجنة على رأس جيشها ، قائدا مشهورا فى التاريخ اسمه هانيبال . لقد سبب هذا القائد لرومة المتاعب والصعاب وأرهب الرومانيين وملأ قلوبهم بالرعب والفزع طوال خمس عشرة سنة ، وهزم جيوشهم وذبح الكثيرين منهم ولا سيما فى « كانى » Cannae عام ٢١٦ قبل الميلاد .

وقد فعل هانيبال كل هذا بمساعدة قليلة من قرطاجنة التى كان مقطوعا عنها بسبب سيادة الرومانيين فى البحر الأبيض المتوسط وتحكمهم فيه . وعلى الرغم من الهزائم والكوارث ، وخطر هانيبال الدائم ، فان الرومانيين لم يستسلموا ، وظلوا يقاتلون ضد عدوهم البغيض .

ولخوفهم من ملاقاة هانيبال فى معركة سافرة ، تجنبوا الالتحام معه ، وقصروا نشاطهم ضده على قطع طرق مواصلاته ، واحداث

الصعاب له لمدة عشر سنوات • والقائد الرومانى الذى دأب بصفة خاصة على تفادى الالتحام فى معارك سافرة مع القائد القرطاجنى يسمى « فابيوس » Fabius

وأنا لم أذكر اسم هذا القائد الرومانى لأنه كان رجلا عظيما يستحق الذكر ، وانما ذكرته لأن اسمه تولدت عنه كلمة فى اللغة الانجليزية هى « فابى » Fabian التى أصبحت تدل على الحذر وعلى الاناة والروية والبطء فى اتعاب العدو وانهاكه • وعلى ذلك يقال مثلا : هناك من يستعملون الأساليب « الفابية » فلا يتعجلون حل المشاكل بالالتجاء الى القوة ، وانما يتفادون المعركة أو الأزمة ويأملون فى أن يحققوا غاياتهم بانهاك الخصم أو العدو فى بطء وعلى أساس أن الفوز فى النهاية لمن يحتمل مدة أطول من غيره •

وهناك فى انجلترا جمعية تسمى « الجمعية الفابية » وأعضاؤها يؤمنون بالاشتراكية ، ولكنهم لا يؤمنون بالعجلة والتغيرات الفجائية •

لقد أحال هانيبال جزءا كبيرا من ايطاليا الى صحراء ، ولكن النصر فى النهاية كان لروما بفضل اصرارها وعنادها • وفى عام ٢٠٢ قبل الميلاد هزم هانيبال فى معركة « زاما » ولم يجد أمامه الا أن يهرب متنقلا من مكان الى مكان يطارده حقد روما الذى لا ينطفىء سعاره • وأخيرا تعاطى السم ، وأنهى حياته بيده •

ثم ساد السلام بين روما وقرطاجنة لمدة نصف قرن ، ولكنه سلام أذل كبرياء قرطاجنة ، وقلما جرؤت خلاله على تحدى روما •

ولكن روما لم تكتف بكل ذلك وانما فرضت على القرطاجنيين الحرب القرطاجنية الثالثة التى انتهت بمذبحة كبيرة وبتدمير قرطاجنة تدميرا تاما •

لقد استعمل المحراث فى حرث الارض التى قامت عليها مرة مدينة قرطاجنة العزيزة الأبية « ملكة البحر الأبيض المتوسط ! »

٣٩ — سيادة الهنـــد على الأسواق الأجنبية

٥ مايو سنة ١٩٣٢

خلال هــذه الفترة من التاريخ القــديم الذى ندرسه نجد التجــارة الهندية استمرت لأكثر من ألف سنة مزدهرة فى غرب أوربا وغرب آسيا وفى الشرق الى الصين ٠

لــماذا كان الأمر كذلك ؟ لم يكن لمجرد أن الهنــود كانوا فى تلك الحقبة من الزمن تجارا وبحارة مهرة ، الأمر الذى كان حقيقــة واقعة ، ولم يكن لمجرد مهارتهم فى الصناعات والأعمال اليدوية ، وان كان حظهم من هذه المهارة كبيرا ٠

لاشك أن هذه الأشياء كانت عوامل مساعدة ، ولكن يبدو أن أحد الأسباب الرئيسية لسيادة الهند فى الأسواق البعيدة هو تقدمها فى الكيمياء ، ولا سيما فى الصباغة ٠

ويبدو أن هنود العصر الذى نتحدث عنه قد اكتشفوا طرقا خاصــة لتحضير أصباغ ثابتة للملابس ٠ كذلك عرفوا طريقة خاصة لصـــنع الصبغ الأزرق الداكن من نبــات الاندجو « النيلة » الذى ينمو فى بلادنا ٠ ولا شك أنك ستلحظين أن الكلمة الانجليزية « اندجــو » Indigo هى كلمة مستعارة من الهند ٠

ومن المحتمل أيضا أن الهنود القدماء عرفوا كيف يعـالجون الفولاذ ويصنعون منه أسلحة دقيقة. ولعلك تذكرين أنى أخبرتك أن الفردوسى فى كتابه « الشاهنامة » وهو يقص حروب الاسكندر الأكبر مع دارا الثالث يشير الى كل خنجر أو سيف حسن بأنه هندى .

ولقدرة الهند على صنع هذه الأصباغ وغيرها من السلع أحسن من الأقطار الاخرى كان من الطبيعى آن تسود تجارتها فى الاسواق .

والانسان أو القطر الذى لديه آلة أحسن أو طريقة أفضـل وأرخص لصنع أى سلعة يستطيع أن يطرد الانسان أو القطر الذى تكون سلعته أو طريقته أقل جودة .

وهذا هو السبب فى أن أوربا سبقت آسيا خلال القرنين الماضيين. فالاكتشافات والاختراعات الحديثة أهدت الى أوربا آلات قوية جـديدة وطرقا جديدة للصناعة . وبمساعدة هذه الأشياء استولت على أسواق العالم وأصبحت غنية قوية . وهناك أسباب أخرى أعانتهـا على هـذا التقدم ، ولكنى أود منك حاليا أن تدركى مدى أهمية الآلة .

وقد قال مفكر كبير مرة : « ان الانسان حيوان صانع للآلة » . والواقع أن تاريخ الانسان منذ نشأته حتى اليوم هو تاريخ آلات أرقى فأرقى : من السهام الحجرية ومطارق العصر الحجرى الى السكك الحديدية والقاطرات البخارية والآلات الميكانيكية وغيرها من مختـرعات العصر الحاضر . وفى الواقع يكاد كل شىء نفعله يتطلب آلة خاصة . فأين كان يمكن أن نكون بدون الآلات ؟

فالآلة شىء نافع ، لانها تخفف من عبء العمل وتعين على انجازه فى أقصر وقت وبأقل جهد ممكن . ولكن هذه الآلة النافعة قـد يسـاء

استعمالها . فالمنشار مثلا آلة نافعة ، فاذا استعمله طفل فانه قد يؤذى نفسه . والمدية من أكثر الآلات نفعا ، وكل كشاف يحمل واحدة . ومع ذلك فقد يقتل شخص أحمق شخصا آخر بهذه المدية . فالخطأ اذن ليس خطأ المدية المسكينة ، وانما يكمن الخطأ فى الشخص الذى يسىء استعمالها .

وبالمثل ان الآلات الميكانيكية الحديثة على شدة فائدتها ونفعها لا يزال يساء استعمالها بطرق شتى .. فبدل أن تخفف من عبء العمل ووطأته على الجماهير الكادحة العاملة ، نرى أنها كثيرا ما ردت أحوال هؤلاء الى أسوأ مما كانت عليه من قبل ! وبدل أن تجلب السعادة والراحة والرفاهية لملايين البشر كما يتوقع منها ، فانها قد جلبت البؤس والشقاء للكثيرين ، ووضعت فى أيدى الحكومات قوة هائلة يستطيعون بها أن يقتلوا الملايين فى حروبهم .

ولكن الخطأ ــ كما أشرت سابقا ــ ليس فى الآلة وانما هو فى اساءة استعمالها . ولا شك أن الفرق كان يكون عظيما جدا لو لم يتحكم فى الآلات الكبرى غير المسئولين ممن يريدون الاثراء لأنفسهم عن طريقها ، وكان التحكم فيها على أساس توجيهها الى ما فيه خير الناس عامة .

وهكذا كانت الهند فى تلك الأيام ــ على عكس ماهى اليوم ــ فى طليعة العالم من حيث وسائلها وطرق صناعتها . لقد كانت الأقمشة الهندية ، والأصباغ الهندية وغيرهما من السلع الاخرى معروفة منتشرة فى أقطار بعيدة ، وكان هناك اقبال شديد على طلبها والحصول عليها . وقد عادت هذه التجارة على الهند بثروة طائلة .

وبجانب هذه التجارة كانت الهند الجنوبية تصدر الفلفل وغيره من

التوابل ، كما كانت التوابل ترد من جزائر الهند الشرقية ، مارة بالهند في طريقها الى الغرب ٠

وكان الفلفل ذا قيمة عظيمة في رومة والغرب ، ويقال ان « ألاريك » Alaric القائد القوطي أو التيوتوني عند ما استولى على روما سنة ٤١٠ بعد الميلاد أخذ منها أربعة آلاف رطل من الفلفل ٠ ولا بد أن كل هذا الفلفل قد وصل الى رومة من الهند أو عن طريقها ٠

٤٠ — تقلبات الدول والحضارات

٦ مايو سنة ١٩٣٢

دعينا نعود الآن للحديث عن الصين ، بعد أن سكتنا عنها طويلا ، لنرى ماذا كانت عليه عند سقوط رومة فى الغرب ، وابان النهضة القومية التى ظهرت بالهند فى عهد أسرة جوبتا (١) Guptas .

والواقع أن قيام رومة أو سقوطها لم يترك أى أثر يذكر فى الصين ، وذلك لبعد مابين الدولتين . ولكنى أخبرتك من قبل أنه كان لرد الدولة الصينية لقبائل آسيا الوسطى عند حدودها أحيانا نتائج خطيرة على الهند وأوربا .

---

(١) نسبة الى تشاندرا جوبتا Chandragupta مؤسس الامبراطورية الموريانية والذى حكم من ٣٢١–٢٩٦ قبل الميلاد . وقد اشتملت هذه الامبراطورية على كل شمال الهند وجزء من الأفغانستان : من كابول الى البنغال ومن بحر العرب الى خليج البنغال ، باستثناء جنوب الهند . وكانت عاصمتها مدينة باتاليبوترا Pataliputra . وفى عهد هذه الامبراطورية انبعثت فى الهند نهضة قومية شملت معظم مرافق الحياة . ويحدثنا نهرو فى رسالة أخرى أنه كان على كل ملك من ملوك هذه الامبراطورية أن يقسم عند تلقيه سلطته الملكية من أيدى الشعب فى يوم التتويج قائلا : « ألا فليحرمنى الله من مملكة السماء ومن الحياة والذرية اذا أنا ظلمتكم » .

فهذه القبائل وغيرهم ممن حالت الدولة الصينية بينهم وبين الصين لم يكن أمامهم الا أن يتجهوا غربا وجنوبا ، وأن ينقضوا على ممالك ودول ويعيثوا فيها فسادا ، ناشرين فى حيثما حلوا الدمار والخراب والفوضى . وقد استقر فى نهاية الأمر كثير من هذه القبائل فى الهند وأوربا الشرقية .

وعلى الرغم من كل شىء ، فقد كانت هناك بطبيعة الحال اتصالات بين رومة والصين تبودلت فيها السفارات . وأولى هذه السفارات كما ترويها كتب التاريخ الصينية هى السفارة التى بعث بهـا امبراطور رومة أنطون عام ١٦٦ بعد الميلاد . وأنطون هـذا ليس الا مارك أنطونيوس الذى أشرت اليه فى احدى رسائلى اليك .

لقد كان سقوط رومة حدثا تاريخيا بعيـد الأثر ، ولم يكن مجـرد سقوط مدينة أو سقوط امبراطورية . ولم تنته الامبراطورية الرومانية بسقوط رومة ، وانما استمرت طويلا بعد ذلك فى القسطنطينية على نحو ما ، وخيم شبحها فوق أوربا كلها نحو ١٤٠٠ سنة .

فسقوط رومة كان فى الواقع نهاية طور كبير من أطوار التـاريخ ، وعلى التحديد كان نهاية العالم القديم فيها وفى اليونان . فعلى أطلال رومة كان يقوم وينمو فى الغرب عالم جديد وثقافة وحضارة جديدتان .

ان الألفاظ والعبارات أو اللغة بمعنى آخر تضللنا ، ذلك لأننا نجد نفس الألفاظ مستعملة فيغلب علينا الظن أنهـا تعنى ذات الشىء . فأوروبا الغربية ظلت بعد سقوط رومة تتكلم اللغة اللاتينية ، ولكن كان وراء تلك اللغة أفكار مختلفة ومعان مختلفة .

وفى عصرنا الحاضر يقول الناس ان الأقطار الأوربيـة هى أطفـال

رومة واليونان · وهذا صحيح الى حـد ما · ولـكنه فى الواقع قول مضلل · ذلك لأن الأقطار الاوربية تمثل شيئا يختلف كل الاختـلاف عما مثلته رومة واليونان ·

فعالم رومة واليونان القديم قد انهار انهيارا تاما تقريبا ، والحضارة التى بنيت فى ألف سنة أو أكثر شاخت واعتراها الضعف والانحلال · وقد حدث آنئذ أن ظهرت على صفحة التاريخ دول أوربا الغربية التى كانت نصف متحضرة ونصف متبربرة ، وبنت فى بطء ثقافة وحضارة جديدتين ، وتعلمت الكثير من رومة ، واستعارت الكثير أيضا من العالم القديم ·

ولكن عملية التعلم كانت صعبة شاقة · ويبدو أن الثقافة والحضارة فى أوربا قد ران عليهما النعاس عدة قرون · لقد كان هناك ظلام الجهل والتعصب الأعمى البغيض، ولهذا سميت هذه القرون بالعصور المظلمة ·

فلماذا كان هذا كذلك ؟ ولـماذا يقضى على الدنيا بأن ترتد وتتقهقر ؟ ولـماذا تمنى المعرفة التى تجمعت خلال مئات السنين بالزوال والنسيان؟ ان هذه أسئلة عويصة يدق فهمها على أحكم الحـكماء منـا ، ولهذا فلن أحاول الاجابة عليها ·

ثم أليس غريبا أن الهند التى تبوأت مكانة عالية فى الفكر وضروب النشاط الانسانى تنحط انحطاطا تعيسا مزريا ، وتبقى لعصور طويلة دولة مستعبدة ؟

والصـين ·· ؟ أليس غريبا أيضا أنها ، على ما لهـا من ماض ملىء بالفخار ، تقع فريسة حروب لا نهاية لها ؟

ولربما لا يكون الاختفاء والزوال مآل ما جمعه الانسان شيئا فشيئا من المعرفة والحكمة على توالى الأجيال والعصور . ولكن ما يحدث هو أن أعيننا تنقفل فى بعض الأوقات فلانستطيع أن نرى. فحينما نقفل النافذة يخيم الظلام على المكان بينما النور خارجه وحوله . فاذا أقفلنا أعيننا أو نوافذنا فان هذا لا يعنى أن النور قد اختفى .

ومن الناس من يقول ان عصور الظلام ترجع الى المسيحية ـ لا الى مسيحية عيسى ، ولكن الى المسيحية الرسمية التى انتشرت فى الغرب بعد أن اعتنقها قسطنطين الامبراطور الرومانى . ويقول هؤلاء الناس ان اعتناق قسطنطين للمسيحية فى القرن الرابع الميلادى افتتح عصرا دام ألف سنة كان فيه العقل مكبلا مقيدا ، والفكر مستعبدا مضطهدا ، والمعرفة راكدة جامدة . ولم ينتج هذا العصر اضطهادا وتعصبا وعدم تسامح دينى فقط ، وانما جعل من الصعب على الناس أن يتقدموا فى العلوم وفى معظم مناحى الحياة الأخرى .

وكثيرا ما صارت الكتب المقدسة عقبات فى طريق التقدم ، فهى تخبرنا ماذا كانت عليه الدنيا فى الوقت الذى كتبت فيه ، كما تخبرنا بأفكار تلك الفترة وعاداتها ، ثم لا يستطيع أحد أن يتحدى تلك الأفكار وتلك العقائد بسبب ورودها فى كتاب مقدس ، ولهذا فقد تتغير الدنيا تغيرا خطيرا هائلا ثم لا يكون مسموحا أو جائزا لنا أن نغير أفكارنا وعاداتنا كى نساير الأحوال المتغيرة . ونتيجة لذلك نصبح غير صالحين لمسايرة عصرنا ، وفى ذلك بطبيعة الحال ما فيه من المتاعب .

من أجل ذلك يتهم البعض المسيحية بأنها جلبت على أوربا هذه الفترة من الظلام ، على حين ينبئنا البعض الآخر بأن الفضل فى بقاء مصباح المعرفة والعلم مشتعلا خلال عصور الظلام انما يرجع الى المسيحية ورهبانها وقساوستها ، فهؤلاء رعوا الفن والتصوير وحافظوا محافظة تامة على الكتب القيمة ونسخوها .

على هذا النحو يتجادل الناس فى هـذا الأمر • وربما كان كلا الطرفين على حق • ولكن ما يدعو الى السخرية والضحك هو أن يقال ان المسيحية مسئولة عن كل المفاسد والشرور التى تلت سـقوط رومة ، فالحق أن رومة سقطت بسبب هذه المفاسد والشرور •

لقد جلت بخاطرى بعيدا ، وما أردت أن أبينه لك هو أنه بينما كان فى أوربا انهيار اجتماعى مفاجىء وتغير مفاجىء لم يكن فى الصين حتى ولا فى الهند تغير مفاجىء كهذا •

ففى أوربا نشهد نهاية حضارة وبداية حضارة أخرى أخذت تنمو وتتطور فى بطء حتى وصلت الى ما هى عليه اليوم • وفى الصـين نشهد نفس الدرجة العالية من الثقافة والحضارة تستمر فى طريقهـا بدون توقف أو انقطاع •

لقد كان فى الصين تقلبات ، كان فيها عهود حسنة مشرقة ، وكان فيها ملوك وأباطرة أتوا ثم مضوا ، وكان فيهـا دول أزال بعضـها بعضا • ولكن على الرغم من كل ذلك فان التراث الثقافى ظل متصلا غير منقطع •

ففى كل العهود، حتى فى العهود التى انقسمت الصين فيها الى عدة دول ونشبت فيهـا الحروب ، كان الفن والأدب فيهـا مزدهرين ، فأنتجت الصين الصور الفنية الرفيعة ، وأصص الأزهار الجميلة ، والمبانى الأنيقة • وفيها نشأت الطباعة ، وأصبح شرب الشاى عادة مستحبة يحتفى بها الشعر • وعلى الاجمال ان فى الصين روحا فنية مستمرة لا يمكن أن تنبعث الا من حضارة راقية سامية •

وكذلك الحال فى الهند ، فليس فى حضارتها فترات انقطاع مفاجئة

كما حدث فى حضارة روما. لقد مرت بالهند عهود حسنة وأخرى سيئة: عهود من الانتاج الأدبى والفنى الرفيع ، وعهود من الخراب والانحطاط . ولكن الحضارة تستمر فى الهند ، وان لم تكن أحيانا على ما يرام ، ثم تنتشر فى أقطار الشرق الأخرى ، وهى فى انتشارها تمتص ما تمتص من الحضارات التى تقابلها وتعلم حتى البرابرة الذين أتوا للنهب والسلب .

لا تظنى أنى بهذا القول أحاول الاشادة بالهند أو الصين على حساب الغرب ، فليس فى أحوال الهند أو الصين اليوم ما يصح الاشادة أو التشدق به ، ويستطيع حتى الأعمى أن يرى أنه رغم كل عظمتهما الماضية فقد سقطتا وهوتا الى الدرك الأسفل فى ميزان الشعوب .

فاذا لم يكن هناك انقطاع أو توقف مفاجىء فى ثقافتهما فى الماضى فان هذا لا يعنى أنه لم يحدث فيهما تغير الى الأسوأ . واذا كنا بالأمس فى طليعة الشعوب المتقدمة ثم صرنا اليوم فى مؤخرة الشعوب فان هذا التحول من شأنه أن ينزل بنا فى أعين العالم .

وقد نشعر بالارتياح والرضا لاتصال حضارتنا واستمرارها ، ولكن ما أقل جدوى هذا الارتياح والرضا عند ما نرى أن هذه الحضارة قد أدركها الوهن واعترتها الشيخوخة !

ولربما كان من الخير لنا لو طرأ علينا ما يفصلنا انفصالا مفاجئا عن ماضينا ، فحدوث شىء من هذا القبيل كان كفيلا بأن يهزنا هزا قويا ويبعث فينا حياة وحيوية جديدتين . ومن يدرى فلعل الحوادث التى تجرى اليوم فى الهند وفى العالم تكسب بلادنا القديمة العريقة قوة دافعة ، وتملؤها ثانية بالشباب والحياة الجديدة .

ويبدو أن سر قوة الهند ومثابرتها فى الماضى يكمن فى نظام جمهوريات القرى أو الحكم الذاتى الذى نسميه بلغتنا « بانشايات » Panchâyats فلم يكن هناك فى الماضى اقطاعيون أو ملاك أراض كبار كالموجودين حاليا فى الهند ، فالأرض كانت ملكا لأهل القرية أو « للبانشايات » أو لمن يزرعونها • وكان لهذه « البانشايات » نصيب كبير من القوة والسلطة ، وكانوا ينتخبون بواسطة أهل القرية • ومن ثم كان هناك أساس من الديمقراطية فى هذا النظام•

وقد تعاقب الملوك فى الهند ملكا اثر ملك أو حارب بعضهم بعضا، ولكنهم مع ذلك لم يمسوا نظام القرية أو يتدخلوا فيه أو يجرءوا على الانتقاص من حريات جمهوريات القرى أو « البانشايات » • وعلى هذا نرى أنه بينما تغيرت الامبراطوريات استمر البناء الاجتماعى الذى قام على أساس نظام القرية بدون تغيير ملحوظ •

وقصص الحروب والاغارات وتغير الملوك والحكام قد تضللنا فنظن أن سكان الهند قد تأثروا بها • وطبيعى أن يتأثر السكان أحيانا بمثل هذه الأحداث وبخاصة فى شمال الهند ، ولكن على الاجمال يمكن القول بأن الناس ازاء هذه الأخطار أصابهم شىء قليل من الخوف والقلق ثم استمروا يمارسون حياتهم المألوفة على الرغم من تغيرات الملوك والحكام •

وهناك عامل آخر أدى الى قوة النظام الاجتماعى فى الهند لمدة طويلة ، ذلك هو النظام الطائفى أو العنصرى كما وجد فى الأصل، فالطائفية أو العنصرية لم تكن فى أول الأمر حادة عنيفة الى الدرجة التى آلت اليها فيما بعد ، كما لم تعتمد على المولد وحده • لقد أبقت على الحياة الهندية متماسكة مترابطة آلاف السنين ، وقد استطاعت الطائفية أو العنصرية أن تحقق هذا التماسك والترابط لا بمنع التغير والنمو ولكن بالسماح لهذين بالوجود والاستمرار •

فالنظرة الهندية القديمة الى الدين والحياة كانت دائما نظرة تسامح وتجربة وتغير . وقد أضفى ذلك على نظرة الهند قوة ، ولكن الحروب والغزوات وغير ذلك من الفتن والقلاقل جعلت الطائفية أو العنصرية تأخذ فى الحدة والعنف شيئا فشيئا ، وتبعا لذلك صارت غالبية النظرة الهندية أكثر حدة وعنفا ، وأقل خضوعا واذعانا .

وقد استمرت هذه العملية تفعل فعلها حتى تخلف الهنود وارتدوا الى ما هم عليه اليوم من حال تعيسة مزرية ، وحتى صار التعصب الطائفى أو العنصرى عدو كل نوع من التقدم . وبدلا من أن يعمل على تماسك البناء الاجتماعى فانه يقسمه مئات الأقسام ويصيرنا ضعفاء ويجعل الهندى يقف وجها لوجه ضد أخيه الهندى .

وهكذا ساعدت الطائفية أو العنصرية فى الماضى على تقوية نظام الهند الاجتماعى . ولكن على الرغم من ذلك فان هذا النظام الاجتماعى كان يحمل فى طياته بذور الانحلال والفساد ، ذلك لأنه كان مؤسسا على الظلم المستمر وعلى عدم المساواة الدائمة أيضا ، وأى محاولة كهذه كان مصيرها الفشل فى النهاية .

فالمجتمع الثابت السليم لا يمكن أن يقوم على أساس من الظلم وعدم المساواة ومن استغلال طائفة أو طبقة لطائفة أو طبقة أخرى ، ولا سبب لما نراه اليوم فى جميع أرجاء العالم من الاضطراب والصراع سوى الاستغلال الجائر المستمر ، ولكن الناس فى كل مكان قد بدءوا يدركون هذا ويعملون على التخلص من كل ضروب الاستغلال .

ونظام الصين الاجتماعى يشبه نظام الهند الاجتماعى من حيث أن قوته تكمن فى القرى وفى مئات الآلاف من الزراع الذين يملكون الأرض ويزرعونها ، ومن حيث أنه لا يوجد فى الصين أيضا ملاك أراض كبار .

وفى الصين لم يسمح للدين أبدا بأن يتحكم ويستبد أو أن يصير متعصبا ، وربما كان الصينيون ولا يزالون أقل الشعوب تعصبا فى الدين ٠

وسوف تتذكرين مرة ثانية بأنه لم يكن فى الهند أو الصين عبودية بين العمال كما كانت الحال فى اليونان وروما وفى العصور الأولى لمصر القديمة ٠ لقد كان هناك بعض من يقومون بالأعمال المنزلية وهؤلاء كانوا عبيدا ، ولكنهم لم يؤثروا أى تأثير فى النظام الاجتماعى الذى كان يمكن أن يمضى فى طريقه بدونهم ٠

ولم يكن الحال كذلك في اليونان القديمة وروما حيث كان العبيد بعددهم العديد يكونون جزءا هاما من النظام ، وحيث كان العبء الحقيقى لكل عمل يقع على عاتقهم ، وكيف وأين كان يمكن أن تبنى الأهرام الكبرى فى مصر لو لم يقم ببنائها هذا النوع من العمال العبيد (١) ؟

---

(١) يبدو أن الكاتب هنا متأثر بأقوال بعض الأوربيين عن بناة الأهرام ٠ فالثابت تاريخيا أن الأهرام كانت تبنى عادة فى أيام الفيضان حيث الأرض تكاد تكون مغطاة بالمياه وحيث يكاد يكون العمال فى شبه عطلة ٠ فاستخدام العمال فى بناء الأهرام لم يكن نوعا من العبودية وانما كان فتحا لأبواب العمل والرزق لهم فى موسم الفيضان حيث يقل العمل على الأرض ٠ كما ثبت أن الدولة كانت تهيىء لهم المسكن والمأكل٠ ومن ناحية أخرى كان الفراعنة الملوك ينظر اليهم فى حياتهم من رعيتهم على أنهم أنصاف آلهة٠ولهذا كان الاشتراك أو المساهمة فى بناء مقابرهم من عامة الشعب نوعا من العبادة لا العبودية ٠ « **المترجم** »

لقد بدأت هذه الرسالة بالحديث عن الصين وكان فى نيتى أن أستمر فى سرد قصتها عليك ، ولكن تيار الفكر جرفنى الى موضوعات أخرى ، وليس هذا بالشىء المستغرب منى !

ولعلنا فى الرسالة القادمة نلتزم قصة الصين ولا نحيد عنها .

٤٩ — الفتح العربى من إسبانيا إلى منغوليا

٢٣ مايو سنة ١٩٣٢

كان محمد ، مثل مؤسسى بعض الأديان الأخرى ، ثائرا ضد كثير من العادات الاجتماعية الموجودة . وقد اسبتهوت بساطة الدين الاسلامى الذىدعا اليه ومباشرته وديمقراطيته ومساواتهعامة الناسفى الأقطار المجاورة ممن حطمهم وطحنهم الملوك المستبدون والقساوسة المتغطرسون المستبدون أيضا .

فالناس فى عصر محمد كان قد أنهكهم النظام القديم وضاقوا ذرعا به حتى باتوا مستعدين لتقبل أى تغيير . وقد أهدى الاسلام اليهم هذا التغيير الذى تلقوه مرحبين به ، ذلك لأنه ارتقى بهم من نواح عدة ، ووضع نهاية لكثير من المفاسد والشرور القديمة .

والاسلام لم يحضر معه ثورة اجتماعية (١) كبرى يكون من شأنها

---

(١) لعل هذا الرأى وليد نظرة جانبية الى مفهوم الثورة باعتبارها تحريرا من ربقة الاقتصاديات المختلفة الظالمة وحسب . بيد أن عمل الثورة لا يقف عند هذا الحد .. فالثورة فى حقيقتها انهاء لزمن بكل ، أو بمعظم ، معالمه من عقائد وتقاليد وأوضاع . ولقد أحدث الاسلام تحويلا هاما صاعدا فى عقائد وتقاليد وأوضاع مجتمعه ، ثم هو لم يحمل لواء التحرير بالنسبة للمسلمين وحدهم ، بل للبشر كافة. وفى أمر التكليف الصادر للرسول ليحمل تبعاته لم يبعثه الله رسولا للمسلمين فحسب ، بل رحمة للعالمين. **«المترجم»**

أن تقضى على درجة كبيرة من استغلال الناس • ولكنه قد خفف من هذا الاستغلال بالنسبة للمسلمين ، وجعلهم يشعرون بأنهم ينتمون الى أخوة واحدة عظمى • وهكذا زحف العرب من فتح الى فتح ، وكثيرا ما انتصروا بلا قتال •

وفى خلال ربع قرن من وفاة نبيهم ، فتح العرب كل بلاد الفرس والشام وأرمينية ، وبعض آسيا الوسطى ، ومصر وجزءا من شمال أفريقية غربا •

وقد استولى العرب على مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست أكثر من غيرها من استغلال الامبراطورية الرومانية ومن صراع المنافسة بين المذاهب المسيحية •

وهناك قصة تروى عن حرق العرب لمكتبة الاسكندرية الشهيرة ، ولكن الاعتقاد الآن أن هذه القصة كاذبة لا أساس لها من الصحة • ولما كان حب الكتب والولع بها مما يؤثر عن العرب فلا يمكن أن يعقل أنهم تصرفوا فى مكتبة الاسكندرية بهذا الأسلوب البربرى • ومن المحتمل ، على أية حال ، أن امبراطور القسطنطينية « ثيودوسيوس » الذى حدثتك قليلا عنه من قبل هو الذى ارتكب جريمة حرق مكتبة الاسكندرية أو حرق جزء منها ، نقول ذلك لأن جزءا من المكتبة كان قد أتلف من قبل أثناء حصار الاسكندرية فى عهد يوليوس قيصر • « فثيودوسيوس » لم يستصوب كتب الاغريق القدماء الجاهليين التى تتحدث عن الأساطير والفلسفات الاغريقية القديمة • ولهذا يقال انه استعمل هذه الكتب وقودا لتسخين حماماته •

وقد استمر العرب فى تقدمهم شرقا وغربا • ففى الشرق سقطت هرات وكابول وبلخ فى أيديهم •

وقد وصلوا فى هذا الاتجاه الى بلاد السند (١) ولكنهم لم يتقدموا فى الهند وراء ذلك ، وظلت صلاتهم لبضع مئات من السنين بالحكام الهنود على خير ما تكون الصلات مودة وصداقة ٠

وفى الغرب ظلوا يتقدمون ويتقدمون ، ويقال أن قائدهم عقبة (٢) أتى الى شمال افريقية ، وتقدم فى هذا الاتجاه حتى وصل الى المحيط الأطلسى على الشاطىء الغربى لما يعرف الآن بمراكش ٠ ويقال أيضا انه شعر بخيبة أمل حينما وجد المحيط الأطلسى يقف حجر عثرة فى طريق تقدمه ، وأنه ركب البحر وأوغل فيه على قدر ما استطاع ثم شكا بثه وحزنه الى الله لعدم وجود أرض أخرى فى هذا الاتجاه فيفتحها باسم الله وفى سبيله !

ومن مراكش وافريقية عبر العرب الى اسبانيا وأوربا ، المضيق الذى كان يسميه الاغريق القدماء « أعمدة هرقل » ٠

واسم القائد الذى عبر الى أوربا هو « طارق » ، ولهذا أطلق على الجبل الذى نزل عنده باسبانيا « جبل طارق » ذكرى لهذا القائد العربى ٠

وقد تم فتح اسبانيا بسرعة عجيبة ، ومنها تدفق العرب الى جنوب فرنسا ٠

---

(١) الذى افتتح بلاد السند هو المهلب بن أبى صفرة فى حكم معاوية ابن أبى سفيان ٠

(٢) هو عقبة بن نافع ٥٠ هـ (٦٧٠ م)٠ وقد أرسله معاوية عندما شكا أهل شمال افريقية له من كثرة الضرائب التى فرضتها الحكومة الرومانية عليهم٠ وقد انتصر عقبة على الرومان وأسس مدينة القيروان جنوبى تونس٠ ولكن البربر كادوا له وقتلوه هو وأكثر جيشه سنة ٦٨١ م ٠ « **المترجم** »

وهكذا لم يمض علي وفاة النبي محمد مائة سنة ، حتى كانت الامبراطورية العربية قد امتدت من جنوب فرنسا واسبانيا فشمال افريقية الى مصر ، وعبر بلاد العرب الى الفرس وآسيا الوسطى حتى حدود منغوليا. ولم يدخل من الهند فيهذه الامبراطورية غير السند.

وقد غزا العرب أوروبا من جهتين : غزوها في القسطنطينية مباشرة ، وفي فرنسا عن طريق افريقية . وفي جنوب فرنسا كان العرب قليلي العدد ، وكانوا بعيدين عن موطنهم الأصلي . ولهذا لم يستطيعوا الحصول على مساعدة تذكر من الجزيرة العربية لانشغالها وقتئذ بفتح آسيا الوسطى . ومع ذلك فقد استطاعت هذه القلة من العرب في فرنسا أن تخيف أهل أوربا الغربية ، ولهذا كونوا حلفا كبيرا لمحاربتهم .

وكان شارل مارتل هو قائد هذا الحلف . وقد استطاع في سنة ٧٣٢ ميلادية أن ينتصر على العرب في موقعة « تور » في فرنسا .

ويشير أحد المؤرخين الى نتائج هذه المعركة فيقول : « لقد خسر العرب في سهول تور امبراطورية العالم ، وقد كادت تكون في قبضة أيديهم » .

ومما لاريب فيه أن العرب لو أتيح لهم أن ينتصروا في تور لكان التاريخ الأوربي قد تغير تغيرا كبيرا ، ولما كانت هناك قوة أخرى في أوربا تقف تقدمهم ، ولكان في استطاعتهم أن يواصلوا زحفهم حتى القسطنطينية ، وأن يضعوا نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية وللدول الأخرى التي تأتي في طريقهم . وليس ذلك فحسب ، بل كان الاسلام قد حل محل المسيحية ، وأصبح دين أوربا ، وكانت قد حدثت أنواع أخرى من التغيرات .

ليس هذا الا شطحة من شطحات الخيال ، ولهذا أعود فأقول : لقد أوقف زحف العرب فى فرنسا ، ولكنهم بعد ذلك بقوا فى اسبانيا وحكموها بضع مئات من السنين ·

وقد انتصر العرب من اسبانيا الى منغوليا ، وأصبح هؤلاء البدو الذين أتوا من الصحراء حكام امبراطورية عظيمة · لقد كانوا يسمون سكان الصحارى ، ولكن سرعان ما ألف سكان الصحارى هؤلاء حياة الترف والمدن ، وسرعان ما انتشرت القصور فى مدنهم ·

وعلى الرغم من انتصاراتهم فى أقطار بعيدة ، فانهم لم يستطيعوا التخلص فيما بينهم من عادة التشاحن والقتال القديمة عندهم · وبطبيعة الحال كان لديهم شىء يستحق التناحر عليه والقتال من أجله وهو رئاسة الجزيرة العربية التى كانت تعنى التحكم فى امبراطورية شاسعة الأطراف · ومن ثم كان هناك صراع وحروب للاستيلاء على منصب الخلافة ·

وهذا الصراع وهذه الحروب التى قامت بين الأسر والقبائل أدت الى انقسام المسلمين الى طائفتين كبيرتين : طائفة السنيين ، وطائفة الشيعيين واللتين لا تزالان موجودتين حتى اليوم ·

وسرعان ما نشأ الخلاف بعد انتهاء عهد الخليفتين أبى بكر وعمر · فعلى بن أبى طالب زوج فاطمة ينت محمد آلت اليه الخلافة لعهد قصير · ولكن الصراع ظل مستمرا ، فقتل على ، ومن بعده بقليل قتل ابنه الحسين وأسرته فى كربلاء ·

ومأساة كربلاء هذه هى التى يبكيها المسلمون ، ولا سيما الشيعيين منهم فى شهر المحرم من كل عام · ثم نرى الخليفة بعد ذلك يصبح

ملكا مطلقا بدون انتخاب أو طريقة ديمقراطية . والذى كان يحدث هو أنه كان يتبوأ الملك كما يتبوؤه أى ملك فى عصره . ونظريا استمر ينظر اليه أيضا على أنه الرئيس الدينى وأمير المؤمنين . ولكن بعض هؤلاء الحكام كانوا فى الحقيقة سبة للاسلام الذى كان مفروضا فيهم أن يكونوا حماته الأعلين .

ولقد صارت خلافة المسلمين لمدة قرن تقريبا للأمويين . وهؤلاء اتخذوا من دمشق عاصمة لهم ، وبذلك أصبحت هذه المدينة القديمة جميلة جدا تزينها القصور والمساجد ونافورات المياه والجواسق الخشبية داخل الحدائق ، كما اشتهرت بنظام تزويد منازلها بالماء .

وخلال هذه الفترة استحدث العرب ورقوا طرازا خاصا من العمارة عرف فيما بعد بفن العمارة العربية . وهذا الفن الذى استحدثه العرب فى هندسة البناء ليس نوعا من الحلية أو الزينة ، وانما هو فن بسيط جميل لايملك المشاهد له الا أن يعجب به . والفكرة من وراء فن البناء العربى هى النخلة الجميلة التى تنمو فى الشام وجزيرة العرب . فالأقواس والأعمدة والمآذن والقباب ، تذكر الانسان بتقوس وتقبب جماعات النخيل ، وقد أتى فن البناء العربى الى الهند ، ولكنه تأثر فيها بالأفكار الهندية ، ونشأ عن ذلك طراز جديد مختلط . ولا يزال يوجد حتى اليوم فى اسبانيا آثار لأجمل وأبدع نماذج فن البناء العربى .

ونتيجة للامبراطورية وثرائها شاع فى المجتمع العربى فنون من الترف والرفاهية والمتعة . فسباق الخيل كان احدى الرياضات المحببة لدى العرب . وكذلك الصيد ولعبة الكرة على الخيل polo والشطرنج . وقد نما لديهم ولع بالموسيقى على طراز حديث ، وبخاصة الغناء . ولهذا كانت عاصمة الخلافة تموج بالمغنين وتوابعهم والمتطفلين عليهم .

وقد حدث فى محيط المجتمع العربى تغير آخر كبير ، ولكنه لم يكن تغيرا الى الأحسن ٠ وكان هذا التغير خاصا بالمرأة ٠

فالمرأة العربية لم تكن تعرف الحجاب فى أية صورة من صوره، فلم تعش فى عزلة أو مخبأة عن أعين الغير ٠ لقد كانت تسير بين الناس وتذهب الى المساجد وتتردد على مجالس العلم ٠ ومن نســاء العرب من كن يجلسن أحيانا مجالس العلماء ويلقين دروسا فى العلم ٠

ولكن نجــاح العرب جعلهم يقــلدون بعض عادات الامبراطوريتين القديمتين المجاورتين لهم ، وأعنى بذلك الامبــراطورية الرومانيـــه الشرقية ، والامبراطورية الفارسية ٠ فالعرب قد هزموا الامبراطورية الأولى ، وقضوا على الامبراطورية الثانية ، ولكنهم أنفسهم استسلموا وخضعوا لبعض ما كان يشيع فى هاتين الامبراطوريتين من العادات القبيحة ٠ ويقال ان عزلة المرأة العربية واختفاءها من مجتمعها يرجع بوجه خاص الى تأثير القسطنطينية والفرس فى المحيط العربى ٠

ونتيجة لذلك بدأ نظام « الحريم » يظهر شــيئا فشــيئا ، كما بدأ اجتماع الرجل بالمرأة ، والتقاء أحدهما بالآخر فى المجتمعات العامة يقل شيئا فشيئا ٠

ومما يؤسف له أن عزلة(١) المرأة العربية هذه أصبحت مظهرا من مظاهر المجتمع الاسلامى ٠ وقد تعلمت المرأة الهنــدية هــذه العزلة أيضا من المسلمين عندما أتوا الى الهند ٠

---

(١) ربما كان ذلك فى القديم ٠ أما اليوم فقد بدأت المرأة العربية تخرج من عزلتها وتساهم فى جميع مناحى الحياة العامة، كما اعترفت لها بعض الدساتير العربية بحقوقها السياسية ٠ **«المترجم»**

وانى لأعجب غاية العجب أن أرى أنه لايزال هناك من يقاسون ويعانون من هذه البربرية فى صمت ، دون أن يتـألموا أو يضـجوا بالغضب والشكوى ٠

وكلما فكرت فى النساء المحجبات ، وقد قضى عليهن بالعزلة عن العالم الخارجى ، خيل الى أنى أفكر فى سـجن أو حديقـة حيوان ! وكيف يقدر لشعب أن ينطلق متقدما الى الأمام اذا كان نصفه يعيش فى عزلة أشبه بالسجن ؟

ولكن مما يدعو الى الأمل والتفاؤل أن الهند قد بدأت بسرعة تمزق الحجاب وتقضى عليه ، كما ظهرت بوادر فى المجتمع الاسـلامى تدل على التخلص من هذا العبء الفظيع على نطاق واسع ٠ ففى تركيا وضع مصطفى كمال نهاية للحجاب ٠ كذلك بدأ الحجـاب فى مصر يختفى بشكل سريع ويحل محله السفور ٠

ولا يفوتنى قبل أن أختم رسالتى اليك أن أشير الى نقطة بالغـة الأهمية والدلالة ٠ فالمـأثور عن العرب أنهم كانوا فى بدء نهضـتهم متحمسين غـاية التحمس للدين ، ولـكنهم مع تحمسـهم هـذا كانوا متسامحين مع مخالفيهم فى العقيدة ٠ وهناك أمثلة عديدة على تسامحهم الدينى ٠ وقد أكد الخليفة عمر بن الخطاب هذا التسامح وأوصى به مرة فى بيت المقدس ، وفى أيام حكم العرب فى اسبانيا كان جزء كبير من سكانها مسـيحيين ، وكانوا يتمتعون كل التمتـع بحرية العبادة والعقيدة ٠ وفى الهنـد لم يمتد حكم العرب الا عـلى السند ، ولكن نشأت اتصالات كثيرة بينهم وبين سكان الهند، وكانت هذه الاتصالات قائمة على أساس المودة والصداقة ٠ وفى الحق ان أكثر ما يلاحظ على هذه الفترة من التاريخ هو المقـابلة بين تسامح العرب المسلمين ، وتعصب المسيحيين فى أوربا ٠

٥٣ — نظام الإقطاع

٤ يونية سنة ١٩٣٢

فى رسالتنا السابقة ألمحنا لمحة الى المراحل الأولى لكل من فرنسا والمانيا وروسيا وانجلترة كما نعرفها اليوم • ولكن لا تتخيلى أن الناس فى تلك العصور قد نظروا الى هذه الأقطار نظرتنا اليها فى عصرنا الحاضر •

فنحن ننظر اليها على أنها شعوب مختلفة من الانجليز والفرنسيين والالمان ، وكل من هؤلاء ينظر الى قطره على أنه وطنه وأرض آبائه وأجداده • وهذا هو شعور القومية الذى يبدو اليوم واضحا فى جميع أرجاء الدنيا ، وكفاحنا فى الهند من أجل الحرية هو « كفاحنا القومى »

ولكن فكرة القومية هذه لم توجد فى تلك العصور البعيدة • وانما كان يشيع فيها فكرة ما عن المسيحية مؤداها أن المسيحيين المعتنقين لها يقفون ضد الكفار أو المسلمين • وكان المسلمون بالمثل يرون أنهم يمتون الى دنيا الاسلام التى تقف ضد الآخرين جميعا وتعتبرهم غير مؤمنين •

بيد أن هذه الأفكار كانت أفكارا غامضة لم تمس أو تلمس حياة الناس اليومية • ومع غموض هذه الأفكار ، فانها استخدمت فى

ظروف ومناسبات خاصة لتملأ قلوب الناس بالغيرة والحماسة الدينية ليقاتلوا من أجل المسيحية أو الاسلام كلما اقتضى الأمر ٠

فبدل القوميـــة ، كان هنـــاك صلة غريبة بين الانســـان وأخيـــه الانسان ٠ وهذه هى الصلة الاقطاعية التى نشأت مما يعرف بالنظام الاقطاعى ٠

وقد ترتب على سقوط رومة أن انهار النظـــام القديم فى الغرب ، وشاع فيه الاضطراب والفوضى والعنف واللجوء الى القتال والحروب ٠ واستولى الأقوياء عـــلى كل ما اســـتطاعت أيديهم أن تمتد اليـــه ، وتمســـكوا به طالمـــا لم يأت اليهم شـــخص أقوى منهم فيطوح بهم ويجليهم عنه ٠ وبنيت قصور قوية حصـــينة ، وخرج أرباب هـــذه القصور فى فصائل من رجالهم ، وأغاروا على الريف وعاثوا فيه سلبا ونهبا وفسادا ٠ وقاتلوا أحيانا من على شاكلتهم من أرباب القصور وسادتها ٠ وكان العمال والزراع بطبيعة الحال أكثر من قاسى وعانى شرور تلك الأوضاع ٠ فمن هـــذا الاضطراب وهـــذه الفوضى ، نشأ النظام الاقطاعى ونما ٠

ولم يكن الزراع منظمين ، ومن ثم لم يســـتطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الأسياد اللصوص ٠ ولم تكن هناك حكومة مركزية لها من قوتها ما تحمى به الزراع من طغيان أرباب القصور عليهم ٠ ولهذا لم يجد الزراع أمامهم الا أن يأخذوا بأخف الضررين ، وأن ينزلوا على شروط رب القصر الذى سلبهم ونهبهم ٠ لقد قبلوا أن يعطوه نصـــيبا مما تنتجه حقولهم ، وأن يخدموه فى بعض الشئون أيضا على شريطة ألا يسطو أو يغير عليهم ، وأن يحميهم شرور من هم على شاكلته من أرباب القصور ٠ كذلك نزل سيد القصر الصغير بالمثـــل على شروط

سيد القصر الكبير . ولما لم يكن فى استطاعة السيد الصغير أن يعطى السيد الكبير شيئا مما ينتجه الحقل ، لأنه لم يكن زارعا أو منتجا ، فقد وعد أن يقدم اليه مساعدة حربية ، بمعنى أن يحارب معه عند الحاجة .

وفى مقابل ذلك كان على السيد الكبير أن يحمى السيد الصغير ، وبهذا أصبح الأخير مولى لسيد كبير أو أمير . وخطوة خطوة أخذوا يتدرجون من سادة ونبلاء كبار الى سادة ونبلاء أكبر حتى وصلوا الى الملك فى قمة هذا النظام الاقطاعى . ولدى هؤلاء أن كل شىء ، حتى السماء ، قد أسهم بنصيب فى النظام الاقطاعى بأقانيمه أو ثالوثه الأقدس الذى ترأس عليه الاله !

كان هذا هو النظام الذى نشأ شيئا فشيئا من الاضطراب الذى غشى أوربا . ويجب أن تتذكرى أنه لم يكن هناك فى ذاك الوقت حكومة مركزية تقريبا ، أو شرطة يحافظون على الأمن أو ما أشبه ذلك . انما كان مالك أى قطعة من الأرض هو حاكمها وسيدها وسيد كل من أقاموا عليها . لقد كان أشبه بملك صغير ، وكان مفروضا فيه أن يحميهم فى مقابل خدمتهم له وحصوله على نصيب مما تنتجه حقولهم . لقد كان سيدا أو ملكا لهؤلاء الناس ممن كانوا يسمون بالعبيد الأرقاء . ولما كان ما لديه من أرض قد حصل عليها من سيده الأعلى ، فانه بذلك قد صار مولى اقطاعيا له يتبعه ويقدم اليه المساعدات الحربية .

وحتى رجال الكنيسة قد أصبحوا جزءا من النظام الاقطاعى ، ومن ثم كانوا قساوسة وسادة اقطاعيين . وفى المانيا مثلا كان نصف الأرض والثروة تقريبا فى أيدى الأساقفة ورؤساء الاديرة . وكان البابا نفسه سيدا اقطاعيا .

فهذا النظام كله — كما تلاحظين — كان نظام درجات وطبقات . ولم يكن فيه مكان للمساواة . ففى أسفل السلم نرى العبيد الأرقاء يحملون ثقل البناء الاجتماعى كله ، ومن فوقهم نرى الأسياد الصغار، فالأسياد الكبار ، فالأسـياد الاكبر . فالملك . وعلى عاتق العبيـد الأرقاء ، كانت تقع أيضا أعباء تكاليف الكنيسة والأساقفة ورؤساء الأديرة والكرادلة والقساوسة .

أما الأسياد الصغار والكبار ، فما كانوا ليزاولوا أى عمل من شأنه أن ينتج طعاما ، أو أى مورد آخر من موارد الرزق والثروة ، لاعتقادهم أن هذه أعمال محطة لاتليق بأمثالهم . لقـد كان القتـال عملهـم الرئيسى،فاذا لم يجدوا مايدعوهم الى ممارسة هذه الحرفة فانهم كانوا يشغلون أنفسهم بالصيد ، أو بالانهماك فى المبارزات وفى ضروب من القتال صورية مصطنعة . وكانوا بالاضافة الى ما تقدم ، قوما أميين ذوى خشونة وغلظة ، لا يعرفون من وسائل اللهو وامتـاع النفس ، سوى القتال والطعام والشراب .

وهكذا وقع العبء كله فى انتاج الطعام وغيره من ضروريات الحياة على الزراع والصناع. وفى قمة النظام كله نرى الملك ، وكان مفروضا فيه أنه مولى للاله .

هذه كانت هى الفكرة من وراء النظام الاقطاعى . فنظريا كان على الأسياد الاقطاعيين أن يحموا مواليهم وعبيدهم ، وعمليا كان أولئك الأسياد يعتبرون أنفسهم هم القانون.وقلما أوقفهم أسيادهم أو الملك عند حدهم . وكان الزراع أضعف من أن يقاوموا مطالبهم ، ولكونهم أقوى من عبيدهم استغلوهم وأخذوا من جهدهم أقصاه وأسلموهم الى حياة تعيسة بائسة .

ذلك كان حال ملاك الارض دائما وفى جميع الأقطار . فملكية

الأرض منحت مالكيها النبالة والشرف • فالفـــارس اللص الذى استولى على أرض وبنى قصرا يتحصن به أصبح سيدا نبيلا يحترمه الناس • وهذه الملكية منحت أربابها السـلطان والنفوذ ، ولهـذا استعمل مالك الأرض سلطانه ونفوذه فى أن يأخذ أقصى ما يستطيع أن يأخذ من الزارع والمنتج أو العـامل • وحتى القوانين سـاعدت ملاك الأراضى فى ذلك،لأن القوانين كانت من وضعهم همو أصدقائهم• وهذا هو السبب فى أن كثيرين من الناس يرون أن الأرض يجب أن تكون ملكا شائعا للجميع،ممثلين فى الدولة، لا للأفراد• فاذاكانت الارض ملكا للدولة أو الجماعة فذلك يعنى أنها ملك لكل أبناء الدولة ، ومن ثم لا يستطيع أحد أن يستغل الآخرين ممن يعملون فيها أو أن يحصل منها على منافع فيها اجحاف بالغير •

ولكن هذه الأفكار كانت لم تعرف ولم تشع بعـد • فأهل العصر الذى نتكلم عنه لم يفكروا فى هذا الاتجاه • لقـد كان عامة النـاس وقتئذ بائسين ، ولكنهم لم يروا لأنفسهم مخرجا مما كانوا يقاسونه من بؤس وشقاء ، ولهذا تحملوا المشاق والصعاب ، وواصلوا حياة العمل الذى لا أمل فيه •

ان عادة الخضوع والطاعة ظلت تفرض وتلح عليهم حتى تأصلت فيهم ، واذاحدث ذلك فان الناس يكادون يتحملون أى شىء •

وهكذا نرى مجتمعا ينمو وقد تألف من الأسـياد الاقطاعيـين ومواليهم وخدمهم من جهة ، ومن الفقراء جدا من جهة أخرى • وحول قصر السيد الاقطاعى المشيد من الصخر كانت تتجمع أكواخ العبيد المقامة من اللبن أو الخشب • لقد كان هناك دنييـان تبعـد أحداهما عن الأخرى كل البعد ، وأعنى بذلك دنيا السيد ، ودنيـا العبد • ومن المحتمل أن السيد قد اعتبر العبـد يبعد بعض درجات فقط عن المـاشية التى يرعاها •

وقد حدث أحيانا أن حاول بعض القساوسة الصغار أن يحموا العبيد من سادتهم ، ولكن القساوسة ورجال الدين على العموم كانوا يقفون فى صف الأسياد الاقطاعيين ، وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة فى الواقع ونفس الأمر أسيادا اقطاعيين ٠

وهذا النوع من النظام الاقطاعى لم يوجد عندنا فى الهند ، ولكن وجد شيء شبيه به ٠ فالدول الهندية في الحقيقة بحكامها ونبلائها وأسيادها لاتزال تحتفظ بعادات اقطاعية كثيرة ٠ ونظام الطوائف الهندى مع اختلافه كل الاختلاف عن النظام الاقطاعى قد قسم المجتمع الهندى الى طبقات ٠

وفى الصين ، كما أظن أنى أخبرتك ، لم يوجد مطلقا نظام الحكم الفردى ، أو نظام الطبقة المفضلة ، كما هو الحال فى النظام الاقطاعى، ولكنهم عن طريق نظامهم القديم القائم على أساس الاختبارات فتحوا الباب أمام كل فرد ليصل الى أعلى منصب ومركز ٠ ولكن ربما كان هناك من الناحية العملية قيود كثيرة ٠

وهكذا لم يكن فى النظام الاقطاعى أى فكرة عن المساواة أو الحرية، وانما كان هناك فكرة عن الحقوق والالتزامات بمعنى أن يتلقى السيد الاقطاعى كحق له جزءا من انتاج الارض، وأن يقوم له مواليه بكل ضروب العمل والخدمة ٠ وفى مقابل ذلك ألزم نفسه حمايتهم ٠ ولكن الحقوق تذكر دائما ، والالتزامات كثيرا ما تتجاهل ٠ وانه ليوجد حتى الآن ملاك أراض كبار فى الأقطار الأوربية وفى الهند ممن يحصلون على أموال طائلة من مستأجرى أراضيهم من غير أن يقوموا أنفسهم بعمل أى عمل ٠ أما فكرة الالتزام فقد طال نسيانها ٠

وانه لشيء غريب أن نرى كيف أن قبائل أوربا البربرية التى كانت مغرمة بالحرية تسلم نفسها شيئا فشيئا الى النظام الاقطاعى الذى أنكر عليها الحرية انكارا تاما ٠ لقد كانت هذه القبائل تنتخب

رؤساءها وتكبح من جماحهم اذا اقتضى الأمر ، أما الآن فينتشر الاستبداد وحكم الفرد فى كل مكان ، مع اهمال موضوع الانتخاب .

وليس من السهل أن أعلل لماذا حدث هذا التغير . فلعل العقائد والتعاليم التى نشرتها الكنيسة قد ساعدت على نشر هذه الأفكار غير الديمقراطية . فالملك أصبح ظل الله على الأرض . وكيف نستطيع أن نعصى أو نجادل ظل الاله القادر على كل شىء ؟ ويبدو أن النظام الاقطاعى قد أدخل السماء والأرض فى طياته .

وفى الهند أيضا نجد أن التصورات الآرية القديمة عن الحرية تتغير تدريجا ، وهى فى تغيرها هذا تصير أضعف فأضعف حتى لتكاد تنسى .

ولكن فى أوائل القرون الوسطى ، كما أوضحت لك من قبل ، كانت هذه التصورات لا تزال حية الى حد ما كما ينبئنا بذلك «نيتيسارا شكرا تشاريا»[1] والكتابات والنقوش الموجودة فى جنوب الهند .

وقد عاد بعض الحرية فى بطء الى أوربا عن طريق النظم الجديدة التى أخذت فى الظهور . فبجانب ملاك الأراضى وعمالها وأرباب القصور الاقطاعيين وعبيدهم ، كان هنا طبقتان أخريان من الصناع والتجار . وهؤلاء الصناع والتجار ، كما هم ، لم يكونوا جزءا من النظام الاقطاعى . ففى عهد الاضطراب والفوضى لم تزدهر الحرف والصناعات ، وكادت التجارة أن تنعدم . ولكن على توالى الأيام أخذت حركة التجارة تزداد شيئا فشيئا ، وأهمية الصناع والتجار تظهر وتنمو . ونتيجة لذلك أصبح هؤلاء الصناع والتجار أغنياء ، يقصدهم الاقطاعيون لاقتراض المال منهم . وكان الصناع والتجار

(١) كتاب هندى قديم عن النظرية السياسية . وقد كتب على صورة قصص ليقرأها المهتمون بالسياسة من أمراء وغيرهم .
«المترجم»

يقرضونهم ، ولكنهم كانوا يصرون على سادة الاقطاع المقترضين منهم أن يتنازلوا لهم عن بعض الامتيازات · وقد أدت هـذه الامتيازات الى زيادة الصناع والتجار قوة على قوة ·

ولهذا نجد ، بدل أكواخ العبيد المتجمعةحول قصر السيد الاقطاعى، مدنا صغيرة تظهر وتنمو من منازل تحيط بكنيسة كبيرة أو صـغيرة أو قاعة عامة للمدينة · وقد بدأ الصناع والتجار يكونون نقابات أو جمعيات ، واتخـذوا مراكز رئيسية لها من القاعات العامة للمدن والتى صارت تعرف فيما بعد بقاعات البلديات ·

فهذه المدن التى أخـذت فى الظهور ، مثـل كولونيـا Cologne وفرانكفورت وهامبورج ، أصبحت تنافس الأسـياد الاقطاعيـين فى قوتهم ونفوذهم ·

فى هذه المدن وأمثالها كانت طبقة جديدة تنمو ممثلة فى الصـناع والتجار الذين بلغوا من الثراء حدا جعلهم يتحدون حتى النبلاء · لقد كان كفاحا طويلا ، وكثيرا ما كان الملك فى حالة خوفه من نبـلائه يقف فى صف المدن ·

أشعر بهذا القول أنى مسرع الى الأمام أكثر ممـا ينبغى · لقـد حدثتك فى مستهل هـذه الرسالة بأن فكرة القوميـة أو الشعور بالقومية ، لم يكن موجودا فى تلك العصور البعيـدة · وكل ما كان هو أن الناس كانوا يفكرون فى واجبهم وولائهم لسـيدهم الأعلى · لقد أقسموا على أن يخدموه هو ، لا أن يخـدموا الوطن الذى ينتمون اليه · وحتى الملك فى تلك العصور كان شخصا غامضا وبعيدا جدا · فاذا ثار السيد الاقطاعى ضد الملك ، كان هذا انذارا للملك بأن يأخذ حذره ، لأن عبيد السيد الاقطاعى ومواليه يتبعونه فى كل شىء ·

وهذا كان شيئا مختلفا جدا عن فكرة القومية التى ظهرت وانتشرت بعد ذلك بزمن طويل ·

٧٢ — نهاية العصور الوسطى

أول يولية سنة ١٩٣٢

دعينا ننظر مرة ثانية الى أوربا من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر • ويبدو أنه كان فى أوربا فى هـذه الفترة قدر هائل من الاضطراب والعنف والصراع • وكانت الأحوال وقتئذ فى الهند أيضا سيئة نوعا ، ولكن يغلب على الظن أن الهند كان يسودها الهدوء والسلام اذا ما قورنت بأوربا •

فى تلك الفترة من التاريخ جلب المغول البارود الى أوربا ، وبدأت الأسلحة النارية تستخدم فى القتال • وقد انتهز الملوك هذه الأسلحة فاستغلوها فى القضاء على نبلائهم الاقطاعيين الثائرين عليهم •

وكان من عادة النبلاء أن يشن بعضهم على بعض حروبا خاصة • واذا كانت هذه الحروب قد أضعفتهم ، فانهـا فى الوقت ذاته سببت الفزع والقلق والمتاعب لأهل اقطاعياتهم الخاصة • ولما ازداد الملك قوة وضع نهاية لتلك الحروب الخاصة التى كانت تنشب بين النبلاء أنفسهم • وفى بعض الأماكن قامت حروب أهلية بين اثنين متنافسين كل منهما يدعى التاج والملك لنفسه •

ففى انجلترة مثلا حدث صراع على الملك بين أسرتين : أسرة يورك وأسرة لانكاستر • فكل من هذين البيتين اتخذ وردة شعارا له • وكان شعار أحدهما وردة بيضاء وشعار الآخر وردة حمراء • ولهذا سميت

الحروب التى قامت بينهما « حروب الوردتين » .. وقد قتل فى هذه الحروب الأهلية عدد كبير من النبلاء الاقطاعيين ، كما قتل كثيرون منهم فى الحروب الصليبية .

وهكذا أمكن تدريجا اخضاع النبلاء الاقطاعيين وكبح سلطانهم . ولكن هذا لم يعن أن السلطة التى كان يتمتع بها أولئك النبلاء قد انتقلت منهم الى العامة ، وانما يعنى أن الملك هو الذى ازداد قوة على قوة . وقد ظل الشعب كما هو لم يطرأ عليه غير تحسن قليل بسبب قلة الحروب الخاصة التى كانت تقوم بين النبلاء . أما الملك فقد آلت اليه كل القوة ، واستحال الى ملك مستبد ، ولم يكن الصراع بينه وبين طبقة التجار الجديدة قد ظهر بعد .

وأفظع من الحرب وحتى من المذابح كان الطاعون الكبير الذى تفشى فى أوربا نحو عام ١٣٤٨ ميلادية . لقد انتشر هذا الوباء فى جميع أرجاء أوربا من روسيا وآسيا الصغرى الى انجلترة ، كما امتد الى مصر ، وشمال افريقية ، وآسيا الوسطى ثم الغرب .

وكان هذا الطاعون يسمى بالموت الأسود ، لأنه قضى على حياة الملايين من البشر ، وراح ضحيته نحو ثلث سكان انجلترة ، وفى الصين وغيرها كانت قائمة الوفيات هائلة . ومن العجيب المدهش أن هذا الطاعون لم يأت الى الهند .

وقد أدت هذه الكارثة الشنعاء الى نقص كبير فى سكان العالم . وفى جهات كثيرة لم يكن هناك من الأيدى العاملة مايكفى لحرث الارض وزرعها . ونتيجة لقلة الرجال ، أخذت أجور العمال تميل الى الارتفاع بالقياس الى المستوى المنحط الذى كانت عليه من قبل .

ولكن ملاك الأراضى وأرباب الملكيات تحكموا فى البرلمانات ، وأصدروا قوانين تقضى باجبار الناس على أن يعملوا بالأجور الضئيلة

القديمة دون مطالبة بأية زيادة . ولما بلغ استغلال الزراع والفقراء وظلمهم مبلغا يفوق طاقتهم واحتمالهم، لم يجدوا أمامهم الا أن يثوروا . وقد قامت ثورات الزراع هذه واحدة بعد الأخرى فى جميع أنحاء غرب أوربا .

وفى عام ١٣٥٨ قامت فى فرنسا ثورة فلاحين سميت Jacquerie وفى انجلترة وجدت ثورة « وات تيلور » Wat Tyler والتى قتل فيها « تيلور » أمام ملك الانجليز فى عام ١٣٨١ . وقد أخمدت هذه الثورات ، وكثيرا ما استدعى اخمادها استعمال منتهى القسوة والوحشية .

ولكن أفكارا جديدة عن المساواة كانت قد أخذت تنتشر فى بطء . فالناس كانوا يسألون أنفسهم : لماذا يتحتم أن يكونوا فقراء ، وأن يموتوا سغبا وجوعا فى الوقت الذى يكون فيه الآخرون أغنياء ، ولديهم وفرة من كل شيء ؟ لماذا يكون بعض الناس سادة نبلاء ويكون الآخرون عبيدا ؟ ولماذا يرتدى بعض الناس أفخر الثياب ، ثم لايجد من عداهم حتى الثياب المهلهلة البالية يسترون بها أنفسهم .

لقد انهارت فكرة الخضوع القديمة للسلطة والتى كانت أساس النظام الاقطاعى كله . ومن ثم ثار الزراع مرة اثر مرة ، ولكنهم كانوا ضعافا غير منظمين ، ولم تكن ثوراتهم تخمد الا ليندلع لهيبها من جديد فيما بعد .

وكانت الحروب بين انجلترة وفرنسا تكاد تكون سجالا متصلة . فمنذ أوائل القرن الرابع عشر الى منتصف القرن الخامس عشر ، كان بينهما ما يسمى بـ « حروب المائة سنة » . وكانت « برجندى » فى شرق فرنسا دولة قوية تتبع اسميا ملك فرنسا ، ولكنها كانت

دولة مشاغبة مثيرة للقلاقل والمشاكل . وقد تآمر الانجليز معها ومع دول أخرى ضد فرنسا . وحدث أن كانت فرنسا لفترة من الزمن محاصرة من كل الجهات ، كما حدث أن جزءا كبيرا من فرنسا الغربية كان لعهد طويل فى حيازة انجلترة ، ولهذا بدأ ملك انجلترا يسمى نفسه ملك انجلترة وفرنسا .

وحينما بلغت فرنسا أحط دركات اضمحلالها وضعفها وبدت كأن الأمل قد تخلى عنها ، عاد الامل والنصر اليها فى صورة فتاة ريفية صغيرة هى جان دارك فتاة أورليانس .

وأنت تعرفين شيئا عن قصة جان دارك لأنها ، كما أعلم ، احدى البطلات اللائى تعجبين بهن . فقد استطاعت جان دارك الفتاة الريفية أن ترد الى أبناء وطنها اليائسين ثقتهم بأنفسهم ، وأن توحى اليهم بعمل عظيم هو طرد الانجليز من وطنهم . وكان جزاؤها أن حوكمت أمام محكمة التفتيش التى قضت باعدامها حرقا . فالانجليز بعد أن وقعت فى أيديهم وتمكنوا منها جعلوا الكنيسة تدينها بالكفر وتحكم عليها بالاعدام ثم قاموا بحرقها فى سوق مدينة « روان » عام ١٤٣٠ . وبعد ذلك بسنوات كثيرة نقضت الكنيسة الرومانية قرار الكنيسة السابق . ثم بعد عهد طويل اعتبروها قديسة !

لقد تكلمت جان دارك عن فرنسا وعن انقاذ وطنها من الأجنبى الدخيل ، فكان هذا نوعا جديدا من الكلام . ففى ذاك الوقت كان الناس متشبعين بالأفكار الاقطاعية ، ولم يكن يدور بخلدهم شىء عن القومية ، ولهذا أدهشهم كلام جان دارك عن الوطن والوطنية وقلما فهموها . ونستطيع أن نرى فى فرنسا منذ عهد جان دارك مطالع القومية .

وعندما طرد ملك فرنسا الانجليز من بلاده التفت الى « برجندى »

التى سببت له كثيرا من المتاعب والقلاقل . وقد استطاع أخيرا أن يخضع هذه الدولة القوية التابعة له وأن يصيرها منذ حوالى سنة ١٤٨٣ ميلادية جزءا من فرنسا . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل حطم أو كبح جماح كل نبلاء بلاده الاقطاعيين . وهكذا نرى ملك فرنسا يصير ملكا قويا .

ومنذ امتصاص فرنسا لبرجندى وجعلها جزءا منها نرى فرنسا وألمانيا تقفان وجها لوجه ، وتتصل حدود احداهما بحدود الأخرى. ولكن بينما كانت فرنسا ملكية مركزية قوية ، نرى المانيا ضعيفة منقسمة الى دول كثيرة .

وحاولت انجلترة فتح سكتلندة التى كثيرا ما حاربت فى صف فرنسا ضدها ، وكان هذا أيضا كفاحا طويلا ، ولكن الاسكتلنديين بقيادة « روبرت بروس » هزموا الانجليز عام ١٣١٤ فى « بنوك بيرن» "Bannockburn"

وحتى قبل هذا التاريخ حاول الانجليز أكثر من مرة فى القرن الثانى عشر أن يفتحوا ارلندة . كان ذلك منذ سبعمائة سنة ، وكثيرا ما قامت فى ارلندة منذ هذا التاريخ حروب وثورات وارهابات . فهذا القطر الصغير أبى أن يخضع ويستسلم لسيطرة أو سيادة دولة أجنبية ، وقد ثار من جيل الى جيل معلنا أنه لن يخضع ويستسلم .

وفى القرن الثالث عشر ، أعلن شعب صغير من شعوب أوربا ، هو الشعب السويسرى ، حقه فى الحرية. فسويسرا كانت تكون جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة التى كانت تحكمها النمسا . ولا بد أنك قرأت قصة «وليام تل» William Tell وابنه ، ولكن المحتمل أن هذا ليس صحيحا . ولكن الأعجب من هذا هو قصة ثورة الفلاحين السويسريين ضد الامبراطورية الكبرى ورفضهم الخضوع لها . فقد ثارت أولا ثلاث مقاطعات وكونت فى عام ١٢٩١ ميلادية « عصبة

أبدية » كما سموها ، وقد انضمت اليهم مقاطعات أخرى ، وفى عام ١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية حرة تتكون من اتحاد مقاطعات مختلفة سمى بالاتحاد السويسرى · هل تذكرين شعل النيران التى شاهدناها على قمم جبال كثيرة فى سويسرا فى أول أغسطس ؟ لقد كان ذلك يوم السويسريين القومى ، وعيد ثورتهم الذى كانت الشعلة فيه شارة التمرد على الحاكم النمسوى ·

وفى شرق أوربا ، ماذا كان يحدث فى القسطنطينية ؟ تذكرين أن الصليبيين اللاتينيين استولوا على هذه المدينة من الاغريق سنة ١٢٠٤ ميلادية · ولكن الاغريق طردوهم منها سنة ١٢٦١ وأعادوا تأسيس الامبراطورية الشرقية مرة أخرى ·

بيد أن خطرا آخر أكبر كان فى طريقه الى الظهور · ذلك أن المغول حينما تقدموا عبر آسيا فر من وجههم خوفا خمسون ألفا من الأتراك العثمانيين · وهؤلاء الأتراك العثمانيون يختلفون عن الأتراك السلاجقة ، ويمتون الى عثمان مؤسس الدولة العثمانية · ومن ثم سموا بالعثمانيين أو « الأتراك العثملى »

وهؤلاء العثمانيون الفارون احتموا بالسلاجقة فى آسيا الغربية · ويبدو أن العثمانيين أخذوا فى القوة والانتشار حينما بدأ السلاجقة فى الضعف ·

وبدل أن يهاجموا القسطنطينية ، كما فعل كثيرون غيرهم من قبل، نراهم يمرون بها ويجتازونها الى أوربا سنة ١٣٥٣· وفى أوربا نراهم ينتشرون انتشارا سريعا ويحتلون بلغاريا والصرب ويتخذون من « أدرنة » Adrianople عاصمة لهم · وهكذا انتشرت الامبراطورية العثمانية على جانبى القسطنطينية فى آسيا وأوربا ، وأحاطت بها ، ولكن هذه المدينة ظلت خارجها ·

بيد أن الامبراطورية الرومانية الشرقية المزهوة بنفسها والبالغة من العمر ألف سنة ظلت تنكمش وتنكمش حتى استحالت فى النهاية الى مدينة القسطنطينية واقتصرت عليها وحدها ٠ وعلى الرغم من ابتلاع الاتراك للامبراطورية الشرقية ، فان الصلات بين أسرتى السلاطين العثمانيين وأباطرة هذه الامبراطورية كانت – كما يبدو – صلات ود وصداقة ومصاهرة متبادلة ٠ وأخيرا سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك عام ١٤٥٣ ، ولهذا سنشير منذ الآن الى الأتراك العثمانيين ونلغى الاتراك السلاجقة من حسابنا ٠

ان سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين كان حدثا تاريخيا خطيرا هز أوربا هزا عنيفا ٠ فسقوطها يعنى القضاء النهائى على الامبراطورية الشرقية الاغريقية القديمة التى دامت ألف عام ، كما يعنى غزوا اسلاميا آخر لأوربا ٠ وقد استمر توسع الاتراك العثمانيين ، حتى لقد بدا أحيانا أنهم سيفتحون كل أوربا ، ولكنهم أوقفوا عند أبواب مدينة فينا ٠

وقد حول الأتراك العثمانيون كنيسة القديسة صوفيا الكبرى التى بناها الامبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى الى مسجد أسموه « أيا صوفيا » كما نهبت بعض نفائس هذه الكنيسة ٠ وقد أثار هذا الحادث مشاعر أوربا ، ولكنها وقفت حياله عاجزة لاتستطيع أن تفعل شيئا ٠

ومهما يكن من أمر فالواقع أن سلاطين الأتراك العثمانيين كانوا متسامحين جدا مع الكنيسة الاغريقية الأرثوذكسية، حتى أن السلطان محمد الثانى نصب نفسه بعد سقوط القسطنطينية راعيا للكنيسة الاغريقية ٠ ثم جاء سلطان آخر يسمى سليمان القانونى واعتبر نفسه ممثل الأباطرة الشرقيين ولقب نفسه بلقب القيصر الذى كان رمزا على السلطان والقوة فى القديم ٠

ولا يبدو أن اغريق القسطنطينية لم يرحبوا بالأتراك العثمانيين. لقد رأوا أن الامبراطورية القديمة فى تدهور وانهيار . وفى الوقت ذاته لم ينسوا أن تجربتهم مع الصليبيين اللاتينيين كانت تجربة قاسية سيئة ، ولهذا آثروا الأتراك وفضلوهم على البابا وعلى مسيحيى الغرب . ويروى أن نبيلا بيزنطيا قال أثناء حصار القسطنطينية الأخير عام ١٤٥٣ : « ان عمامة النبى أفضل من تاج البابا المرصع باللآلىء » .

وقد أنشأ الأتراك فرقة عسكرية غريبة تدعى « فرقة الانكشارية »[1] ، وذلك بأن أخذوا بعض الأطفال المسيحيين ، كنوع من الجزية المفروضة منهم على المسيحيين وربوهم ونشئوهم منذ الصغر تنشئة عسكرية خاصة . لقد كان حرمان صبية صغار من حنان الآباء والأمهات والتفريق بينهم ضربا من القسوة والوحشية ، ولكن أولئك الصبية جنوا من وراء ذلك أيضا بعض المزايا ، فقد تدربوا تدريبا عاليا ، وصاروا بهذا التدريب يمثلون الارستقراطية العسكرية . وكان السلاطين العثمانيون ينظرون الى فرقة الانكشارية على أنها دعامة من دعائم قوتهم .

وفى أسلوب مشابه تكونت فى مصر فرقة تدعى « المماليك » وهى تقابل فرقة الانكشارية . وقد بلغ المماليك من القوة مبلغا جعلهم لفترة من التاريخ سلاطين مصر وحكامها .

ويبدو أن السلاطين العثمانيين باستيلائهم على القسطنطينية قد ورثوا عمن سبقهم من الأباطرة البيزنطيين كثيرا من الفساد وعادات الترف والبذخ السيئة . فنظام البيزنطيين الامبراطورى المنحط قد

---

(١) الانكشارى كلمة معناها الفدائى .

غشيهم وأطبق عليهم حتى أوهن فى بطء قوتهم وأضعفهم شيئا فشيئا • ولكنهم ظلوا حقبة من الزمن أقوياء ، وظلت أوربا المسيحية فى خوف منهم •

كذلك فتحوا مصر ، واستولوا على لقب الخلافة من ممثل العباسيين الضعيف الذى لا حول له ولا قوة،والذى كان يلقب وقتئذبالخليفة• ومنذ ذلك الوقت أسمى السلاطين العثمانيون أنفسهم خلفاء ، واستمر الأمر كذلك حتى جاء مصطفى كمال باشا منذ عدة سنوات ، فألغى كلا من السلطنة والخلافة •

ان تاريخ سقوط القسطنطينية له اعتبار هام فى التاريخ • فهو ينظر اليه على أنه نهاية عصر وبداية عصر آخر • فالعصور الوسطى قد انتهت ، وكذلك عصور الظلام التى دامت ألف سنة • ثم ظهرت حركة انتعاش فى أوربا ، وبدأنا نلمح فى أفقها حياة ونشاطا جديدين • وهذا ما يسمى ببدء عصر النهضة ، أو عصر احياء العلوم والفنون •

فالناس فى أوربا يبدون وكأنما قد أفاقوا واستيقظوا من نوم طويل • ونراهم يرجعون بأبصارهم فى الماضى عبر القرون الى اليونان القديمة ، أيام مجدها وعظمتها ، ليستمدوا منها الوحى والالهام • وتكاد تكون هناك ثورتان شنهما العقل : ثورة على نظرة الحياة الكئيبة القاتمة المرعبة التى تشجع عليها الكنيسة ، وثورة على السلاسل والأغلال التى تقيد النفس الانسانية • فحب الاغريق القديم للجمال يظهر ، وأوربا تزهر بأعمال الفن الرائعة فى التصوير والنحت والعمارة •

وكل ذلك لم يحدث بطبيعة الحال فجأة كنتيجة لسقوط القسطنطينية ، وانه لسخف من القول أن يزعم زاعم ذلك•ان استيلاء

الأتراك على المدينة قد ساعد قليلا فى سرعة عجلة التغير ، ذلك لأنه أدى بعدد كبير من العلماء وذوى المعرفة الى أن يغادروا المدينة ويرحلوا الى الغرب . وهؤلاء حملوا معهم الى ايطاليا نفائس الآداب والثقافة الاغريقية فى الوقت الذى كان فيــه الغرب متهيئا لأن يتقبلهـا ويقدرها . بهذا المعنى ساعد سقوط المدينة قليلا فى ظهور النهضة .

ولكن هذا ليس الا سببا ثانويا من أسباب التغيير الهام الخطير . فالأدب والفكر الاغريقى لم يكن شيئا جديدا فى ايطاليا أو فى الغرب المعروف فى القرون الوسطى . فالثقافة الاغريقية كان يدرسها الناس فى الجامعات ، كما كان العلماء يعرفونها . ولـكنها كانت قاصرة على قلة قليلة ، ولعدم التئامها مع نظرة الحياة السائدة لم تنتشر .

السبب الأساسى هو أن ابتداء الشك فى عقول الناس مهد التربة وهيأها فى بطء لبذور نظرة جديدة فى الحياة . فالنـاس كانوا غير راضين عن الأوضاع ، كما كانت ، ومن ثم أخذوا يبحثون عن الأشياء التى ترضيهم أكثر . وبينما كانوا فى حالة الشك والتوقع هـذه اكتشفت عقولهم فلسفة الاغريق الجاهلية القديمة وشربت من أغوار أدبها . وقد بدا لهم أن هذا هو ما كانوا ينشدونه ، ولهذا ملأهم الاكتشاف حماسة .

ان بدء النهضة كان فى ايطاليا ، ولكنها انتشرت بعد ذلك فى فرنسا وانجلترة وغيرهما ، ولم تكن النهضة مجرد اعـادة اكتشاف الفكر والأدب الاغريقى ، وانما كانت أكبر كثيرا وأعظم . لقد كانت المظهر الخارجى لعملية الجيشان التى ظلت مختمرة تحت السطح فى أوربا عهدا طويلا ، وهذا الجيشان المختمر كان لا بد أن يظهر فى صور شتى ، وكانت النهضة صورة من هذه الصور .

٧٣ — اكتشاف الطرق البحرية

٣ يوليو سنة ١٩٣٢

لقد وصلنا الآن فى حديثنا عن أوربا الى المرحلة التى أخذت عندها القرون الوسطى تنقرض وتزول وتفسح المكان لدنيا جديدة ونظام جديد • فى هذه المرحلة نرى عدم القناعة والرضا بالأحوال القائمة ، وهذا الشعور هو باعث التغير والتقدم • فكل الطبقات التى استغلها النظام الاقطاعى والنظام الدينى كانت تسودها حال من عدم القناعة والرضا •

فنحن نرى أن ثورات الزراع تأخذ طريقها الى الظهور • ولكن الزراع كانوا لا يزالون متخلفين ضعافا ، ولم يستطيعوا ، على الرغم من ثوراتهم ، أن يكسبوا لأنفسهم شيئا يذكر • فاليوم الذى يصبحون فيه قوة لها وزنها وحسابها كان لم يحن بعد •

والصراع الحقيقى كان بين الطبقة الاقطاعية القديمة وبين الطبقة الوسطى الجديدة التى بدأت تستيقظ وتشق سبيلها الى القوة والسلطة • فالنظام الاقطاعى كان قائما على أساس أن الأرض هى مصدر الثروة ، ولكننا نرى الآن أن نوعا جديدا من الثروة كان يتراكم ويتكدس وليس مصدره الأرض ، وانما كان مصدره الصناعة والتجارة ، وقد انتفعت الطبقة الوسطى الجديدة أو الطبقة البرجوازية بمصدر الثروة هذا واستمدت منه قوة •

وهذا الصراع كان فى الواقع صراعا قديما ، وما نرى الآن ليس الا تغيرا فى المواقف النسبية لكل من الفريقين • فالنظام الاقطاعى ، ولو أنه كان لا يزال مستمرا ، نراه يأخـذ موقف الدفاع ، بينما الطبقة البرجوازية الواثقة من قوتها الجديدة تقف موقف الهجوم • ويدوم هذا الصراع والكفاح مئات من السنين يكون فى خلالها أكثر فأكثر فى جانب الطبقة البرجوازية وصالحها ، وهو يتنوع فى أقطار أوربا المختلفة ، ففى أوربا الشرقية لا يكاد يكون لهذا الصراع والكفاح أثر ظاهر ملموس ، وانما تظهر الطبقة البرجوازية أول ما تظهر فى غرب أوربا •

فتحطيم الحواجز القديمة كان ايذانا بالتقدم فى اتجاهات وميادين كثيرة • لقد كان ايذانا بالتقدم فى ميدان العلم ، وميـدان الفن ، وميدان الأدب ، وميدان العمارة ، وميدان الاكتشافات الحديثة • فالتقدم يحدث دائما على هذا النحو عند ما تحطم النفس الانسانية أغلالها وتخرج من محيطها الضيق المحدود الىعوالم فسيحة منبسطة، وحتى فى الهند بلادنا سنرى عند ما تعود الحرية اليها أن شـعبنا سينطلق بعبقريته وينتشر فى كل الاتجاهات والميادين •

وعند ما يتراخى ويضعف نفوذ الكنيسة وسلطانها نرى النـاس أقل انفاقا على الكنائس الكبيرة والصغيرة وأضن بالمال من أن يذهب فى هذا الاتجاه • وبدل تشييد الكنائس نرى مبانى جميلة تظهر فى أماكن كثيرة ، ولكنها لا تعدو قاعات بلديات أو ما أشبه ذلك • كذلك نرى الطراز القوطى فى البناء يتقهقر ويحل محله طراز جديد •

وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا الغربية ممتلئة بنشاط جديد بدأ بريق ذهب الشرق يخطف الأبصار ويغرى به ذوى الطموح • فقصص « ماركوبولو » وغيره من الرحـالة الذين رحلوا الى الهنـد

والصين أثارت خيال أوربا ، ودفعت الى البحر بكثيرين ممن يطمعون فى الثراء الذى لا يحد ولا يوصف ٠

وفى هذا الوقت سقطت القسطنطينية، وتحكم الأتراك العثمانيون فى الطرق البرية والبحرية المؤدية الى الشرق ، ولم يشجعوا التجارة كثيرا٠وقد استفز موقف الأتراك هذا غضب التجار الكبار والصغار ، كما أثار حفيظة طبقة المخاطرين الجديدة ممن يحلمون بذهب الشرق ويطمعون فى الحصول عليه ٠ ومن ثم حاولوا اكتشاف طرق جديدة توصلهم الى الشرق الذهبى ٠

ومن المسلم به أن كل تلميذ فى مدرسة يعرف الآن أن الأرض التى نعيش عليها كروية الشكل وأنها تدور حول الشمس ، هـذا شىء واضح لنا جميعا، ولكنه لم يكن واضحا جدا فى العصور القديمة، وكان كل من يفكر على هذا النحو أو يقول مثل هذا القول يسبب لنفسه المشاكل والمتاعب مع الكنيسة ٠

ولكن على الرغم من خشية الكنيسة والخوف منها أخذ عـدد من يقولون بكروية الأرض يتزايد ويتزايد ، ومن هؤلاء من قال : « اذا كانت الأرض كروية فلا بد أن يكون الوصول اذن الى الهند والصين من جهة الغرب ممكنا » ٠ وقد رأى فريق آخر امكانية الوصول الى الهند بالطواف حول افريقية ٠

ويجب أن تتذكرى أن قناة السويس لم تكن موجودة وقتذاك ، وأن السفن لم تكن تستطيع أن تذهب من البحر الأبيض المتوسط الى البحر الأحمر ٠ انما كانت السلع والبضائع تنقل بين هـذين البحرين عن طريق البر محمولة فى الغالب على ظهور الابل والجمال حيث تنتظرها على كلا الجانبين فى البحر الأبيض المتوسـط والبحر

الأحمر سفن جديدة تنقلها الى حيث يراد لها أن تصل شرقا وغربا . وقد أصبح هذا الطريق أكثر صعوبة بعد استيلاء تركيا على الشام ومصر .

ولكن الطمع فى الحصول على غنى الهند وخيراتها ظل يغرى الناس ويستثيرهم ويجتذبهم . وقد كانت اسبانيا والبرتغال أسبق دول الغرب الى الاضطلاع بأسفار البحر والاكتشافات ، فاسبانيا فى ذلك العهد كانت قد طردت آخر من بقى من عرب الأندلس فى غرناطة . وزواج فرديناند صاحب أراجونه من ايزابلا صاحبة قشتالة وحد اسبانيا المسيحية . وفى عام ١٤٩٢ أى بعد أن استولى الأتراك على القسطنطينية على الجانب الآخر من أوربا بنحو خمسين سنة سقطت غرناطة العربية ، وأصبحت اسبانيا عقب ذلك دولة مسيحية كبرى فى أوربا .

ثم نرى المنافسة تظهر بين البرتغال واسبانيا ، فالبرتغاليون يحاولون الوصول الى الشرق والاسبانيون يحاولون الوصول الى الغرب ، وكان أول تقدم كبير هو اكتشاف البرتغاليين للرأس الأخضر . فهذا الرأس واقع فى أقاصى غرب افريقية ، فاذا نظرت الى خريطة افريقية فانك سترين أن الانسان اذا أبحر من أوربا الى هذا الرأس فانه سيتجه الى الجنوب الغربى ، وعند رأس فردى يطوف الانسان حول الزاوية ومن هناك يتجه الى الجنوب الشرقى . فاكتشاف هذا الرأس كان علامة على الرجاء القوى ، لأنه جعل الناس يعتقدون أن فى امكانهم أن يطوفوا حول افريقية فى اتجاههم الى الهند .

على أية حال لقد مرت أربعون سنة أخرى قبل أن يتمكن الناس من الطوفان حول افريقية . ففى عام ١٤٨٦ أبحر برتغالى آخر يدعى

« برثلوميو دياز » وطاف حول طرف افريقية الجنوبى، وهذا الجزء هو ما يعرف الآن برأس الرجاء الصالح . وبعد هذا التاريخ بسنوات قليلة استغل برتغالى آخر يدعى « فاسكو دا جاما » هذا الاكتشاف وأبحر الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد وصل فاسكو دا جاما « كاليكوت » على شاطىء « مالابار » عام ١٤٩٨ .

وهكذا فاز البرتغاليون فى سباق الوصول الى الهند . ولكن فى الوقت ذاته كانت هناك أشياء عظيمة هامة تعود بالنفع على اسبانيا تحدث على الجانب الآخر من العالم . فكرستوفر كولومبوس كان قد وصل الى العالم الأمريكى عام ١٤٩٢ ، وكولومبوس هذا كان رجلا فقيرا من أهل « جنوه » ، ولما كان يعتقد بكروية الأرض فانه أراد أن يصل الى اليابان والهند عن طريق البحر غربا ، ولم يفكر أن الرحلة تستغرق من الزمن بمقدار ما استغرقت فعلا ، وقد ظل يتنقل من بلاط ملك الى بلاط ملك آخر لعله يستطيع أن يجد ملكا أو أميرا يعينه على تحقيق رحلته الاستطلاعية ، وفى النهاية وافق فرديناند وايزابلا ملكا اسبانيا على مساعدته وبدأ كولومبوس رحلته فى قافلة مؤلفة من ثلاث سفن صغيرة عليها ثمانية وثمانون بحارا .

لقد كانت رحلة الى المجهول تجلت فيها الشجاعة والمخاطرة ، فلم يكن أحد يدرى ماذا كان يكنه القدر له فى الطريق ، ولكن كولومبوس كان مؤمنا ، وكان له ما يبرر ايمانه . وبعد تسعة وستين يوما من ابحاره وصل كولومبوس ورجاله الى أرض ظنها الهند ، ولكنها كانت فى الواقع احدى جزائر الهند الغربية .

وكولومبوس لم يصل أبدا الى القارة الأمريكية ، ولكنه ظل يعتقد الى آخر حياته أنه وصل الى آسيا ، وقد استمرت غلطته الغريبة هذه حتى اليوم ، فهذه الجزائر لاتزال تدعى جزائر الهند الغربية، ولايزال

سكان أمريكا الأصليون حتى الآن يسمون بالهنود أو الهنود الحمر .

ثم عاد كولومبوس الى أوربا ، وفى العام التالى لعودته أبحر الى الجزيرة التى اكتشفها فى قافلة من السفن أكثر عددا من القافلة الأولى .

ان اكتشاف الطريق الجديد الى الهند ، كما كان يعتقد وقتذاك ، أثار اهتمام أوربا اثارة شديدة ، وقد دفع نجاح كولومبوس فاسكو دا جاما الى أن يسرع فى رحلته ويصل الى « كاليكوت » . وكان ورود أنباء الاكتشافات الجديدة فى الشرق والغرب الى أوربا يهز مشاعر أهلها ويزيد من اهتمامهم وحماسهم .

وكانت اسبانيا والبرتغال تنافس كل منهما الأخرى على سيادة ما اكتشف من الأراضى الجديدة . عندئذ ظهر البابا على المسرح ، ولكى يمنع أى صراع بين الاسبانيين والبرتغاليين ، قرر أن يكون كريما على حساب غيره من الناس . ففى عام ١٤٩٣ م أصدر أمرا بابويا يدعى أمر الحد الفاصل ، فقد رسم خطا أو حدا وهميا من الشمال الى الجنوب ويمتد مائة فرسخ غرب جزائر الأزور ، وأعلن أن سيادة البرتغال تتضمن كل الأقطار غير المسيحية حتى شرق هذا الحد الخيالى ، وأن سيادة اسبانيا تتضمن كل ما هو غرب هذا الحد من الأقطار . وهذه هدية عظيمة من البابا لاسبانيا والبرتغال تتضمن كل العالم تقريبا ما عدا أوربا ، وفى الوقت نفسه لم تكلفه هو أى شىء !

والأزور جزائر فى المحيط الأطلسى ، والحد الذى يمتد مائة فرسخ أو ثلثمائة ميل غربها من شأنه أن يترك كل أمريكا الشمالية ومعظم أمريكا الجنوبية للغرب . وهكذا جعل البابا من الأمريكتين تقريبا

هدية لاسبانيا ، ومن الهند والصين واليابان وغيرهـا من الأقطار الشرقية وكذلك افريقية هدية للبرتغال ٠

وقد بدأ البرتغاليون يستولون على هذا الملك أو العالم الشاسع المترامى الأطراف ، ومع أن هذا الأمر لم يكن سهلا فانهم تقـدموا بعض التقدم واستمروا يتوسعون شرقا ، وقد بلغوا « جـوا » عام ١٥١٠ ، و « ملقا » فى شبه جزيرة الملايو عام ١٥١١ ، و « جاوا » بعد هذا التاريخ بقليل ، والصين عام ١٥٧٦ ٠ وليس معنى هذا أنهم استولوا على هذه الأقطار ، وانما معناه أنهم استولوا على بعض أماكن قليلة فيها ٠ أما الدور الذى قاموا به فيما بعد فى الشرق فسـيكون موضوع رسالة قادمة ٠

ومن بين البرتغاليين الذين وفدوا الى الشرق رجل يدعى «فرديناند ماجيلان»، وقد حدث أن اختلف ماجيلان هذا مع أسياده البرتغاليين، ولهذا عندما عاد الى أوربا اكتسب الجنسية الاسبانية وصار اسبانيا٠ ولما كان قد رحل الى الهند والجزائر الشرقية بالطريق الشرقى مارا برأس الرجاء الصالح فانه أراد أن يذهب الى الهند والجزائر الشرقية مرة أخرى بالطريق الغربى مارا بأمريكا ، ومن المحتمل أنه عرف أن الأرض التى اكتشفها كولومبوس لا يمكن أن تكون آسيا ٠ وقد حدث فى الواقع أن اسبانيا اسمه « بلبوا » عبر عام ١٥١٣ جبـال بنما Panama فى أمريكا الوسطى ووصل الى المحيط الهـادى ، ولسبب غير معروف سمى « بلبوا » هذا المحيط البحر الجنوبى ، ثم وقف على شاطئه وأعلن أن البحر الجديد وكل الأرض التى يحيط بها ماؤه انما هى ملك لسيده ملك اسبانيا ٠

وفى عام ١٥١٩ بدأ ماجيـلان رحلته الغربيـة والتى تعتبر أكبر وأعظم هذه الرحلات جميعا ، وقـد تألفت قافلته من خمس سـفن

ومائتين وسبعين رجلا . وبهذه القافلة عبر المحيط الأطلسى الى أمريكا الجنوبية واستمر متجها جنوبا حتى وصل الى نهاية القارة ، ولم يفقد فى كل هذه الرحلة غير سفينتين ، احداهما غرقت والأخرى لاذت بالهرب والفرار . وبالسفن الثلاث الباقية عبر ماجيلان المضيق الضيق بين الطرف الجنوبى لقارة أمريكا الجنوبية وجزيرة أرض النار، وخرج الى البحر على الجانب الآخر . وقد سمى ماجيلان هذا البحر « المحيط الهادى » لأنه كان هادئا جدا بالقياس الى المحيط الأطلسى. أما المضيق فأطلق عليه اسمه، ويعرف الآن باسم «مضيق ماجيلان».

ثم استمر ماجيلان مبحرا بشجاعة صوب الشمال ثم الشمال الغربى عبر البحر المجهول ، وكان هذا أخطر جزء فى الرحلة التى لم يدر ولم يقدر أحد أنها ستستغرق كل الوقت الذى استغرقته ، وقد ظلوا وسط المحيط نحو أربعة أشهر ، أو على التحديد مائة يوم وثمانية أيام يعيشون على قليل من الزاد والماء .

وأخيرا وبعد حرمان شديد وصل ماجيلان ورفاقه الى جزائر الفيلبين ، وقد أحسن سكان هذه الجزائر لقاءهم وأمدوهم بالطعام وتبادلوا الهدايا معهم ، ولكن الاسبانيين كانوا مستفزين متغطرسين، وقد اشترك ماجيلان فى بعض حروب صغيرة نشبت بين زعيمين من زعماء هذه الجزائر وقتل فيها ، كذلك قتل سكان هذه الجزائر بعض الاسبانيين بسبب موقفهم المتغطرس المتعجرف .

وكان الاسبانيون يبحثون عن جزائر التوابل التى ترد منها التوابل النادرة الثمينة . وقد استمروا يبحثون عنها ، وأثناء ذلك عطبت احدى السفن الثلاث الباقية ولما يئسوا منها أحرقوها. عندئذ قرروا أن تعود احدى السفينتين الباقيتين الى اسبانيا عن طريق المحيط الهادى ، وأن تعود الأخرى عن طريق رأس الرجاء الصالح .

ولكن لم تكد السفينة الأولى تبحر قليلا عائدة الى اسبانيا حتى أسرها البرتغاليون • أما السفينة الثانية واسمها « فيتوريا » فمضت فى سبيلها زاحفة حول افريقية حتى وصلت « اشبيلية » فى اسبانيا وعليها ثمانية عشر رجلا فقط عام ١٥٢٢ ، أى بعد ثلاث سنوات من ابحارها • لقد طافت حول العالم ، وكانت أول سفينة فعلت ذلك •

أشعر بأنى كتبت فى شىء من الاسهاب عن رحلة السفينة «فيتوريا» لأنها كانت فى الواقع رحلة عجيبة • ونحن الآن نعبر البحار على سفن كبيرة مزودة بكل وسائل الراحة ، ولكن فكرى فى أولئك الرحالة الأوائل الذين واجهوا كل أنواع المخاطر والأهوال ، والذين ألقوا بأنفسهم فى المجهول ، ثم اكتشفوا الطرق البحرية لمن جاء بعدهم • ان الاسبانيين والبرتغاليين فى تلك العصور كانوا متكبرين ومتعجرفين ومتوحشين ، ولكنهم كانوا ممتلئين بروح المخاطرة وكانت شجاعتهم تستدعى العجب والاعجاب •

وبينما يطوف ماجيلان حول العالم كان كورتيز Cortés يدخل مدينة المكسيك ويغزو الامبراطورية الأزتكية باسم ملك اسبانيا • لقد حدثتك قليلا من قبل عن هذه الامبراطورية وعن الحضارة المايوية التى ظهرت فى أمريكا • وقد وصل كورتيز المكسيك عام ١٥١٩ ، ووصل « بيزارو » Pizarro امبراطورية الانكا حيث بيرو Peru الآن فى أمريكا الجنوبية عام ١٥٣٠ • وقد نجح كورتيز وبيزارو فى القضاء على هاتين الامبراطوريتين القديمتين بالشجاعة والجراءة والغدر والوحشية واستغلال الخلافات الداخلية التى كانت بين أبنائهما ، ولكن كلتا الامبراطوريتين كانت متخلفة عن عصرها ، وكانت من بعض النواحى بدائية جدا ، وهكذا انهارتا كما ينهار بيت من الورق المقوى عند أول دفعة •

والى حيث ذهب الرواد والمستكشفون الكبار خرجت جيوش من المجازفين المخاطرين طمعا فى السلب والنهب والغنائم · وقد قاست أمريكا الاسبانية خاصة من هؤلاء ، حتى كولومبوس عومل منهم أسوأ معاملة، وفى الوقت نفسه تدفق سيل الذهب والفضة بلا انقطاع على اسبانيا من بيرو والمكسيك ، فالكميات الهائلة التى كانت تصل الى اسبانيا من هذين المعدنين النفيسين أذهلت أوربا وخطفت ببريقها ولألائها أبصار أهلها وجعلت اسبانيا دولة أوربا السائدة ·

وقد انتشر هذا الذهب وهذه الفضة فى أقطار أوربية أخرى، ولهذا كان هناك وفرة من المال تستخدم فى شراء منتجات الشرق ·

وكان طبيعيا أن يلهب نجاح اسبانيا والبرتغال أخيلة الشعوب فى أقطار أخرى ، ولاسيما فى فرنسا وانجلترا وهولندة والمدن الالمانية الشمالية · لقد أجهدوا أنفسهم أول الأمر فى أن يجدوا طريقا لآسيا وأمريكا بواسطة طريق شمالى شمال النرويج يؤدى الى الشرق ، وعن طريق الأرض الخضراء « جرينلاند » الى الغرب ، ولكنهم فشلوا فى هذا · فلم يكن أمامهم الا أن يتخذوا الى الشرق والغرب الطرق التى صارت معروفة مألوفة ·

فما أعجب هذا العصر الذى بدت فيه الدنيا وكأنما تكشف عن نفسها وتظهر كل كنوزها وعجائبها ! ففيه بدأت الاكتشافات الجديدة تتوالى واحدا بعد الآخر من محيطات وقارات ، وفيه الغنى الذى لا يعد ولا يحصى ينتظر كلمة السر السحرية : « افتح يا سمسم » ! ولا بد أن الهواء نفسه كان يشيع فيه سحر تلك المخاطرات ·

ان الدنيا فى عصرنا الحاضر مكان ضيق ، ولا يكاد يكون هناك أجزاء منها لم تكتشف بعد · هكذا يبدو الامر · ولكن ذلك ليس كذلك ، لان العلم قد فتح آفاقا وعوالم كبيرة تنتظر من يرودها ويكشفها · أما روح المخاطرة فلا تنقص الدنيا اليوم ، ولاسيما الهند!

٨٧ — انجلترة تقطع رأس ملكها



٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٢

سنشغل الآن بعض وقتنا بالحديث عن تاريخ انجلترة . ولم يكن تغاضينا عن ذلك من قبل الا لأنه لم يكن فى انجلترة خلال العصور الوسطى شىء هام يستحق الذكر ، فقد كانت أكثر تخلفا من فرنسا وايطاليا .

على أية حال ان جامعة أكسفورد كانت قد أصبحت أحد مراكز العلم الشهيرة ، ثم تلتها بعد قليل فى الشهرة والمكانة العلمية جامعة كمبردج . والفضل يرجع الى جامعة أكسفورد فى اخراج «وايكليف» Wycliffe الذى كتبت لك عنه من قبل .

والاهتمام الرئيسى فى تاريخ الانجليز القديم يتمركز حول تطور البرلمان والحياة البرلمانية ، فمنذ العصور الأولى والنبلاء الانجليز يبذلون الجهد فى الحد من قوة الملك وسلطته . وفى هذا السبيل ظهر « الماجنا كارتا » عام ١٢١٥ ، وفيما بعد ذلك بقليل أخذت بوادر البرلمان تلوح فى الأفق ، ولو أنها كانت بوادر فجة .

لقد تمثل أول طور لبرلمانها فى مجلس لوردات مكون من النبلاء والأساقفة الكبار ، ثم تلا ذلك طور أكثر أهمية تمثل فى مجلس

منتخب من الفرسان وملاك الأراضى الصغار وبعض الممثلين للمدن • وفيما بعد تطور هذا المجلس المنتخب الى ما يعرف الآن بمجلس العموم ، وقد مثل كلا هذين المجلسين ملاك الأراضى والأغنياء والتجار •

وكان لمجلس العموم سلطة قليلة ، وقد تقدم أعضاؤه بالتماسات الى الملك ضمنوها مطالبهم وشكاياتهم ، وشيئا فشيئا بدءوا يتدخلون فى الضرائب • وكان من الصعب أن تفرض أو تجبى ضرائب جديدة دون موافقتهم ، ولهذا استن الملك تقليدا جديدا هو الحصول على موافقتهم فى كل ما يتصل بالضرائب •

ان قوة المال قوة عظيمة دائما ، ولهذا ازداد البرلمان ، ولا سيما مجلس العموم ، قوة وهيبة بمقدار ما اكتسبه من حق مراقبة الشئون المالية والتصديق عليها •

وكثيرا ما كان هناك خلاف بين الملك ومجلس العُموم، ولكن البرلمان ظل أداة ضعيفة ، بيد أن حكام العهد التيودورى ، كما أخبرتك ، كانوا ملوكا لا معقب على حكمهم تقريبا ، وقد استطاعوا بذكائهم ومهارتهم أن يتفادوا الدخول مع البرلمان فى صراع سافر •

لقد نجت انجلترة من شتى أنواع الصراع الدينى المؤلم التى كانت منتشرة فى أوربا • نعم حدث فيها كثير من الاضطراب والصراع والتعصب الدينى ، وحدث أن حكم فيها بالموت حرقا على عدد هائل من النساء لاعتبارهن ساحرات، ولكن انجلترة كانت تعتبر علىالرغم من ذلك مكانا هادئا اذا قورنت بأوربا •

وكان مفروضا أنتنقلب انجلترة فىعهد هنرىالثامن بروتستانتية، ولكن كان فيها بطبيعة الحال كثيرون من الكاثوليك وكثيرون من

البروتستانت المتعصبين أيضا ٠ على أية حال كانت الكنيسة الانجليزية الجديدة شيئا وسطا بين المذهبين ، كانت تسمى نفسها بروتستانتية، ولكن ربما كانت كاثوليكية أكثر منها بروتستانتية ، وفى الحقيقة كانت ادارة حكومية على رأسها الملك ٠ وقد انفصلت انفصالا تاما عن كنيسة رومة ، وقامت فيها ثورات كثيرة ضد البابا ٠

وقد استهوى اكتشاف طرق الملاحة الجديدة للشرق وأمريكا كثيرين من الانجليز فى عهد الملكة اليصابات ابنة هنرى الثامن ، كما افتتح هذا الاكتشاف أمامهم فرصا جديدة ، ومن شدة افتتان انجلترة بنجاح البحارة الاسبان والبرتغال ، ولطمعها فى الثراء الذى يمكن الحصول عليه نراها تخرج الى البحار للملاحة فيها ٠

وفى أول الأمر نرى السير فرانسيس دريك وآخرين مثله ينقلبون قراصنة فى البحار ، حيث ينهبون السفن الاسبانية القادمة من أمريكا ، وبعد ذلك نرى دريك يقوم برحلة جبارة حول العالم ، ثم نرى السير وولتر رولى Raleigh يعبر المحيط الأطلسى ويحاول أن يقيم مستعمرات على الشاطىء الشرقى لما يعرف الآن بالولايات المتحدة ٠ وكان هذا الجزء يسمى فرجينيا كذكرى لأليصابات الملكة العذراء ٠ وكان رولى أول من نقل عادة تدخين التبغ من أمريكا الى أوربا ٠

ثم ظهر الأسطول الاسبانى المعروف بالأرمادا ، ولكن الفشل التام الذى منى به هذا الأسطول شجع انجلترة الى درجة كبيرة ٠

ولم يكن لكل هذا كبير أثر فى الصراع الذى كان قائما على قدم وساق بين الملك والبرلمان ، اللهم الا أنه أبقى عقول الناس مشغولة ، ولاسيما بالشئون الخارجية ٠ ولكن حتى فى العصور التيودورية كانت الاضطرابات والقلاقل تختمر تحت السطح الظاهرى ٠

ويتميز عهد اليصابات بأنه أحد العهود المشرقة فى انجلترة ، فاليصابات كانت ملكة عظيمة ، وفى عهدها ظهر كثيرون من عظماء الرجال · وأعظم من الملكة وفرسانها المخاطرين ، كان الشعراء وكتاب المسرحيات الذين ظهروا كالابراج الشوامخ فى هذا الجيل وعلى رأسهم وليام شكسبير الخالد ، فمسرحياته معروفة طبعا للعالم حتى اليوم ، وان كنا نعرف القليل عنه شخصيا · لقد كان أحد الشموس المتألقة التى أثرت اللغة الانجليزية وأغنتها بالدرر الغوالى التى ملأتنا بالانشراح والبهجة والفرح · حتى قصائده الغنائية الصغيرة عن عصر اليصابات لها جمال خاص لا يوجد فى أشعار غيره من الشعراء · ففى أبسط وأعذب لغة تخطو مقطوعاته الغنائية فى خطى خفيفة سريعة مرحة تحدثنا عن أحداث كل يوم بطريقتها الخاصة ·

وقد حدثنا ليتون استريتشى الناقد الانجليزى عن « هذا الرعيل الفائق من الأليزابيثيين الذين استطاعت روحهم الفتية العظيمة أن تنفح انجلترة فى مدى جيل واحد معجز بأروع ما عرف العالم من تراث المسرحية » ·

لقد توفيت اليصابات عام ١٦٠٣ أى قبل وفاة « أكبر » العظيم فى الهند بسنتين · ثم تبوأ العرش بعدها ملك اسكتلندة فى ذاك الوقت لأنه هو الذى كان يليها فرضا فى أحقيته بالملك ، وقد عرف هذا الملك باسم جيمس الأول : وبذلك أصبحت انجلترة واسكتلندة مملكة واحدة · وهكذا تحقق بالسلام ما لم تستطع انجلترة أن تحققه بالحرب والقوة ·

وكان جيمس الأول يؤمن بحق الملوك الالهى ويكره البرلمان · ولم يكن فى ذكاء اليصابات ومهارتها ، ولهذا فسرعان ما نشأ الخلاف بينه وبين البرلمان · وفى عهده حدث ان كثيرين من البروتستانت المتشددين رحلوا عن انجلترة وطنهم نهائيا ، وأبحروا عام ١٦٢٠

على سفينة تدعى « زهرة مايو » ليستقروا فى أمريكا ، فهؤلاء كانوا قد اعترضوا على طريقة جيمس الأول الاستبدادية ، كما كرهـوا كنيسة انجلترا الجديدة ولم يعتبروها بروتستانتية الى درجة كافية ، ومن ثم هجروا بيوتهم ووطنهم وأبحروا الى الأرض الجديدة البرية عبر المحيط الأطلسى ٠

وقد نزل هؤلاء على الشواطىء الشمالية فى مكان أسموه « بليموث الجديدة » ثم تبعهم عدد أكثر من المستعمرين ، وشيئا فشيئا زاد عدد المستعمرات حتى بلغ ثلاث عشرة مستعمرة على امتـــداد الشـــاطىء الشرقى ٠ وهذه المستعمرات نمت وتطورت الى ما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية ، مجتازة فى سبيل تحقيق ذلك طريقا طويلا ٠

وفى عام ١٦٥٢ اعتلى العرش شارل الأول بعد أبيه جيمس الاول، وسرعان ما وصلت الأحوال بعد ذلك الى حد تطلب عملا حاســما ٠ ولهذا رفع اليه البرلـــان عام ١٦٢٨ « عريضة الحق » التى هى أشهر وثيقة فى التاريخ الانجليزى٠٠ فى هذه العريضة أخبر الملك أنه ليس ملكا مطلقا ، وأن هناك أشياء كثيرة لا يستطيع أن يفعلها وليست من حقه ٠ فهو لا يستطيع وليس من حقه أن يفرض ضريبة ، أو أن يسجن الناس بلا ســـند قانونى ٠ كما حرموا عليــه أن يرتكب فى القرن السابع عشر ما كان يرتكبه حاكم الهند الانجليزى فى القرن العشرين من اصدار قوانين يسجن الناس بمقتضاها ٠

وقد ضايق شارل أن يحدد له ما يستطيع ومالايستطيع أن يفعله، ولهذا حل البرلمان وحكم بدونه ٠ وعقب ذلك ببضع سنوات كان فى حاجة قصوى الى المـــال ، ولمـــا لم يجد مخرجا لمـــا هو فيــه من عسر مالى اضطر الى استدعاء برلمـــان آخر ٠

ولم يمر حل البرلمـــان مرورا عابرا سهلا ، فالواقع أن ما كان يفعله شارل بدون البرلمان وفى غيبته قد أحدث استياء وغضبا شديدين ، ومن ثم كان البرلمـــان الجديد متلهفا ومتأهبا للدخول فى قتال معه ٠

وفى خلال عامين ، وعلى التحديد فى عام١٦٤٢ ، اندلعت نار الحرب الأهلية بين الملك من جانب يؤيده كثيرون من النبلاء ، وجزء كبير من الجيش ، والبرلمان من جانب آخر يؤيده التجار الأغنياء ومدينة لندن٠

وقـــد اســـتمرت هذه الحرب بضع ســـنوات حتى ظهر فى الجانب البرلمـــانى قائد عظيم يســـــمى « أوليفر كرومويل » ٠ كان كرومويل منظما بارعا، وأستاذا صارما فى ضبط النظام، ورجلا مفعما بالحماسة الدينية من أجل القضية التي كان يحارب من أجلها ٠

وقد قال كارليل عن كرومويل : «وفى مخاطر الحرب السوداء، وفى مواقع الميدان الكبرى ، كان الأمل يشتعل فى صدره كأنه عمود من نار فى الوقت الذى يخبو فيه الأمل من صدور الآخرين » ٠

وقد بنى كرومويل جيشا أسماه «الجيش الحديدى» وبث فى نفوس جنوده من حماسته وصرامته فى النظام ٠ وقد واجه غلاة المتدينين فى جيش البرلمان فرسان شارل ، وأخيرا انتصر كرومويل وأصبح الملك شارل سجين البرلمان ٠

وأراد كثيرون من أعضاء البرلمـــان أن يصلوا مع الملك الى حل وسط، ولكن جيش كرومويل الجديد لم يصغ الى هذا ، وتقدم ضابط من هذا الجيش اسمه «برايد» بشجاعة الى داخل البرلمان وطرد كل الأعضاء الذين نادوا بالحل الوسط ، وقد عرفت عملية التطهير هـــذه بعمليـــة تطهير «برايد» ٠ لقد كانت علاجا عنيفا ولم تكن مشرفة جدا للبرلمان٠

فاذا كان البرلمان قد اعترض على استبداد الملك ، فها هى قوة أخرى ، ممثلة فى جيشهم هم ، لم تكترث أى اكتراث بمراوغاتهم القانونية • وهذا هو طريق الثورات •

وقد دعت البقية الباقية من أعضاء مجلس العموم البرلمان المحتقر وقرروا محاكمة شارل على الرغم من اعتراض مجلس اللوردات ، وحكموا عليه بالاعدام على أنه طاغية وخائن وسفاك للدماء وعدو لوطنه • وفى عام ١٦٤٩ وفى «هوايت هول» بمدينة لندن قطع الانجليز رأس هذا الرجل الذى كان ملكهم ، والذى تكلم عن حقه الالهى فى أن يحكم •

فالملوك يموتون كما يموت سائر الناس • وكثيرون منهم فى التاريخ قد ماتوا حقا ميتات شنيعة منكرة • فالاستبداد والملكية يولدان الاغتيال والقتل ، وقد صادف الملوك الانجليز فى الماضى اغتيالات كثيرة • ولكن الشىء الطريف العجيب هو أن نرى مجلسا نيابيا منتخبا ينصب من نفسه محكمة ويحاكم ملكا ويحكم عليه بالاعدام ويقطع رأسه ! والغريب فى الأمر هو أن الشعب الانجليزى الذى كان دائما محافظا كل المحافظة، ونافرا من التغيرات والتطورات السريعة يضرب مثلا فى كيف يعامل ملك طاغ خائن • ولكن هذا لم يكن عمل الشعب الانجليزى فى مجموعه بمقدار ما هو عمل جيش كرومويل •

وقد هز هذا الحادث هزا عنيفا كل ملوك أوربا وقياصرتها وأمرائها وحكامها • فماذا يمكن أن يحدث لهم اذا أصبح عامة الشعب عتاة وقحين وحذوا حذو انجلترة ؟ كثيرون من هؤلاء الملوك والقياصرة كان يمكنهم أن يهاجموا انجلترة ويحطموها ، ولكن مصير انجلترا وقتئذ لم يكن فى يد ملك ضعيف عاجز •

فانجلترة بعد قتل الملك شارل الأول أصبحت لأول مرة جمهورية، وكان هناك كرومويل وجيشه ليدافعوا عنها ويحموها ، وكان كرومويل ديكتاتورا تقريبا ، وسمى « السيد الحامى » •

وفى عهــد حكمه الصارم النــافذ ازدادت قوة انجلترا ، وطردت أساطيلها بعيدا الاساطيل الهولندية والفرنسية والاسبانية ، ولأول مرة أصبحت انجلترة القوة البحرية الرئيسية فى أوربا ٠

ولكن الجمهورية الانجليزية لم تعمر أطول من أحد عشر عاما بعــد وفاة شارل الأول ٠ وقد مات كروموبل عام ١٦٥٨ ، وبعــد وفاته بعامين سقطت الجمهورية ٠

ثم نرى ابن شارل الأول الذى كان قد التجــأ الى بعض الأقطار الاجنبية يعود الى انجلترة ويرحب به ويتوج ملكا ، ويسمى شارل الثانى ٠ ولكن شارل الثانى هذا كان شخصا وضيعا سيىء السمعة، وكانت فكرته عن الملك لا تعدو أن يعيش فى رغد وترف متمتعا بكل ملذات الحياة ٠ ولكنه عرف بذكائه ومهارته أن من الخير له ألا يقف فى وجه البرلمــان أو يعارضه كثيرا ٠ وكان فى الحقيقة يتلقى اعانات سرية من ملك فرنسا ٠ وقد فقدت انجلترة المكانة التى تبوأتها فى أوربا فى عهد كروموبل ، وأتى الهولنديون الى انجلترة وأحرقوا الأسطول الانجليزى فى نهر التاميز ٠

وولى العرش بعد شارل أخوه جيمس الثانى ، وسرعان ما نشــأ الخلاف والصراع بينه وبين البرلمــان ٠ فجيمس كان كاثوليكيا ورعا ، وأراد أن يؤسس سلطة البابا ونفوذه ثانية فى انجلترة ٠

ولكن مهما كانت أفكار الانجليز عن الدين ، وهــذه كانت أفكارا غامضة ، فان غالبيتهم كانوا ضد البابا وضد كل ما هو بابوى بشكل حاد عنيف٠ولم يستطع جيمس الثانى أن يفعل شيئا ضد هذا الشعور السائد بين الشعب ، ولمــا كان قد أثار سخط البرلمــان وغضبه ، فانه اضطر أن يهرب الى فرنسا ويتخذ لنفسه ملجأ فيها ٠

وهكذا انتصر البرلـــان ثانية على الملك ، ولكن انتصـــاره فى هذه المرة كان سلميا وبدون حرب أهلية • وبفرار جيمس الثانى أصبحت انجلترة بلا ملك ، ولكنها ما كانت لتعود الى الجمهورية مرة أخرى •

فالانجليزى ، كما يقال ، يحب أن يكون له سيد ، وأكثر من ذلك يحب مواكب الملكية ومهرجاناتها وعظمتها وأبهتهـــا • ولهـــذا بحث البرلمان عن ملك جديد ، وأخيرا وجده فى « بيت أورانج » الذى قبل هـــذا التاريخ بمائة ســـنة هيـــأ لوليم الصـــامت أن يقود كفاح دول اسكندنافيا الكبير ضد اسبانيا •

ففى الوقت الذى فر فيـــه جيمس كان هنـــاك فى بيت أورانج وليم آخر ، وكان أميرا وكان متزوجا من سيدة من الاسرة الملكية اسمها مارى • وهكذا نصب وليم ومارى ملكا وملكة عام ١٦٨٨ ليحكما معا •

وأصبح البرلـــان سيد الموقف ، وأدت الثورة الانجليزية دورها كاملا ، بعد أن أعطت الشعب السلطة ممثلة فى البرلـــان • ومنذ ذلك التاريخ صار غير ممكن لأى ملك انجليزى أو ملكة انجليزية أن يجرؤ أو تجرؤ على تحدى سلطة البرلـــان • ولكن هناك بالطبع طرق كثيرة للمؤامرات والتأثير بدون معارضة أو تحد سافر ، وقد سلك بعض ملوك انجلترة هذه الطرق •

أصبح البرلمـــان سيد الموقف ومصدر السلطة ، ولكن ماذا كان هذا البرلمان ؟ لا تظنى أنه كان يمثل شعب انجلترة ، وانما كان يمثل فى الواقع جزءا صغيرا منه • فمجلس اللوردات ، كما يدل اسمه ، مثل اللوردات ، أو ملاك الأراضى الكبار والأساقفة • وحتى مجلس العموم كان مجلسا من الاغنياء ما بين ملاك أراض وتجار كبار • وقليل من أفراد الشعب هم الذين كان لهم حق الانتخاب • وكان فى انجلترة الى عهد قريب

لا يزيد على مائة سنة ما يسمى « دوائر الجيب » أى الدوائر الانتخابية التى كانت تقريبا فى جيوب بعض الناس • وربما تكونت كل الدائرة من ناخب أو ناخبين ينتخبان عضوا للبرلمـان ! ويقال ان مائة وستين شخصا فى عام ١٧٩٣ انتخبوا ثلثمائة وستة أعضاء لمجلس العموم ! ويقال ان دسكرة من الدساكر اسمها « صاروم القديمة » مثلها عضوان فى البرلمـان •

وهكذا ترين أن أغلبية الشعب العظمى لم يكن لها حق الانتخاب ، ولم تكن ممثلة فى البرلمـان • ومجلس العموم كان بعيدا جدا عن كونه مجلسا يمثل العامة ، أو حتى الطبقات الوسـطى الجـديدة التى بدأت تظهر فى المدن • انما كان يمثل طبقة ملاك الأراضى وبعض التجار الأغنياء فقط •

وكانت مقاعد البرلمـان تباع وتشترى،وكان هناك كثير من الرشوة• وقد حدث ذلك حتى ١٨٣٢ ، أى منذ مائة [1] سنة عنـدما مرت فى البرلمـان لائحة الاصلاح بعد هياج شديد ، والتى أصـبح لـكثير من الناس بمقتضاها حق الانتخاب •

من ذلك نرى أن انتصار البرلمـان على الملك كان معناه انتصار قلة من الأغنياء • وهذه القلة المؤلفة من ملاك الأراضى وبعض التجار هى التى كانت فى الواقع تحكم انجلترة • أما كل الطبقات الأخرى التى كانت تمثل غالبية الشعب العظمى فلم يكن لها مشاركة فى الحكم أو رأى فيه • ولعلك تذكرين أن الجمهورية الهولندية التى وجـدت بعد الكفاح الكبير مع اسبانيا كانت أيضا جمهورية الرجل الغنى •

---

(١) كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٢ •

وبعد الملك وليم والملكة مارى نصبت « آن » شقيقة مارى ملكة على انجلترة • وعند وفاتها عام ١٧١٤ وجد بعض صعوبة فيمن يلى الملك بعدها • ولكن البرلمان اختار فى النهاية لعرش انجلترة المانيا من بيت « هانوفر » وأسماه جورج الأول ملك انجلترة • ومن المحتمل أن البرلمان اختاره لأنه كان بعيدا عن الذكاء والمهارة والفهم • ولم يستطع جورج الأول أن يتكلم الانجليزية ، لأن ملك الانجليز كان يجهل اللغة الانجليزية • وحتى ابنه الذى أصبح ، جورج الثانى ، قلما عرف الانجليزية •

وبهذه الطريقة تأسس فى انجلترة بيت هانوفر ، أو الدولة الهانوفرية التى لاتزال مزدهرة هناك • وقلما يمكن القول بأنها تحكم لأن السلطة والحكم فى يدى البرلمان •

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر، نشب كثير من النزاع والاضطراب بين ارلندة وانجلترة• وكانت هناك محاولات لغزو ارلندة وفتحها ، كما حدثت ثورات وفتن ومذابح فى عهد كل من اليصابات وجيمس الأول •

فجيمس صادر كثيرا من الأراضى المملوكة فى « ألستر » فى شمال ارلندة • واستقدم بروتستانتيين من اسكتلندة ليستقروا فى تلك المناطق • ومنذ هذا التاريخ بقى أولئك المستعمرون البروتستانت هناك ، وانقسمت ارلندة من حيث السكان والدين قسمين : ارلنديين أصليين ، وهؤلاء كانوا من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ومستعمرين اسكتلنديين ، وهؤلاء من أتباع المذهب البروتستانتى• وكان هناك حقد شديد بين الاثنين ، وقد أفاد الانجليز بطبيعة الحال من هذا الانقسام، لأن حكامهم يؤمنون بالسياسة القائلة «فرق تسد»• ولا تزال أكبر مشكلة حتى الآن فى ارلندة هى مشكلة « ألستر » •

وفى أثناء الحرب الأهلية فى انجلترة ذبح بعض الانجليز فى ارلندة • ولكن كروموبل انتقم لهذه المذبحة انتقاما وحشيا بذبح الارلنديين ، ولا يزال الارلنديون حتى اليوم يذكرون هذا الحادث بألم ومرارة •

ثم حدث بين أنجلترة وارلندة حروب أخرى، ثم اتفاقيات ومعاهدات، ولكن الانجليز نقضوا كل هذه • وانه لتاريخ طويل مؤلم ، تاريخ عذاب ارلندة •

وقد يهمك أن تعرفى أن « جوناثان سويفت » مؤلف « رحلات جليفر» عاش فى هذا العصر من١٦٦٧ـ١٧٤٥م•وهذا الكتاب من كتب الأطفال الكلاسيكية، ولكنه فى حقيقته هجاء مؤلم لانجلترة فى عصره• وكان دانيال ديفو مؤلف كتاب روبنسن كروزو معاصرا للكاتب سويفت •

١١٢ ــ كيف حكمت انجلترة الهند ؟



٥ ديسمبر ١٩٣٢

كتبت اليك من قبـل ثلاث رسائل مطولة عن الهنـد فى القرن التاسع عشر . وقصة الهند قصة طويلة تتضمن كفاحا مروعا متصلا فاذا اقتضبتها أكثر مما ينبغى فأخشى ما أخشاه أنى أجعلها صعبة يستعصى فهمها .

ومن المحتمل أنى أولى هذا العصر من قصة الهند اهتماما أكثر مما أوليه لأقطار أو عصور أخرى . وليس هذا أمرا غير طبيعى ، فلكونى هنديا فان اهتمامى بالهند أكثر من اهتمام غيرى بها، ولكونى أعرف عن الهند أكثر مما يعرف غيرى فانى أستطيع أن أكتب عنهـا كتابة وافية أكثر مما يكتب الآخرون . وبجانب ذلك فان أحداث هـذه الفترة تعنى بالنسبة لنا شيئا أكثر كثيرا من مجرد اهتمام أو عرض تاريخى .

فالهند الحديثة كما نجدها اليوم قـد تكونت وتشكلت فى مطلع القرن التاسع عشر . فاذا شئنا أن نفهم الهند على حقيقتها فعلينا أن نعرف شيئا عن القوى التى تضافرت على خلقها أو الاضرار بها ، فعن طريق هذا وحده نستطيع أن نخدمها بعقل وذكاء ، وأن نعرف مايلزم أن نفعله ، وأى طريق يجب أن نسلك .

وأنا لم أنته بعد من الحديث عن هذه الفترة من تاريخ الهنـد ، فلا يزال لدى الكثير عنها مما أود أن أحـدثك به • وأنا فى هـذه الرسائل أجعل موضوع الحديث نقطة أو أكثر ، ثم أعالج كل نقطة على انفراد لتكون أيسر فهما •

ولكنك تعرفين بطبيعة الحال أن كل التغـيرات وضروب النشاط التى حدثتك عنها ، وكل التغيرات وضروب النشاط التى سأصفها لك فى هذه الرسالة وما يليها من رسائل قد حدثت فى وقت واحد تقريبا ، وأثر أحدها فى الآخر ، وأنتجت فيما بينها هنـد القرن التاسع عشر •

وقراءتك عن حسنات الانجليز وسيئاتهم فى الهند تشعرك أحيانا بالغضب من السياسة التى اتبعوها ، ومن البؤس الذى انتشر نتيجة لهذه السياسة •

ولكن على من تقع تبعة ما حدث ؟ أليس الخطأ فيما حدث ناشئا عن ضعفنا وجهلنا نحن ؟ فالضعف والجهل دعوة الى الطغيان واغراء به • واذا كان الانجليز يفيـدون من وراء انقساماتنا وخلافاتنـا ، فالخطأ خطؤنا فى أننا ننقسم على أنفسنا ونختلف فيما بيننا •

واذا كانوا يقسموننا ليضعفونا ، واذا كانوا يحققون مأربهم فى ذلك باللعب على أوتار الأنانية الفاشية بين أحزابنا وطوائفنا المتنافرة، فلا شك أن سماحنا بذلك هو فى ذاته علامة على تفوق الانجليز • فاذا شئت أن تغضبى فاغضبى من الضعف والجهل والصراع المتبادل بين أحزابنا وطوائفنا ، لأن هذه الأشياء هى المسئولة عن مشاكلنا ومآسينا •

ونحن نقول انه ظلم الانجليز واستبدادهم • فظلم من ؟ واستبداد

من في الواقع ؟ ومن يفيد منه ؟ لا يفيد منه كل الانجليز ، لأن ملايين منهم هم أنفسهم أشقياء مغلوبون على أمرهم . ومما لا شك فيه ان فى الهند طبقات وجماعات صغيرة قد أفادت قليلا من الاستغلال الانجليزى للهند . فأين نرسم الحد الفاصل اذن ؟

وليس الموضوع موضوع أفراد ولكنه موضوع نظام . فنحن نعيش تحت آلة ضخمة استغلت الملايين من أبناء الهند وحطمتهم . وهذه الآلة هى آلة الاستعمار الجديد الذى هو نتيجة الرأسمالية الصناعية . فمكاسب هذا الاستغلال وأرباحه تذهب كلها تقريبا الى طبقات معينة . وبعض مكاسب وأرباح هذا الاستغلال تبقى فى الهند ولكنها تئول الى طبقات معينة أيضا .

ولهذا يكون من الجهل أن نغضب من الأفراد أو من الانجليز عامة . فاذا كان النظام جائرا وضارا بنا فان المصلحة تقضى بتغييره ، ولا يهم مطلقا من يديره ويشرف عليه ، فالنظام الفاسد يعجز فيه حتى خير الناس وأكفؤهم . ولا تستطيعين ، حتى لو رزقت أقوى ارادة فى الدنيا ، أن تحولى الحجارة والأرض الى طعام حسن مهما أجدت طبخها . وكذلك الحال ، على ما أعتقد ، مع الاستعمار والرأسمالية . فليس من المستطاع تحسينهما أو اصلاحهما ، والتحسين أو الاصلاح الحقيقى بالنسبة لهما هو فى القضاء عليهما معا قضاء مبرما .

هذا هو رأيى ، وان كان البعض يخالفنى فيه . ولست فى حاجة الى أن تأخذى أى شيء على أنه حقيقة واقعة . وتستطيعين ، عند ما يحين الوقت ، أن تدرسى الأشياء وتكونى رأيك الشخصى عنها . ولكن معظم الناس متفقون على شيء واحد ، وذلك الشيء هو أن الخطأ فى النظام ، وأنه لا فائدة ولا نفع من التضايق والغضب من الأفراد . فاذا أردنا تغييرا فدعينا نهجم على النظام ونغيره .

لقد رأينا بعض آثار النظام الضارة فى الهند ٠ واذا درسنا أحوال الصين ومصر وأقطار أخرى كثيرة فاننا نرى نفس النظام ونفس آلة الاستعمار الرأسمالى تعمل فى استغلال أبناء هذه الشعوب ٠

وبعد فنعود الى قصتنا ٠ لقد أخبرتك عن المرحلة المتقدمة فى صناعات النسيج الهندية عند ما أتى البريطانيون الى الهند ٠ فمع التقدم الطبيعى فى طرق الانتاج وبدون أى تدخل من الخارج ، كان من المحتمل أن تدخل آلات الصناعة الحديثة الهند ، فالحديد والفحم يوجدان فى بلادنا ، وهذان ، كما رأينا فى انجلترة ، ساعدا كثيرا فى حركة التصنيع بها ، ومهدا لها الى حد ما ٠ وهذا كان يمكن أن يحدث فى النهاية أيضا فى الهند ، وان كان حدوثه ربما تأخر قليلا نظرا للأحوال السياسية المضطربة ٠

على أية حال لقد تدخل البريطانيون فى الأمر ، وكانوا يمثلون قطرا ومجتمعا انتقلا فى الصناعة باستخدام الآلات الحديثه الكبيرة فى الانتاج الصناعى ٠

وربما يظن الانسان ، لهذا ، أنهم يرحبون بحدوث تغيير كهذا فى الهند أيضا ، ويشجعون طبقة رجال الصناعة فى الهند ممن كان يحتمل منهم جدا أن يمهدوا لهذا التطور ٠ ولكنهم لم يفعلوا شيئا من هذا القبيل ، وانما فعلوا عكس ذلك تماما ٠ فقد نظروا الى الهند نظرة منافس لهم فى المستقبل ولهذا قضوا على صناعاتها ، ولم يشجعوا نمو صناعات الآلات الحديثة الكبيرة ٠

وهكذا نجد أحوالا عجيبة فى الهند ٠ فنحن نجد البريطانيين الذين هم أكثر شعوب أوربا تقدما فى ذاك الوقت يتخذون لأنفسهم حلفاء فى الهند من بين أكثر الطبقات الهندية تخلفا ومحافظة ٠

فنراهم يساندون طبقة اقطاعية محتضرة ، ويخلقون طبقة من ملاك الأراضى ، ويؤيدون مئات الحكام الهنود غير المستقلين فى دولهم نصف الاقطاعية • وفى الحقيقة نراهم يقوون النظام الاقطاعى فى الهند •

ومع هذا فهؤلاء البريطانيون كانوا فى أوربا رواد ثورة الطبقة الوسطى أو الطبقة البورجوازية التى أعطت برلمانهم السلطة والقوة ، كذلك كانوا رواد الثورة الصناعية التى استحدثت فى العالم الرأسمالية الصناعية • فبسبب قيادتهم وأسبقيتهم فى هذه الأمور تقدموا كثيرا على منافسيهم ومزاحميهم وأسسوا امبراطورية مترامية الأطراف •

وليس صعبا أن يفهم المرء لماذا تصرف البريطانيون على هذا النحو فى الهند ، فأساس الرأسمالية كله هو المنافسة. والاستغلال ، والاستعمار مرحلة متقدمة من هذا • فالبريطانيون ومعهم القوة قتلوا منافسيهم الحقيقيين ، ومنعوا متعمدين ظهور منافسين آخرين •

ولم يكن من الممكن لهم أن يصادقوا الجماهير ، لأن الهدف كل الهدف من وجودهم فى الهند هو استغلالهم لهؤلاء الجماهير ، ولاعجب فمصالح من يقع منهم الاستغلال ومصالح من يقع عليهم الاستغلال ليست واحدا ، ومن ثم وقع البريطانيون على من بقى من الاقطاعيين الذين كانوا لا يزالون فى الهند • وهؤلاء لم تكن لهم قوة حقيقية حتى حينما جاء البريطانيون الى الهند ، ولكن البريطانيين ساعدوهم وأعطوهم نصيبا ضئيلا فى استغلال البلاد ، وهذه المساعدة استطاعت أن تعطى فقط اسعافا مؤقتا لطبقة استنفدت زمن نفعها • وكانت هذه الطبقة تعتقد أن البريطانيين اذا تخلوا عنها ، فاما أن تنهار وتتهاوى ، واما أن توفق بين نفسها وبين الأحوال الجديدة •

وقد كان فى الهند نحو ٧٠٠ دولة ما بين صغيرة وكبيرة معتمدة كلها على حسن نوايا البريطانيين • وأنت تعرفين بعض هذه الدول مثل حيدر أباد ، وكشمير ، وميسور ، وبارودا ، وكولوير الخ • ولكن الغريب أن معظم حكام هذه الدول الهنود لم يتحدروا من طبقة الأشراف الاقطاعية القديمة ، وهم فى ذلك مثل معظم ملاك الأرض الكبار الذين لا ترجع تقاليدهم الى عهد بعيد جدا • وعلى أية حال هناك حاكم واحد يستطيع أن يرجع بنسبه الى ما قبل التاريخ ، وذلك هو « المهارانا » حاكم يوديبور وزعيم القبيلة التى تسمى نفسها قبيلة الشمس ، وربما كانت الشخصية الحية التى تضارعه وتنافسه من هذه الناحية هو ميكادو اليابان •

وقد ساعد الحكم البريطانى أيضا الطوائف الدينية المحافظة• وهذا يبدو غريبا ، فالبريطانيون يدعون اعتناق المسيحية ، ومع ذلك فمجيئهم جعل الهندوكية والاسلام فى الهند أشد صرامة وتصلبا • ورد الفعل هذا كان الى حد ما طبيعيا ، لأن الغزو الأجنبى من شأنه أن يدفع الأديان والثقافة فى البلد المغزو الى أن تحمى نفسها بالصرامة والتصلب • وقد حدث بنفس الأسلوب أن أصبحت الهندوكية أشد صلابة وأن قويت الطائفية العنصرية بعد الفتوح الاسلامية فى الهند• والآن نرى أن الهندوكية والاسلام كليهما يقفان هذا الموقف الصارم المتصلب ازاء الانجليز الدخلاء • ولكن اذا تغاضينا عن هذه النقطة فاننا نرى حقا أن الحكومة الانجليزية فى الهند قد ساعدت عمدا ولاشعوريا العناصر المحافظة من المسلمين والهندوس •

ولم يكن اهتمام الانجليز منصبا على الدين أو على تغيير معتقدات الهنود وأديانهم وانما كان اهتمامهم موجها الى تحقيق الغنى والثراء• لقد كانوا متهيبين من التدخل فى الشئون الدينية خشية أن يؤدى

تدخلهم الى غضب الشعب فيثور عليهم · ولكى يتفادوا حتى مظنة التدخل بالغوا فى حماية ومساعدة أديان الهند ، أو بمعنى أصح بالغوا فى حماية ومساعدة شعائر الأديان المظهرية · وكثيرا ماكانت النتيجة أن نرى الشكل الخارجى يبقى دونأن يكون بداخله أى شيء·

وهذا الخوف من اثارة المتشددين فى الدين جعل الحكومة تقف بجانبهم فى كل ما يمس شئون الاصلاح ، فكان فى ذلك تعويق للاصلاح · وقلما تستطيع حكومة أجنبية أن تحد ثاصلاحا اجتماعيا· لأن كل تغيير تحاول ادخاله لا يقابل من الشعب بالقبول والارتياح·

ومن نواح كثيرة كانت الهندوكية والقانون الهندوكى يتطوران ويتقدمان ، ولو أن تقدمهما فى العصور الحديثة قد أخذ فى البطء بشكل ملحوظ · والقانون الهندوكى فى جملته ينبثق من العادة ، والعادات تتغير وتتطور وتنمو · وهذه المرونة التى تميز بها القانون الهندوكى قد تلاشت تحت الحكم البريطانى وحل محلها تشريعات قانونية غير مرنة وضعت بعد استشارة أكثر العناصر جمودا وتشددا· وهكذا نرى القانون الهندوكى الذى كان ينمو نموا بطيئا قد أوقف نموه · أما مسلمو الهند فكانوا أشد استياء من الأوضاع الجديدة وانكارا لها ، ولهذا لم يكن أمامهم الا أن ينعزلوا عن مجتمعهم وينطووا على أنفسهم ·

وكثير من الفضل يعزى الى الحكم البريطانى فى ابطال عادة حرق الأرملة الهندوكية نفسها فى النار الجنائزية التى تحرق فيها جثة زوجها · فالبريطانيون يستحقون بعض الفضل فى هذا ، ولكن الحكومة فى الواقع ونفس الأمر لم تهتم بالأمر الا بعد سنوات كثيرة من ثورة المصلحين الهنود بزعامة « راجا رام موهان روى » ، ومن قبل البريطانيين قام حكام آخرون بتحريم هذه العادة ، كما قام

البوكيرك البرتغالى بالغائها فى جوا . وقد ألغاها البريطانيون نتيجة لثورة الرأى العام الهندى ومجهودات المبشرين المسيحيين . وعلى قدر ما أذكر ان هذا هو الاصلاح الوحيد الذى اضطلعت به الحكومة البريطانية وكان له مغزى أو أهمية دينية .

وقد تحالف البريطانيون مع كل العناصر المتخلفة والمحافظة فى الهند ، ولم يألوا جهدا فى أن يجعلوا من الهند قطرا زراعيا فقط ينتج الخامات اللازمة لصناعاتهم . وبعض الأقطار الأخرى أولت صناعاتها المحلية كل تشجيع واهتمام . فاليابان مثلا ، كما سنرى فيما بعد ، جرت أشواطا بعيدة الى الأمام فى ميدان التصنيع. ولكن الحكومة البريطانية فى الهند وضعت ما استطاعت من العقبات والصعاب فى طريق الصناعات الهندية .

فنتيجة للضرائب التى فرضتها على استيراد الآلات الصناعية والتى لم ترفع حتى عام ١٨٦٠ كان بناء مصنع فى الهند يتكلف أربعة أمثال ما يتكلفه نظيره فى انجلترة ، على الرغم من أن الأيدى العاملة فى الهند أرخص منها فى انجلترة . وكل ما تستطيعه سياسة التعويق هذه هو أن تؤخر حدوث الأشياء فقط ، ولكنها لا تستطيع أن تقف سير الحوادث الذى لا مفر منه .

ونحو منتصف القرن التاسع عشر بدأت المصانع التى تقوم على الآلات الحديثة تنمو فى الهند ، فصناعة الجوت بدأت فى البنغال برأس مالى بريطانى ، وظهور الطرق الحديدية ساعد فى نمو الصناعات ، وبعد عام ١٨٨٠ أخذت مصانع النسيج التى أنشىء معظمها برءوس أموال هندية تنمو وتكثر فى بومباى وأحمد أباد . ثم بدأ التعدين والكشف عن المعادن . وباستثناء مصانع النسيج قامت حركة التصنيع البطيئة هذه معتمدة فى جملتها على رأس المال البريطانى ، ويكاد يكون هذا على الرغم من الحكومة .

وقد تكلمت الحكومة عن سياسة السماح للأشياء بأن تأخذ طريقها الطبيعى ، وكذلك عن سياسة عدم التدخل فى المشروعات الخاصة، ولكن الحكومة تدخلت فى التجارة الهندية فى انجلترة وحطمتها بالضرائب الجمركية ووسائل التحريم عند ما كانت هذه التجارة مزاحمة ومنافسة للتجارة البريطانية فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر • ولما صارت السيادة والغلبة للتجارة البريطانية أمكن للحكومة أن تتحدث عن سياسة السماح للأشياء بأخذ طريقها الطبيعى وعدم التدخل فى المشروعات الخاصة •

ومهما يكن من أمر فان الحكومة فى الواقع لم يكن موقفها مجرد عدم اكتراث أو مبالاة ، فالثابت فعلا أنها عمدت الى سياسة تثبيط الهمم بالنسبة لبعض الصناعات الهندية وخاصة صناعة النسيج النامية فى بومباى وأحمد أباد • فقد فرضت ضريبة جمركية على منتجات هذه المصانع الهندية ، وسميت ضريبة رسم الجمارك على القطن• وكان الغرض منهذه الضريبة هو مساعدة مصانع المنسوجات القطنية البريطانية فى لانكشير على منافسة المنسوجات القطنية الهندية • والمعروف أن كل دولة تقريبا تفرض بعض الضرائب الجمركية على بعض الواردات والمنتجات الأجنبية حماية لصناعاتها المحلية أو زيادة فى دخلها • ولكن الحكومة البريطانية فى الهند أقدمت على شيء مدهش جدا وغير مألوف • ذلك أنها فرضت ضرائب جمركية على المنتجات الهندية نفسها ! وعلى الرغم من شدة احتجاج الشعب وثورته ضد ضريبة رسم الجمارك هذه فانها ظلت مفروضة وتحصل الى سنوات قريبة •

على هذا النحو ظهرت الصناعات الحديثة فى الهند وانتشرت انتشارا بطيئا فيها • فالطبقات الأكثر غنى فى الهند قامت بمشروعات كثيرة فى سبيل التنمية الصناعية • وعلى ما أذكر أنشأت الحكومة

مصلحة للتجارة والصناعة عام ١٩٠٥ ، وحتى هذه المصلحة لم تقم بأى مجهود يذكر حتى قامت الحرب العالمية الأولى • فنمو النشاط الصناعى هذا خلق طبقة من العمال الصناعيين الذين اشتغلوا فى مصانع المدن • وقد دفع ضغط السكان على الأرض الذى حدثتك عنه، والأحوال التى أدت الى شبه مجاعة فى المناطق الريفية ــ أقول لقد دفع ذلك كثيرا من القرويين الى تلك المصانع والى المزارع التى كانت قد بدأت تنتشر فى البنغال وأسام•وهذا الضغط أيضا دفع الكثيرين الى الهجرة لأقطار أخرى طمعا فى الحصول على أجور عالية • وقد اتجهت الهجرة خاصة الى جنوب افريقية ، وفيجى ، وسيلان ، وموريشس Mauritius

ولكن هذا التغيير والانتقال لم يفد أولئك العمال المهاجرين كثيرا، فقد عوملوا فى بعض الأقطار كما لو كانوا عبيدا، وفى مزارع الشاى فى أسام لم تكن حالتهم أحسن مما كانوا عليه من قبل • وقد اضطر الكثيرون بعد ما صادفهم من تثبيط العزيمة وعدم التشجيع أن يعودوا من المزارع الى قراهم الأولى ، ولكنهم لم يجدوا ترحيبا بهم فى قراهم لعدم وجود أرض لهم يعملون فيها •

وسرعان ما وجد عمال المصانع أن أجورهم المرتفعة نسبيا لا تكاد تنهض بمطالبهم لارتفاع أسعار الحاجيات فى المدن ، ولكون تكاليف المعيشة فيها أعلى مما هى عليه فى القرى • أما عن الأماكن التى اضطروا الى السكنى فيها فلم تكن أكواخا وعششا بائسة قذرةرطبة فقط ، بل كانت مظلمة غير صحية أيضا •

كذلك كانت الأحوال التى يعملون تحت وطأتها سيئة قاسية ، ففى القرى كثيرا ما كانوا يتعرضون للجوع القاتل ولكنهم كانوا يأخذون حظهم من الشمس والهواء النقى • أما وقد انقلبوا الى عمال

فى المصانع فقد صار حظهم من الشمس ضئيلا جدا ، ولا حظ لهم فى الهواء النقى . وأجورهم لم تكن كافية لمقابلة تكاليف المعيشة المرتفعة . وحتى النساء والأطفال اضطروا أن يعملوا ساعات طويلة ، واعتادت الأمهات اللائى يحملن أطفالهن على أذرعتهن أن يعطوهم أدوية منومة مخدرة حتى يتمكن من القيام بعملهن والتفرغ له .

وهكذا كان العمـال الصـناعيون يشتغلون بالمصـانع فى مثـل هذه الحالات التعيسة المضنية . لقد كانوا أشنقياء طبعا ، ولما عيـل صبرهم بدءوا يتذمرون ويتبرمون ، وأحيانا فى حالات اليأس أضربوا بالامتناع عن العمل . ولكنهم كانوا ضعافا عاجزين ، وكان من اليسير على مستخدميهم الأغنياء مؤيدين من الحكومة أن يحطموهم اذا شاءوا . ولكنهم عرفوا شيئا فشيئا وفى بطء وبعد تجربة مؤلمة قاسية قيمة العمل المشترك الموحد ، ومن ثم أنشئوا اتحادات العمال .

لا تظنى أن هذا وصف للأحـوال الماضـية ، فقد طرأت بعض تحسينات واصلاحات فى أحوال العمل فى الهند ، كما صدرت بعض قوانين تضمن نوعا من الحماية للعامل الفقير .

ولكنك اذا زرت « كونبور » أو « بومباى » أو غيرهما من المناطق الصناعية فانك ستجدين أن مساكن العمال لا تزال الى اليوم على حال من السوء تثير الفزع والأسى فى قلب من يراها .

لقد كتبت اليك فى هـــذه الرسالة وغيرهـا من الرسـائل عن البريطانيين والحكومة البريطانية فى الهند . فكيف كانت حال هذه الحكومة ؟ وكيف كانت تمارس الحكم ؟

فهناك كانت شركة الهند الشرقية أولا ، ولكن البرلمـان الانجليزى كان من ورائها . وفى عام ١٨٥٨ وبعد الثورة الكبرى تولى البرلمـان الانجليزى مسئولية مباشرة . وفيما بعد أصـبح ملك الانجليز ـ أو بمعنى أصح ملكة الانجليز الجالسة على العرش وقتئذ ـ قيصرة الهند .

ففى الهند كان الحاكم العام الذى صار نائب الملك أيضا فى أعلى السلم ، ومن تحته كان هناك جماهير وجموع حاشدة من الموظفين . وكانت الهند مقسمة كما هى الآن تقريبا الى امارات ودول . وكان مفروضا فى حكام الدول الهنود أنهم نصف مستقلين ، ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر معتمدين كل الاعتماد على الانجليز . وكان يعيش فى كل دولة من الدول الكبرى موظف انجليزى يسمى « المقيم » له الرقابة العامة على الحكومة ، ولم يكن يعنيه من شئون الاصلاح الداخلى أى شىء ، لا ولم يكن يهمه فى كثير أو قليل أن تكون حكومة الدولة سيئة أو غير سيئة ، أو أن تباشر سلطتها على طراز قديم أو حديث .

كل ما كان يعنيه ويهمه هو أن يمكن للسلطة الانجليزية فى الدولة . وقد كان ثلث الهند تقريبا مقسما الى هذه الدول ، أما الثلثان الآخران فكانت تحكمهما الحكومة الانجليزية فى الهند حكما مباشرا . وكان كل الموظفين الكبار فى الهند البريطانية من الانجليز ، وقد ظل الأمر كذلك الى ما يقرب من نهاية القرن التاسع عشر حينما بدأ بعض الهنود يتسللون الى الوظائف الحكومية ، وحتى مع هذا فان كل القوة والسلطة طبعا بقيتا ولا تزالان باقيتين فى أيدى الانجليز . وهؤلاء الموظفون الكبار ، باستثناء العسكريين ، كانوا أعضاء فيما يسمى بالادارة الهندية . وهكذا كانت كل حكومة الهند محكومة بهذه الادارة . والحكومة التى قوامها موظفون يعين بعضهم بعضا ، وليسوا مسئولين أمام الشعب عما يفعلون تسمى حكومة موظفين أو حكومة « بيروقراطية » .

ونحن نسمع كثيرا عن الادارة الهندية ومن فيها من أشخاص فى غاية الغرابة والعجب ، وان كانوا أكفاء فى بعض النواحى . فهؤلاء

نظموا الحكومة ، ومكنوا للحكم الانجليزى ، وانتفعوا هم أنفسهم كثيرا • فجميع المصالح الحكومية التى ساعدت فى تدعيم الحكم الانجليزى وجباية الضرائب قد نظمت تنظيما تتجلى فيه الكفاية ، أما غير ذلك من المصالح الحكومية فأهملت •

ولما كان موظفو الادارة الهندية غير مسئولين أمام الشعب ولم يعينهم الشعب فى وظائفهم فانهم لم يوجهوا أى اهتمام أو عناية بالمصالح الحكومية الأخرى التى تهم معظم طبقات الشعب • ولما كان ذلك طبيعيا تحت هذه الظروف فانهم انقلبوا متعجرفين متغطرسين يستخفون بالرأى العام ويزدرونه • ومع أنهم كانوا ضيقى الأفق محدودين فى نظرتهم ، فانهم أخذوا ينظرون الى أنفسهم على انهم أعقل العقلاء وأحكم الحكماء على الأرض •

وكان خير الهند يعنى فى المنزلة الأولى بالنسبة لهم الخير الذى يعود عليهم شخصيا من الوظائف التى يعملون بها • وقد كونوا نوعا من جمعية استلطاف واستحسان متبادل ، يمدح فيها بعضهم بعضا، ويثنى فيها هذا على ذاك ، وذاك على هذا •• وقد أدت القوة والسلطة المطلقتان فى النهاية الى هذا ، وأصبح موظفو الادارة الهندية أسياد الهند تقريبا • وكان البرلمان الانجليزى من البعد بحيث لا يستطيع التدخل فى الأمر ، وعلى أية حال فلم يكن هناك مناسبة لتدخله ، لان موظفى الادارة الهندية كانوا يخدمون مصالحه ومصالح الصناعة البريطانية • أما مصالح الشعب الهندى فلم يكن هناك وسيلة للتأثير عليهم فى أن يولوها شيئا من الرعاية ولو الى درجة ما • وقد كان حتى مجرد النقد الواهن الخفيف يستثير سخطهم واستياءهم ، ولهذا كانوا متعصبين لا يحتملون ولا يطاقون !

ومع هذا فقد عمل فى الادارة الهندية كثير من الموظفين الأمناء الأكفاء، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يغيروا غرض السياسة المرسومة أو يحولوا التيار الذى كان يدفع بالهند أمامه دفعا • فموظفو الادارة الهندية كانوا ، بعد كل ما ذكر ، عملاء رجال المال والصناعة فى انجلترة ممن كان همهم الأساسى استغلال الهند •

وقد ازدادت كفاية حكومة الهند البيروقراطية هذه فى كل ماله اتصال بمصالحها الخاصة ومصالح الصناعة البريطانية • أما نشر التعليم والصحة وانشاء المستشفيات والاضطلاع بضروب النشاط الأخرى الكثيرة التى من شأنها أن تنشىء شعبا سليما متقدما ، فكان حظها الاهمال كل الاهمال • ولم يكن هناك تفكير فى هذه الأشياء الى عهد قريب • فمدارس القرى تلاشت واندثرت • ثم بدأت الحكومة تنشر التعليم فى بطء وعلى غير ارادة منها مدفوعة الى ذلك بمطالبها الخاصة • فالموظفون الانجليز قد احتلوا كل الوظائف العالية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يملئوا الوظائف الصغيرة أو الكتابية • ولما كانت الحكومة فى حاجة الى كتبة ، فقد أنشأ الانجليز المدارس والكليات فى أول الأمر لتخريج الكتبة وصغار الموظفين • ومنذ ذاك التاريخ أصبح هذا غرض التعليم الأساسى فى الهند ، وغالبية من أخرجهم هذا النظام التعليمى كانوا صالحين للأعمال الكتابية فقط • ولكن سرعان ما صار عدد الكتبة المتخرجين فى المدارس والكليات أكثر مما تستوعبه دواوين الحكومة والمصالح الأخرى • ومن ثم ترك كثيرون منهم بلا عمل فكونوا طبقة جديدة من المتعطلين المتعلمين • وقد كانت البنغال أسبق من غيرها فى التعليم الانجليزى الجديد • ومن أجل ذلك كانت الكثرة الغالبة من الكتبة فى أول الأمر بنغاليين •

وفى عام ١٨٧٥ أنشئت ثلاث جامعات فى كلكتا ، وبومباى ، ومدراس • وهناك حقيقة تستحق التسجيل ، وهى أن المسلمين فى

الهند لم يتحمسوا للتعليم الجديد أو يتقبلوه ، ولهذا تخلفوا فى سباق الكتبة والوظائف الحكومية • وقد أصبح ذلك فيما بعد سببا من أسباب شعورهم بالغبن وعدم المساواة •

وهناك حقيقة أخرى تستحق التسجيل ، وهى أن البنات أهملن اهمالا تاما من حيث التعليم حتى عندما بدأت الحكومة تضطلع بنشره• ولم يكن ذلك بالأمر المدهش أو المستغرب ، لأن الغرض من التعليم الذى كانت تنشره الحكومة هو ، كما ذكرت آنفا ، اعداد طبقة من الكتبة ، وكان الكتبة الرجال هم المطلوبون وقتئذ ، نظرا للتقاليد الاجتماعية المتخلفة • ومن ثم أهملت البنات اهمالا تاما ، ولكن حدث بعد ذلك بزمن طويل أن بدأت العناية قليلا بتعليمهن •

١١٤ — إنجلترة تفرض الآفيون على الصين

١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢

لقد حدثتك فى اسهاب عن التأثير الذى أحدثته الثورة الصناعية وثورة الآلات الحديثة فى الهند ، كما حدثتك عن أساليب الاستعمار البريطانى فى بلادنا ٠

ولكونى هنديا فأنا وطنى متعصب لوطنى ، ومن أجل ذلك لا أستطيع أن أرى الأشياء الا بعين الوطنى المتشيع لوطنه ٠ ولكنى حاولت ، كما أود لك أن تحاولى ، النظر الى هذه القضايا نظرة العالم الذى يختبر الحقائق بلا محاباة ، لا نظرة الوطنى الذى يركز كل همه فى البرهنة على القضية من جانب واحد ٠

فالوطنية أو القومية حسنة فى موضعها ، ولكنها صديق لا يعتمد عليه ومؤرخ خطر لا يؤمن جانبه ، فهى تعمينا عن رؤية كثير من الأحداث ، وتشوه الحقيقة ٠٠ أحيانا ، ولا سيما اذا كانت هذه الحقيقة تتصل بنا أو بوطننا ٠ ولهذا علينا أن نكون فى غاية اليقظة والحذر عندما ننظر فى تاريخ الهند الحديث ، فلا نلقى بكل اللوم والتبعة فى ضعفنا وتخلفنا ومتاعبنا على الانجليز ٠

لقد رأينا من قبل كيف استغل الهند رجال الصناعة ورجال المال الانجليز فى القرن التاسع عشر ٠ والآن دعينا ننتقل الى الصين أكبر

قطر فى آسيا ، وصديق الهند القديم ،والذى يعتبر من أعرق الشعوب وأقدمها • فهنا سيطالعنا نوع آخر من استغلال الغرب •

فالصين لم يقدر عليها أن تصير مستعمرة أو تابعة لدولة أوروبية كما حدث للهند • أجل ، نجت الصين من هذا القدر ، بفضل ما أتيح لها من حكومة مركزية قوية نوعا ما ، حكومة استطاعت أن تبقى على البلاد متماسكة حتى قبيل منتصف القرن التاسع عشر •

أما الهند ، كما رأينا ، فقد تفتتت الى أجزاء قبل هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة ، وعلى التحديد عندما سقطت الامبراطورية المغولية •

ومع أن الصين بدا عليها الضعف فى القرن التاسع عشر ، فانها ظلت متماسكة الى النهاية • وتحاسد الدول الأجنبية وغيرة بعضها من بعض منعتها من أن تتدخل فى شئون الصين وتنتفع كثيرا من ضعفها •

وقد أخبرتك فى رسالتى الرابعة والتسعين أن الانجليز قاموا بمحاولات كثيرة لزيادة تجارتهم مع الصين • وفى هذه الرسالة أيضا اقتبست لك نبذة طويلة (١) من الرسالة الشامخة التى رد بها

---

(١) هذه النبذة هى : « ••• أنت أيها الملك الذى يعيش عبر بحار كثيرة ومع ذلك تدفعك رغبة متواضعة للانتفاع من خيرات حضارتنا • أنت يا من أوفدت بعثة تحمل فى احترام رسالتك ، ولكى تظهر ولاءك أرسلت أيضا هدايا من منتجات بلادك • لقد قرأت رسالتك التى تظهر عباراتها الجادة ذلة محترمة من جانبك تستحق عليها الثناء•ومع تحكمى فى الدنيا الواسعة ليس لى غير أمل واحد هو أن أحافظ على حكمى الكامل وأن أضطلع بواجبات الدولة• أما الأغراض الغريبة الباهظة الثمن فلا تهمنى • ولست فى حاجة الى استعمال مصنوعات بلادك • وانه ليليق بك أيها الملك أن تحترم عواطفى ، وأن تظهر لى فى المستقبل ولاء أكثر ، ولعلك بالولاء الدائم لعرشنا تضمن السلام والرفاهية لشعبك بعد اليوم •••
وأطعنى فى خوف ولا تظهر الاهمال وعدم الاكتراث ! »

امبراطور الصين « تشين لون » على رسالة ملك الانجليز جورج الثالث التي بعث بها مع السفارة التى أوفدها لانشاء علاقات تجارية بين الصين وانجلترة ٠

لقد حدث ذلك عام ١٧٩٢ ٠ وهذا التاريخ سيذكرك بالفترات العاصفة التى مرت بها أوربا وقتئذ ٠ سيذكرك بفترة الثورة الفرنسية ، وفترة نابليون والحروب النابليونية ، وبانشغال انجلترة بقتالها المستميت ضد نابليون ٠ ولهذا لم يكن هناك بالنسبة لانجلترة تفكير فى التوسع التجارى مع الصين حتى سقط نابليون وتنفست هى الصعداء ٠

وفى عام ١٨١٦ نرى انجلترة توفد بعثة أخرى الى الصين ، ولكن حدث أن قامت صعوبة بسبب طريقة استقبال هذه البعثة ، فقد كان مفروضا أن تسجد البعثة أمام الامبراطور اظهارا للخضوع والذلة ، ولكن المبعوث البريطانى لورد أمهيرست امتنع عنذلك فرفض امبراطور الصين مقابلته وأمره بالرجوع الى بلاده ٠ وعلى ذلك لم تكلل مهمة هذه البعثة بالنجاح ٠

وعلى الرغم من ذلك فقدكانت هناك تجارة جديدة تنمو نموا سريعا، هى تجارة الأفيون ٠ وقد لا يكون صحيحا أن تسمى هذه تجارة جديدة ، لأن الصين كانت تستورد الأفيون من الهند منذ القرن الخامس عشر ٠ وقد أرسلت الهند الى الصينفى الماضى أشياء كثيرة حسنة ، وكان الأفيون فى الحقيقة أحد الاشياء السيئة التى أرسلتها الهند اليها ٠ ولكن هذه التجارة كانت محدودة ، ثم أخذت تنمو وتنتشر فى القرن التاسع عشر على أيدى الأوربيين ، ولا سيما شركة الهند الشرقية التى احتكرت التجارة البريطانية ٠

ويقال ان الهولنديين فى الشرق اعتادوا أن يخلطوا الأفيون بتبغهم

ثم يدخنوه وقاية من الملاريا • وعن طريقهم انتقلت عادة تدخين الأفيون الى الصين ، ولكن على صورة أسوأ ، لان الصينيين كانوا يدخنونه نقيا غير مخلوط • ثم أرادت الحكومة أن تحول دون انتشار هذه العادة ، فقد رأت أن للأفيون أثرا بالغا وخطرا شديدا على الشعب ، وأن تجارته أيضا تمتص جزءا كبيرا من ثروة البلاد الى الخارج •

من أجل ذلك أصدرت الحكومة الصينية عام ١٨٠٠ مرسوما يقضي بتحريم استيراد الأفيون ودخوله الى الصين لأى غرض من الاغراض • ولما كانت تجارته رابحة جدا بالنسبة للأجانب فانهم أخذوا فى تهريبه الى الصين ، وفى رشوة الموظفين الصينيين ليتغاضوا عنه •

عندئذ أصدرت الحكومة الصينية أمرا يحرم على موظفيها مقابلة التجار الاجانب ويفرض عقوبات صارمة على من يعلم أى أجنبى اللغة الصينية أو لغات المانشو • ولكن ذلك لم يجد نفعا فى مقاومة تجارة الأفيون ، فقد استمرت على الرغم من هذه القيود والعقوبات مستعينة فى وجودها بالرشوة والفساد •

وقد تطورت هذه المشكلة بالنسبة للصين من سيىء الى أسوأ بعد عام ١٨٣٤ حينما أنهت الحكومة البريطانية احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الصين وجعلت هذه التجارة حرة لكل التجار البريطانيين • وترتب على ذلك أن ازدادت فجأة حركة تهريب الأفيون لدرجة اضطرت الحكومة الصينية معها أن تأخذ اجراء قويا لقمعها •

وقد تمثل هذا الاجراء فى اختيار الحكومة لرجل قوى من رجالها يدعى « لين تسى شى » وتعيينه رئيسا لادارة مقاومة حركة تهريب الأفيون • ولم يكد « لين تسى شى » يكلف بهذه المهمة حتى قام بعمل سريع قوى • لقد انتقل فى الحال الى « كانتون » فى الجنوب حيث كانت مركزا رئيسيا لهذه التجارة غير المشروعة ، وأمر كل التجار الأجانب

هناك أن يسلموه كل ما عندهم من أفيون . ورفض هؤلاء التجار أن يطيعوا هذا الأمر أولا ، ولكن « لين » أجبرهم على اطاعته بعزلهم فى مصانعهم ، وبحمل عمالهم وخدمهم الصينيين على أن يتركوهم، وبمنع الطعام من الوصول اليهم من الخارج . وازاء هذه الشدة والصرامة وهذا التصرف المحكم لم يسع التجار الأجانب الا أن يسلموا مكرهين للمسئولين الصينيين عشرين ألف صندوق من الأفيون . وقد أخذ « لين » هذه الكميات الهائلة التى كانت معدة للتهريب وأتلفها . ولم يكتف « لين » بهذا ، بل أخبر التجار الأجانب بأنه لن يسمح لأى سفينة بالدخول الى كانتون حتى يعطى ضابطها تعهدا بأنه لا يحمل أفيونا عليها . فاذا نقض هذا التعهد فان الحكومة الصينية تكون فى حل من مصادرة السفينة بما عليها . ومما لاشك فيه أن « لين » كان شخصا كفئا ، وأنه قام بما أسند اليه من عمل خير قيام ، ولكنه لم يدرك أن نتائج تصرفاته ستعود بالوبال على الصين .

وتتلخص هذه النتائج فى اشتباك الصين مع بريطانيا فى حرب ، وفى هزيمة الصين فى هذه الحرب ، وتوقيعها معاهدة مذلة ، وفى دفع الأفيون الذى حاولت الحكومة الصينية تحريمه الى حلوق الصينيين كرها . وسواء أكان الافيون خيرا أو شرا للصينيين فان هذا لم يكن أمرا مهما . انما كان المهم هو أن تهريب الأفيون كان عملا مربحا للتجار البريطانيين ، وأن بريطانيا لم تكن مستعدة لأن تتسامح فى ضياع هذا الدخل .

ولما كان معظم الأفيون الذى أتلفه « لين » يخص التجار البريطانيين فان بريطانيا اشتبكت عام ١٨٤٠ فى حرب مع الصين باسم الدفاع عن الشرف الوطنى ، وقد سميت هذه الحرب بحق «حرب الافيون » ، لانها حوربت وكسبت بغية الوصول الى حق فرض الأفيون على الصين .

ولم تستطع الصين أن تفعل شيئا ضد الأسطول البريطانى الذى حاصر كانتون وموانىء أخرى . وقد اضطرت الصين بعد حرب دامت عامين أن تستسلم . وفى عام ١٨٤٢ وقعت معاهدة نانكين التى نصت على وجوب فتح خمس موانىء صينية للتجارة الأجنبية ، وهـذا يعنى بوجه خاص فتحها لتجارة الأفيون حينئذ . وهـذه الموانىء الخمس هى كانتون ، وشنغهاى ، وأموى ، وننجبو ، وفوتشو . وقد سميت هذه بموانىء المعاهدة . ولم تكتف بريطانيا بذلك ، بل استولت أيضا بمقتضى المعـاهدة على جزيرة هونكونج بالقرب من كانتـون ، واغتصبت عنوة مبالغ طائلة كتعويض لأفيون تجـارها الذى أتلف ، ولتكاليف الحرب التى فرضتها فرضا على الصين .

وهكذا حقق البريطانيون انتصار الأفيون . وقد بعث امبراطور الصين بالتماس خاص الى الملكة فيكتوريا ملكة انجلترة وقتئذ مبينا لها فى أدب واحترام الآثار الشنيعة المنكرة الناشئة من فرض تجارة الأفيون على الصين ، ولكنه لم يتلق أى جواب من الملكة على التماسه . فما أعظم الفرق بين هذا الالتماس المهذب وبين الرسـالة الشـامخة التى بعث بها منذ نحو خمسين سنة أحد أسلافه الامبراطور « تشين لون » الى ملك الانجليز جورج الثالث !

هذا كان بدء متاعب الصين ومشاكلها مع دول الغرب الاستعمارية . لقد انتهى عصر عزلتها ، وصار عليها أن تقبل التجارة الأجنبية ، وأن تقبل ، بالاضافة الى ذلك ، المبشرين المسيحيين الذين لعبوا دورا هاما فى الصين ، هو دور الطليعة فى جيش الاستعمار .

ومعظم متاعب الصين التى تلت كان لها اتصال بالمبشرين . فكثيرا ما كان مسلك هؤلاء وتصرفهم وقحا مثيرا ، ولكن لم يكن من المستطاع محاكمتهم أمام المحاكم الصينية ، لأن معاهدة نانكين الجـديدة نصت على عدم محاكمة الأجانب الغربيين الموجودين فى الصين أمام المحاكم

الصينية ، أو بمقتضى قوانين الصين ، وانما يحاكمون أمام محاكمهم الخاصة ، وقد سمى هذا ب « الامتياز الخاص » ولا يزال هذا الامتياز قائما (١) حتى الآن على شدة حنق الصينيين عليه . ومن العجيب أن الصـــينيين الذين تحولوا الى مســـيحيين على أيدى المبشرين ادعوا لأنفسهم هذه « الحماية الخاصة » .. وهؤلاء لم يكن لهم بأى حال من الأحوال حق فى هذه الحماية الخاصة ، ولكن هذا لم يغير من الموقف فى شيء ، لأن المبشرين الكبار الذين يمثلون الشعب الاستعمارى القوى كانوا يقفون من ورائهم .

وكان المبشرون أحيـانا يؤلبون قرية ضـد قرية أخرى ، وكان القرويون وغيرهم ، اذا بلغ بهم الغيظ والسخط أقصـاه ، يثورون ويهجمون على المبشرين ، وفى بعض الأحيان كانوا يقتلونهم . عندئذ كانت الدولة الاستعمارية التى تقف من خلف هؤلاء المبشرين تنقض على الثوار وتأخذ منهم ما تشاء من تعويض .

وقد استغلت الدول الأوربية الى أقصى الحدود بعض حوادث القتل التى وقعت فى الصين على المبشرين من أجناسهم ، فجعلت منها فرصا لمطالبة الصين بمزيد من الامتيازات والحصول عليها .

وثورة « تابن » التى تعتبر من أفظع وأبشع الثورات التى ظهرت فى الصين قد بدأها أيضا مرتد اعتنق المسيحية على أيدى المبشرين . وقد قام بها عام ١٨٥٠ شخص نصف مجنون يدعى «هن شو تشوان» .. فهذا المجنون الدينى نجح نجاحا بعيد المدى وانطلق فى كل مكان يدعو الى الحرب صائحا : « اقتلوا عبـاد الأوثان » . ونتيجة لذلك

---

(١) كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٢ أى منذ ربع قرن . وقد ألغى هذا الامتياز بعد ذلك من الصين .   « **المترجم** »

قتلت جموع كثيرة • وقد خربت هذه الثورة أكثر من نصف الصين، وقدر عدد من راحوا ضحيتها خلال اثنى عشر عاما تقريبا بنحو عشرين مليونا من السكان • وليس من العدل فى شىء أن نحمل المبشرين المسيحيين والدول الأجنبية وزر هذه الثورة ومن قتلوا بسببها ، واذا كان يبدو أن المبشرين باركوها فى أول الأمر فانهم فيما بعد أنكروا « هن شوتشوان » •

ولكن الحكومة الصينية ظلت على أية حال تعتقد أن المبشرين المسيحيين مسئولون عنها • وهذا الاعتقاد يجعلنا ندرك مدى سخط الصينيين على نشاط المبشرين وقتذاك وبعد ذاك • فالمبشرون فى نظر الصينيين لم يفدوا الى بلادهم كرسل دين ودعاة خير وسلام ، وانما وفدوا اليها كعملاء للاستعمار ، أو كما قال كاتب انجليزى : « المبشر أولا ، ثم السفينة الحربية ، ثم احتلال البلاد وخطفها » • هكذا تنظر العقلية الصينية الى موكب الحوادث • وجدير بك أن تتذكرى هذا لأن المبشر كثيرا ما يتسلل أكثر مما ينبغى فى شئون الصين ومشاكلها •

ومن الغريب المدهش أن ثورة يقودها متعصب دينى مجنون يتاح لها كل هذا النجاح قبل القضاء عليها نهائيا • والسبب الحقيقى فى هذا هو أن النظام القديم فى الصين كان قد بدأ فى التداعى والانهيار • وأذكر أنى أخبرتك فى آخر رسالة عن الصين عن عبء الضرائب فيها ، وعن أحوالها الاقتصادية المتغيرة ، وعن ضجر الشعب المتزايد • فالجمعيات السرية كانت تثور ضد حكومة المانشو فى كل مكان ، وكانت بوادر التمرد والثورة العامة تلوح فى الجو •

وما من شك فى أن التجارة الاجنبية ، وتجارة الأفيون والسلع الأخرى قد زادت الأحوال سوءا • لقد كانت التجارة الاجنبية ترد طبعا الى الصين فى الماضى ، ولكن الأحوال كانت قد تغيرت فى العصر الذى نتحدث عنه •

فمصانع الغرب الحديثة الآلات بدأت تنتج فى سرعة كثيرا من السلع التى لا يمكن بيعها كلها فى بلادها • لهذا كان على الدول الغربية أن تجد لمنتجات مصانعها أسواقا فى أماكن مختلفة من العالم• فهذه المنتجات وبخاصة الأفيون قلبت نظم التجارة القديمة رأسا على عقب ، ومن ثم زاد الاضطراب الاقتصادى سوءا على سوء • وكما حدث فى الهند بدأت أسعار السلع فى الأسواق الصينية تتأثر بالأسعار العالمية • وكل هذا زاد من بؤس الصينيين وضجرهم وقوى من ثورة « تابن » •

تلك كانت الأوضاع فى الصين عند ما بدأت الدول الغربية تتدخل فى شئونها وتدل عليها بقوتها وعظمتها • فليس عجيبا اذن أن ترى الصين نفسها غير قادرة على الصمود أمامهم ورفض مطالبهم • ولم تكد الدول الغربية ــ واليابان حديثا جدا كما سنرى فيما بعد ــ يرون ما عليه الصين من حيرة واضطراب وما تعانيه من متاعب وقلاقل حتى استغلوا هذه الفرصة السانحة كل الاستغلال ، بالاستيلاء على امتيازات جديدة منها واغتصاب أجزاء من أراضيها أيضا •

وكان من الممكن حقا أن تسير الصين فى نفس الطريق التى سارت فيها الهند فتصبح امبراطورية لليابان ولدولة أو أكثر من الدول الغربية لولا ما كان بين هذه الدول من المنافسة والتحاسد والغيرة المتبادلة •

لقد حدثتك عن حالة الصين العامة خلال القرن التاسع عشر ، كما حدثتك عن انهيارها الاقتصادى ، وعن ثورة « تابن » ، وعن المبشرين والاعتداء الغربى عليها • وأشعر أنى بذلك قد انحرفت عن مجرى القصة الرئيسى ، ولكن يجب على الانسان أن يعرف شيئا عن هذا حتى يستطيع أن يتتبع بفهم سرد الحوادث • أقول ذلك لأن حوادث التاريخ لا تقع كالمعجزات ، وانما تحدث لأن أسبابا شتى تتضافر

على وجودها ، وكثيرا ما تختفى هذه الأسباب وتكمن تحت سطح الحوادث •

ولا بد أن حكام الصين الذين كانوا الى عهد قريب فى غاية القوة والعظمة قد اعترتهم الدهشة للتغيير المفاجىء الذى طرأ على عجلة الحظ بالنسبة لهم • ولعلهم لم يتبينوا أن جذور انهيارهم تمتد بعيدا فى ماضيهم ، ولعلهم أيضا لم يقدروا تقدم الغرب الصناعى ونتائجه الخطيرة على نظام الصين الاقتصادى •

ولم يملكوا ازاء كل ذلك الا أن يحنقوا كل الحنق على هجمات الاجانب « البرابرة » واعتداءاتهم عليهم• ويروى أن امبراطور الصين فى ذاك العصر استعمل فى معرض الاشارة الى هذه الهجمات والاعتداءات تعبيرا لطيفا من تعابير اللغة الصينية الفصحى معناه أنه « لا يسمح لأحد أن يغط ويشخر بالقرب من سريره » ! ولكن حكمة اللغات القديمة أو فكاهتها لا تستطيع ، مع ما تعلمه من ثقة مطمئنة وشجاعة فائقة وضبط للنفس فى ساعات المحن والشدائد ، أن تصد الاجنبى وترده •

لقد فتحت معاهدة نانكين الباب لبريطانيا فى الصين ، ولكن بريطانيا ما كان ليسمح لها أن تفوز بأطايب الغنيمة وحدها، ففرنسا والولايات المتحدة دخلتا الصين أيضا وأكرهتاها على توقيع معاهدة تجارية معهما • لقد كانت الصين وقتئذ ضعيفة مغلوبة على أمرها ، ولكن هذا الاكراه الذى فرض عليها لم يجعلها تحب الأجانب أو تحترمهم • أجل ، كان حنقها وسخطها شديدين على وجود هؤلاء « البرابرة » بين ظهرانيها ، بيد أن الأجانب كانوا أبعد ما يكونون عن الرضا بما ظفروا • فشهوتهم فى استغلال الصين قد بدأت تنمو وتقوى ، وكانت بريطانيا أسبق الدول الأخرى فى هذا المضمار •

وقد كان هذا الوقت مناسبا جدا للأجانب لتحقيق مآربهم منها، فقد كانت مشغولة بثورة « تابنج » ، ومن ثم لم يكن فى مقدورها أن تقاوم هؤلاء الدخلاء . وحدث فى عام ١٨٥٦ أن قبض والى كانتون على بحارة صينيين بتهمة القرصنة . وكانت السفينة التى يعمل فيها هؤلاء البحارة سفينة صينية لا صلة لها بالدول الأجنبية ، ولكنها كانت ترفع العلم البريطانى بتصريح من حكومة هونكونج ، ومع أن هذا التصريح كانت مدته قد انتهت فان الحكومة البريطانية ممثلة دور الذئب والحمل فى القصة المشهورة ، اعتبرت هذا الحادث عذرا كافيا للحرب .

لهذا أرسلت بريطانيا جنودها الى الصين ، ولكن حدث وقتئذ أن قامت فى الهند ثورة ١٨٥٧ فحولت بريطانيا هؤلاء الجنود من الصين الى الهند ، واضطرت حرب الصين أن تنتظر حتى تفرغ بريطانيا من القضاء على ثورة الهند .

وفى عام ١٨٥٨ بدأت حرب الصين الثانية ، وقد اكتشفت فرنسا فى مقتل مبشر فرنسى فى مكان ما فى الصين تكأة وعذرا لها للاشتراك فى هذه الحرب . ولهذا انقض الانجليز والفرنسيون على الصينيين الذين كانوا مشغولين بمكافحة ثورة « تابنج » .

وحاولت حكومتا انجلترة وفرنسا أن تستميلا روسيا والولايات المتحدة الامريكية للاشتراك أيضا فى هذه الحرب ، ولكنهما لم توافقا، وان كان لم يكن لديهما مانع من المشاركة فى الغنائم والأسلاب !

وقد اضطرت الصين أن تنزل فى النهاية على ارادة هذه الدول الأربع فتوقع معها معاهدات جديدة أكرهت بمقتضاها على أن تعطيهم امتيازات أكثر من قبل ، وعلى أن تزيد فى عدد الموانى الصينية المفتوحة أمام التجارة الأجنبية .

ولكن قصة حرب الصين الثانية لم تنته بعد الى هذا الحد ، فقد كان لا يزال هناك فصل آخر من المأساة آثاره ونتائجه أشد ايجاعا وايلاما • فالعادة عند ما تعقد معاهدات بين الحكومات أن تصدق عليها أو تؤكدها الدول المتعاقدة ، ولهذا اتفق عند عقد هـذه المعاهـدات الجديدة أن يتم التصديق عليها بين الصين منجهة ، وانجلترة وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى فى مدينة بكين• فلما حان موعد هذا التصديق حضر ممثل روسيا مبـاشرة الى بكين بطريق البر ، بينما حضر ممثلو الدول الثلاث الأخرى بطريق البحر• وقد أرادوا أن يحضروا بسفنهم الى بكين عن طريق نهر البيهو Peiho الذى أقيمت عليه وقتذاك استحكامات وتحصينات دفاعا عن هـذه المدينة التى كانت مهددة بثوار تابن •

من أجل ذلك طلبت الحكومة الصينية الى ممثلى انجـلترة وفرنسا والولايات المتحدة أن يتفادوا الحضور الى بكين عن طريق النهر وأن يحضروا اليها عن طريق البر • ولم تكن الصين فى طلبها هذا متعنتة أو غير معقولة •

وقد استجاب ممثل أمريكا لهـذا الطلب ، أما ممثـلا بريطانيـا وفرنسا فرفضاه وحاولا أن يشقا طريقهما بالقوة فى نهر البيهو الى بكين غير عابئين بوجهة نظر الحكومة الصينية• عندئذ أطلق الصينيون النيران على سفنهما وأكرهوهما على العودة بعد خسائر فادحة •

ولكن حكومتى بريطانيا وفرنسا المتعجرفتين المتغطرستين اللتين لم تقبلا حتى مجرد الاصغاء الى التماس الحكومة الصينية لم تستطيعا أن تغتفرا لها هذا التصرف أو تحتملاه منها • ولهذا أرسلتا فرقاكثيرة من جنودهما للانتقام • وفى عام ١٨٦٠ زحفت هذه الجنود على مدينة بكين القديمة ، وتمثل انتقامهما فى صورة تدمير ونهب وحرق لمبنى من أجمل وأعجب المبانى فى المدينة • ذلك المبنى هـو قصر الصيف الامبراطورى، المعروف باسم «يوان مين يوان» Yuen-Ming-Yuen

والذى أكمل بناؤه فى عهد « تشين لون » • لقد كان هذا القصر حافلا بذخائر الفن والأدب النادرة ، وبأعمال قديمة من البرونز ذات جمال فائق ، وبقطع فنية من الخزف الصينى التى تستولى على الألباب ، وبمخطوطات وصور نادرة • وعلى الاجمال كان حافلا بكل لون من ألوان الفنون وبأرفع وأرقى ما أنتجته الصين واشتهرت به منذ ألف سنة •

فهؤلاء الجنود البريطانيون والفرنسيون ، أو هؤلاء الونداليون الجهلة المغرمون بتخريب الآثار القديمة وأعمال الفن النادرة قد نهبوا من هذه الذخائر القيمة ما نهبوا ثم دمروا ما بقى منها وأضرموا فيه النيران التى ظلت مشتعلة أياما كثيرة !

فهل يكون أمرا عجبا أن ينظر الصينيون ، ومن خلفهم ثقافة آلاف السنين ، الى هذه الوندالية بألم مبرح فى قلوبهم ، وأن يعتبروا هؤلاء المحطمين جهلة برابرة لا يعرفون الا كيف يقتلون ويخربون ؟ ولا بد أن ذكريات الهون Huns والمغول وكثيرين غيرهم من المخربين وبرابرة العصور القديمة قد عادت اليهم •

ولكن البرابرة الأجانب لم يهتموا أى اهتمام برأى الصينيين فيهم • لقد شعروا بالحماية والأمن فى ظل سفنهم الحربية ومع أسلحة الحرب الحديثة • وماذا يهمهم اذا كانت الذخائر الثمينة النادرة التى جمعت خلال مئات السنين لم يعد لها وجود أى وجود ؟ وماذا يعنيهم من أمر الفن الصينى والثقافة الصينية ؟ وكأنى بهم يتمثلون بقول القائل : « مهما يحدث فقد حصلنا على حكمة المدفع ، أما هم فلم يحصلوا على هذه الحكمة ! » •

١٣١ — تقدم الديمقراطية

١٠ فبراير سنة ١٩٣٣

حاولت فى رسالتى الماضية أن أعطيك لمحة عن تقدم العلم فى القرن التاسع عشر . والآن دعينا ننظر الى مظهر آخر من مظاهر هذا القرن ، وأعنى بذلك ظهور فكرة الديمقراطية .

ولعلك تذكرين أنى حدثتك عن حرب الأفكار فى فرنسا القرن الثامن عشر ، تلك الحرب التى شنها فولتير أكبر مفكر وكاتب فى عصره ، والتى اشترك معه فيها غيره من مفكرى فرنسا وكتابها . فهؤلاء قد تحدوا كثيرا من الأفكار الدينية والاجتماعية القديمة ، وطلعوا فى جرأة وشجاعة على الناس بنظريات جديدة .

وهذا التفكير السياسى كان فى جملته قاصرا على فرنسا فى ذاك الوقت . وفى المانيا شغل فلاسفتها أنفسهم بأعوص قضايا الفلسفة وأعمقها . أما فى انجلترة فقد كانت الصناعة والتجارة فى ازدياد وانتشار ، ولم يكن أكثر الناس فيها ميالين الى التفكير الا اذا فرضت الظروف عليهم ذلك فرضا .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر بانجلترة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كتاب مشهور هو كتاب آدم سميث المسمى « ثروة الشعوب » . لم يكن كتابا عن السياسة بمفهومها العام ، وانما كان كتابا عن الاقتصاد السياسى . فهذا الموضوع ، ككل الموضوعات الأخرى فى ذاك العصر ، كان مختلطا بالدين والأخلاق ، ومن ثم كان هنا كثير من سوء فهمه والحيرة فى شأنه .

وقـد عالجه آدم سميث بطريقـة علمية غير عابىء بكل المشـاكل الخلقية ، وحاول أن يجد قوانين طبيعية تضبط الاقتصـاد وتنظمه • والاقتصاد ، كما يحتمل أن تعرفى ، يعـالج سياسة دخل الأفراد والدول وصرفهم من حيث ما ينتجون ويستهلكون ، ومن حيث صلاتهم بعضهم ببعض وبالدول والشعوب الأخرى •

وفى رأى آدم سميث أن كل هذه العمليات المعقدة تقريبا قد حدثت بناء على قوانين طبيعية محددة أوردها فى كتابه • وفى رأيه أيضا أن الحرية الكاملة يجب أن تعطى من أجل تنمية الصناعة فلا يتدخل شىء فى هذه القوانين أو يعترض سبيلها •

كان هذا بدء مذهب سياسة السماح للأشياء بأن تأخـذ طريقهـا الطبيعى وسياسة عدم التدخل فى المشروعات الخاصة ، هـذا المذهب الذى حدثتك قليلا عنه من قبل •

وكتاب آدم سميث لا علاقة له بالأفكار الديمقراطية الجـديدة التى نمت وانتشرت فى فرنسا وقتئذ • ولـكن محـاولته التى تمثلت فى المعالجة العلمية لمشكلة من أهم المشاكل التى أثرت فى الناس والشعوب تظهر أن الناس كانوا يسيرون فى اتجاه جـديد بعيـد عن الاتجـاه اللاهوتى القديم ، وعن نظرته الى كل شىء • ويعتبر آدم سميث واضع علم الاقتصاد ، وكثيرون من علماء الاقتصاد الانجليز فى القرن التاسع عشر قد استوحوا نظرياته ، وتأثروا بأفكاره •

وكان علم الاقتصاد الجديد قاصرا على أساتذة الجامعات وبعض الكتاب المشهورين • ولكن أفكار الديمقراطية الجـديدة كانت فى الوقت ذاته آخذة فى الانتشار ، وقد أعطتها الثورتان الأمريكية والفرنسية شعبية وذيوعا هائلين • فالألفاظ والتعابير الخلابة التى اشتمل عليها اعلان الاستقلال الأمريكى واعلان الحقوق الفرنسى هزت النـاس وبلغت الى

الاعماق من نفوسهم وقلوبهم . كذلك حملت الى الملايين من المستعبدين والمستغلين نشوة الامل ورسالة الانقاذ والخلاص .

فكلا الاعلانين تحدث عن الحرية والمساواة ، وعن السعادة التى هى حق طبيعى لكل انسان . ولكن هذا الاعلان المشتمل على هذه الحقوق القيمة لم يؤد الى حصول النـاس عليهـا . ويمـكن القول بأنه حتى الآن وبعد مرور قرن ونصف قرن على هذين الاعلانين لا يتمتع بهـذه الحقوق الا القليل . ولكن حتى اعلان هذه المبادىء وحـده كان أمرا غير عادى وباعثا على الأمل .

وكانت الفكرة القديمة فى أوربا وغيرها من الأماكن ، وفى المسيحية وغيرها من الأديان ، هى أن الخطيئة والشقاء قضاء محتوم على الانسان عامة ، ويبدو أن الدين أعطى مكانة دائمـة بل وموموقة أيضـا للفقر والبؤس فى هذه الدنيا . فكل ما وعد به الدين ومنى به الانسان من خير وثواب كان ليلقاه فى الحياة الأخرى ، وفى هـذا يأمرنا الدين أن نحتمل كل ما هو مقدر علينا فى استسلام ، وألا نبغى أو ننشـد أى تغيير جوهرى . ومن ثم شـجع الاحسان والتصدق على الفقـير دون التفكير فى القضاء على الفقر أو على النظام الذى أدى اليه . بل ان فكرة الحرية والمساواة ذاتها كانت تتعارض مع النظرة الاستبدادية للكنيسة والمجتمع .

والديمقراطية طبعـا لم تزعم أن كل النـاس فى حقيقـة أمرهم متساوون . لم تستطع الديمقراطية أن تزعم هذا ، لأن من الواضح أن هناك فروقا بين مختلف الناس . فهناك عدم المساواة الجثمـانية التى تؤدى الى أن يكون بعض الناس أقوى من بعض . وهناك عدم المساواة العقلية التى تؤدى الى أن يكون من الناس من هم أكفأ وأكثر عقـلا وحكمة من الآخرين . وهناك عدم المساواة الخلقية التى تؤدى الى أن يكون بعض الناس أنانيين وبعضهم مؤثرين غير أنانيين .

ومن الجائز أن كثيرا من ألوان عدم المساواة ناتج من اختلاف النشأة واختلاف التعليم ، أو عدم التعليم . فاذا أخذنا اثنين متساويين فى الاستعداد والقدرة والمهارة ، وعلمنا أحدهما تعليما حسنا ولم نعلم الآخر أى تعليم ، فاننا نرى بعد سنوات أن الفرق بينهما شاسع . واذا غذينا أحدهما تغذية صحية ، والآخر تغذية رديئة ناقصة فان الأول يشب قويا صحيحا على حين ينشأ الثانى هزيلا مريضا قليل النمو . ولهذا فالنشأة والبيئة والتعليم والتدريب من شأنها أن تحدث فرقا كبيرا بين انسان وانسان . ومن يدرى فلعلنا اذا أعطينا نفس الظروف والفرص للجميع أن يكون عدم المساواة بين الناس أقل بكثير مما هو عليه الآن . وعندى أن هذا أمر محتمل جدا .

ولكن اذا نظرنا للموضوع من وجهة نظر الديمقراطية فاننا نرى انها فى الوقت الذى تسلم فيه بأن الناس فى الواقع غير متساوين ، تقرر أن كل انسان يجب أن يعامل على أن له مثل ما لأى انسان آخر من قيمة سياسية واجتماعية متساوية . فاذا قبلنا هذه النظرية فى جملتها فان الامر ينتهى بنا الى كل نوع من أنواع النتائج الثورية .

ولسنا بحاجة الى الخوض فى هذه النتائج فى هذه المرحلة ، ولكن نتيجة واحدة من هذه النتائج هى أن كل شخص يجب أن يكون له صوت فى انتخاب ممثل أو نائب للبرلمان . فالصوت هو رمز القوة السياسية ، ومفروض أنه اذا كان لكل شخص صوت ، فانه يكون له نصيب مساو لنصيب غيره فى القوة السياسية . ولهذا فان التوسع فى حق الانتخاب كان أحد المطالب الرئيسية للديمقراطية خلال القرن التاسع عشر . فحق الانتخاب لكل من بلغ سن الرشد يعنى أن كل واحد من هؤلاء يجب أن يكون له صوت فى الانتخاب . ولعهد طويل كان غير مسموح للنساء بالانتخاب . وحديثا جدا قامت النساء ، ولا سيما فى بريطانيا ، بصخب شديد من أجل المطالبة بحقهن الانتخابى .

وفى معظم الدول التقدمية قد أعطى الآن حق الانتخاب لكل من بلغ سن الرشد من الرجال والنساء على السواء •

والعجيب فى هذا الموضوع هو أن معظم الناس عندما حصلوا على حق الانتخاب وجدوا أنه لم يحدث فرقا كبيرا بالنسبة لهم • فعلى الرغم من اكتسابهم هذا الحق لم يكن لهم قوة أى قوة فى الدولة ، لأن اعطاء الحق فى الانتخاب لرجل جائع أمر عديم الجدوى والنفع •

فالرجال ذوو القوة والسلطة الحقيقية يستطيعون استغلال جوعه ويجعلونه يؤدى أى عمل يعود عليهم بالمنفعة • وعلى هذا فالقوة السياسية التى افترض تولدها من حق الانتخاب وجد أنها بدون قوة اقتصادية خيال بلا حقيقة ، كما أن الأحلام الجريئة التى حلم بها الديمقراطيون الأوائل من أن المساواة ستتلو حق الانتخاب لم تتحقق •

على أية حال ان هذا كان تطورا حديث العهد جدا • ففى نهاية القرن الثامن عشر ، وبداية القرن التاسع عشر كان هناك تحمس شديد بين صفوف الديمقراطيين • فالديمقراطية كان ينظر اليها على أنها ستجعل كل انسان مواطنا حرا متساويا مع غيره ، وأن حكومة الدولة ستعمل من أجل سعادة كل انسان •

كذلك وجد رد فعل شديد ضد استبداد ملوك وحكومات القرن التاسع عشر ، وضد اساءة استعمال سلطتهم المطلقة • وقد أدى هذا بالناس الى المناداة بحقوق الأفراد فى تصريحاتهم • ولا شك أن ما نادى به الاعلانان الأمريكى والفرنسى من حقوق للأفراد دون ربطها بالتزاماتهم ازاء المجتمع كان نقطة ضعفهما • فليس بالأمر السهل فى المجتمع المعقد أن تفصل الأفراد وتعطيهم حرية كاملة • فمصالح الفرد

والجماعة قد تتصادم ، بل انها تتصادم فعلا . ومهما يكن من أمر فقد ناصرت الديمقراطية الحرية الفردية الى حد كبير .

فانجلترة التى كانت فى القرن التاسع عشر متخلفة فى الأفكار السياسية قد تأثرت تأثرا كبيرا بالثورتين الأمريكية والفرنسية . وكان رد الفعل الأول فيها هو الخوف من الأفكار الديمقراطية الجديدة، ومن احتمال وقوع ثورة اجتماعية ، ومن ثم أصبحت طبقاتها الحاكمة أكثر محافظة ورجعية .

ولكن مع ذلك انتشرت الأفكار الجديدة بين المثقفين . فتوماس بين Thomas Paine كان من الشخصيات الانجليزية فى هذا العصر . لقد كان فى أمريكا ابان حرب الاستقلال وساعد الأمريكيين ، ويبدو أنه كان مسئولا الى حد ما عن اعتناق الأمريكيين لفكرة الاستقلال التام، وقد ألف عند عودته الى انجلترة كتاب « حقوق الانسان » دفاعا عن الثورة الفرنسية التى كانت قد بدأت .

ففى هذا الكتاب هاجم الملكية ودافع عن الديمقراطية ، وقد اعتبرته الحكومة الانجليزية بسبب ذلك مجرما خارجا عن حماية القانون ، فاضطر عندئذ أن يفر الى فرنسا . وفى فرنسا سرعان ما أصبح عضوا فى المجلس القومى ، ولكن اليعاقبة سجنوه فى عام ١٧٩٣ لمعارضته فى اعدام لويس السادس عشر .

وفى سجن باريس كتب كتابا آخر هو « عصر العقل » انتقد فيه النظرة الدينية . وقد أفرج عنه بعد وفاة روبسبيير . ولأنه كان خارج انجلترة حكمت المحاكم الانجليزية بالسجن على الناشر الانجليزى لكتابه « عصر العقل » ، الذى اعتبر كتابا خطرا على المجتمع، لافتراض أن الدين ضرورى للابقاء على الفقراء فى مكانهم . كذلك حكم بالسجن على بعض ناشرين ، من بينهم نسباء ، تجرءوا على طبع كتاب « بين » .

وانه لأمر ذو بال أن نرى شيلى الشاعر يرسل خطاب احتجاج الى القاضى ·

وتعتبر الثورة الفرنسية فى أوربا أم الأفكار الديمقراطية التى انتشرت أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر · وفى الحقيقة ان أفكار هذه الثورة استمرت فعالة على الرغم من الأحوال التى كانت تتغير تغيرا سريعا · فهذه الأفكار الديمقراطية كانت رد الفعل الذكى الواعى ضد الملوك والسلطة الاستبدادية ، كما كانت مؤسسة على أحوال سابقة لدور التصنيع ·

ولكن الصناعة الجديدة واستخدام البخار والآلات الضخمة الكبيرة قد قلبت النظام القديم رأسا على عقب· ومن الغريب مع هذا أن التقدميين والديمقراطيين فى أوائل القرن التاسع عشر تجاهلوا هذه التغيرات والتطورات واستمروا يتكلمون بعبارات الثورة الخلابة وبلغة اعلان حقوق الانسان · وربما كانت هذه الأشياء بالنسبة لهم مجرد أمور مادية ، لم تؤثر فى مطالب الديمقراطية العليا من روحية وخلقية وسياسية ·

بيد أن الأمور المادية لها طريقة ترفض بها أن تكون متجاهلة ، ومن المهم أن نعرف مدى صعوبة تخلى الناس عن الأفكار القديمة واعتناق الأفكار الجديدة · فهم يغمضون أعينهم ويقفلون عقولهم ويرفضون أن يروا · وهم يقاتلون من أجل القديم متمسكين به حتى ولو آذاهم وأضر بهم · ويكادون يفعلون أى شىء الا أن يتقبلوا الأفكار الجديدة وأن يوفقوا بين أنفسهم وبين الأحوال الجديدة ، ذلك لأن قوة المحافظة قوة كبيرة غير عادية ·

فالتقدميون الذين يتخيلون أنفسهم أسرع من غيرهم فى فهم الجديد وتقبله ، كثيرا ما يتمسكون بالقديم الزائف ويقفلون أعينهم عن

الأحوال المتغيرة . فلا عجب أن يكون التقدم بطيئا ، وأن يحدث تخلف كبير بين الأوضاع الحقيقية ، وبين أفكار الناس ، مما يؤدى الى مواقف ثورية .

ولهذا كانت الديمقراطية لعشرات السنين استمرارا لتقاليد الثورة الفرنسية وأفكارها ، ففشل الديمقراطية فى أن توفق وتوائم بين نفسها وبين الأوضاع الجديدة أدى الى ضعفها قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، والى انكار كثيرين من الناس لها فيما بعد فى القرن العشرين . وفى الهند اليوم لا يزال كثير من ساستنا التقدميين يتكلمون بلغة الثورة الفرنسية وحقوق الانسان غير مقدرين أن أشياء كثيرة قد حدثت منذ قيام هذه الثورة .

وقد آمن الديمقراطيون الأوائل بالمذهب العقلى الذى يحكم العقل وحده ويرفض ما عداه . فمطالبتهم بحرية الفكر وحرية القول قلما يمكن التوفيق بينها وبين علم اللاهوت والدين الجازم القاطع . وهكذا انضمت الديمقراطية مع العلم فى اضعاف موقف العقائد اللاهوتية . وقد بدأ الناس يتجرءون على النظر فى التوراة بعين مجردة كما لو كان كتابا عاديا وليس شيئا يجب أن يتقبلوه قبولا أعمى وبدون نظر واختبار .

فهذا النقد للتوراة سمى « النقد الأسمى » ، وقد انتهى النقاد الى أن التوراة مجموعة أعمال كتبها أشخاص مختلفون فى عصور مختلفة. وكان من رأيهم أيضا أن المسيح لم يقصد أن يؤسس ديانة . وقد تزعزعت بسبب هذا النقد كثير من المعتقدات القديمة .

ولما كان تقدم العلوم وانتشار الأفكار الديمقراطية قد أخذا يعملان على اضعاف أسس الديانة القديمة، فان محاولات بذلت لتشكيل فلسفة تحل محل الديانة القديمة . ومن هذه المحاولات محاولة

الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت الذى عاش من ١٧٩٨ الى ١٨٥٧ .

فهذا الفيلسوف الفرنسى شعر بأن فلسفة الالهيات القديمة والأديان العقيدية قد استنفدت زمنها ، ولكنه كان مقتنعا بأن نوعا ما من الدين ينبغى أن يبقى كضرورة اجتماعية . من أجل ذلك اقترح « دين الانسانية » وسماه « الايجابية » . وقوام هذا الدين هو الحب والنظام والتقدم ، ولم يكن فى هذه الفلسفة الدينية شىء خارق للعادة لأنها أسست على العلم .

وفكرة تقدم الجنس البشرى كانت من وراء هذه الفلسفة كما كانت حقيقة من وراء كل أفكار القرن التاسع عشر الشائعة تقريبا .

وقد ظلت ديانة « كونت » عقيدة قلة من المثقفين ، ولكن تأثيره العام على الفكر الأوربى كان تأثيرا كبيرا . ويقال انه هو أول من بدأ دراسة علم الاجتماع الذى يعالج المجتمع الانسانى والثقافة الانسانية .

وكان يعاصر كونت ، وان كان قد عاش سنوات كثيرة بعده ، الفيلسوف والاقتصادى الانجليزى جون ستيوارت ميل ، ١٨٠٦ — ١٨٧٣ . وقد تأثر ميل بتعاليم كونت وأفكاره الاجتماعية ، وحاول أن يعطى توجيها جديدا لمدرسة الاقتصاد السياسى الانجليزية التى نشأت على تعاليم آدم سميث وأدخلت بعض المبادىء الاجتماعية على التفكير الاقتصادى .

ولكن ميل معروف أكثر كزعيم لمذهب المنفعة الذى يقول بأن سعادة الانسان هى أمنية الفضيلة ومرماها . فهذا المذهب كان نظرية جديدة بدأت مبكرة قليلا فى انجلترة ، ولكن الفضل يرجع الى ميل فى ابرازها ولفت الأنظار اليها . وفلسفتها الموجهة ، كما يوحى اسمها ، هى المنفعة أو المصلحة . « فأكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد

ممكن من الناس » كان المبدأ الاساسى لأتباع مذهب المنفعة ، والمقياس الوحيد عندهم للخطأ والصواب ٠

فالأعمال يحكم عليها بالصواب بالنسبة الى ما تحدثه عادة من سعادة ، ويحكم عليها بالخطأ بالنسبة الى ما تحدثه عادة من عكس السعادة ٠ وقد نادى أتباع هذا المذهب بتنظيم المجتمع والحكم على أساس وجهة النظر هذه ، أى احداث أكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس ٠

فهذا المذهب مخالف تماما للمذهب الديمقراطى الذى يدعو الى حقوق متساوية لكل الناس ٠ فأكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس يستوجب بصورة مدركة التضحية بأقل عدد منهم وعدم سعادتهم ٠ لقد أردت فقط أن أبين لك هذا الفرق دون التعرض الى درسه أو تفصيله هنا ٠ وهكذا أصبحت الديمقراطية تعنى حقوق الأغلبية ٠

وكان جون ستيورت ميل مدافعا كبيرا عن الفكرة الديمقراطية القائلة بحرية الفرد ٠ وقد ألف كتابا صغيرا اشتهر فيما بعد سماه « عن الحرية » ٠ ولكى تأخذى فكرة عن هذا الكتاب وآراءصاحبه أقدم اليك هنا نبذة منه عن حرية القول وحرية التعبير عن الرأى ٠ قال :

« ٠٠٠ ان كم الأفواه عن القول ومنعها من التعبير عن الرأى يعتبر شرا غريبا ، انه نوع من سرقة الجنس البشرى فى الجيل الحاضر والأجيال القادمة ٠ فاذا كان الرأى صوابا فان الناس محرومون من فرصة استبدال الصواب بالخطأ ٠ واذا كان الرأى خطأ فانهم يفقدون ما يكاد يكون نفعا كبيرا ، ألا وهو الادراك الأوضح والاثر الاشد للحقيقة الناشئة من اصطدامها بالخطأ ٠ ولا نستطيع أن نكون متأكدين من

أن الرأى الذى تسعى جهدنا لخنقه رأى خاطيء • وحتى اذا كنا متأكدين من خطئه فان خنقه شر أيضا » •

فموقف كهذا لا يستطاع التوفيق بينه وبين الديانة العقيدية والاستبداد ، ولا يعدو موقف فيلسوف ينشد الحقيقة ويسعى وراءها •

لقد أعطيتك أسماء بعض أعلام المفكرين فى أوربا الغربية خلال القرن التاسع عشر لتظهر طريق تطور الأفكار ولتكون معالم فى دنيا الفكر • ولكن تأثير هؤلاء المفكرين والديمقراطيين الأوائل عامة كان مقصورا تقريبا على الطبقات المثقفة • والى حد ما تسرب هذا التأثير من المثقفين الى غيرهم •

ومع أن التأثير المباشر على الجماهير كان تأثيرا ضئيلا فان التأثير غير المباشر للتصور الديمقراطى كان تأثيرا كبيرا • وحتى التأثير المباشر فى بعض الأمور كالمطالبة بحق الانتخاب كان تأثيرا كبيرا •

وعند ما اقترب القرن التاسع عشر من نهايته كانت حركات وأفكار أخرى قد تطورت ، كحركة الطبقة العاملة وفكرة الاشتراكية• فهذه أثرت على الأفكار الديمقراطية الشائعة وتأثرت بها •

ومن الناس من نظر الى الاشتراكية على أنها بديل للديمقراطية ، ومنهم من اعتبرها جزءا ضروريا منها • وقد رأينا تشبع الديمقراطيين بأفكار الحرية والمساواة وحق كل انسان فى السعادة على قدم المساواة مع غيره • ولكن سرعان ما أدركوا أن السعادة لا تتحقق بمجرد كونها حقا أساسيا • واذا صرفنا النظر عن أشياء أخرى فان قدرا معينا من الحياة الحسنة أمر ضرورى ، فالشخص الذى يتضور جوعا لا يحتمل أن يكون سعيدا •

وقد قادهم هذا الى أن يفكروا فى أن السعادة تعتمد على حسن توزيع الثروة بين الناس ، وهذا النحو من التفكير يدخل فى الاشتراكية التى سأحدثك عنها فى رسالتى القادمة ٠

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر انضمت الديمقراطية الى القومية واتحدتا معا فى كل قطر يخضع لحكم قطر آخر أو حيث الشعوب تقاتل من أجل الحرية ٠ فمازينى الايطالى كان مثالا لهذا النوع من القومية الديمقراطية ٠

وفى أواخر هذا القرن فقدت القومية طابعها الديمقراطى تدريجا وأصبحت أشد اعتداء وسلطاناً وزعامة ٠ فالدولة أصبحت الاله الذى يجب أن يعبده كل فرد فيها ٠

وكان رجال الأعمال الانجليز هم زعماء الصناعة الجديدة ، وهؤلاء لم يهتموا أو يبالوا كثيرا بالمبادىء الديمقراطية السامية ، ولا بحق الناس فى الحرية ٠ ولكنهم اكتشفوا أن اعطاء أكبر قسط من الحرية من شأنه أن يعود على أعمال التجارة والصناعة بالنفع والخير والازدهار ٠ كما اكتشفوا أن الديمقراطية رفعت من مستوى العمال وأوهمتهم أن لهم بعض الحرية ، وجعلتهم أكثر كفاية فى أعمالهم ٠ وكان نشر التعليم الشعبى لازما أيضا للكفاية الصناعية ٠

وعند ما أدرك رجال الأعمال والصناعة ما فى ذلك من نفع وغنم لهم وافقوا فى تقى وورع على أن يمنحوا الشعب هذه المنن والهبات٠ وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انتشر بسرعة نوع من التعليم بين الجماهير فى انجلترة وغرب أوربا ٠

١٣٢ — ظهور الاشتراكية

١٣ فبراير ١٩٣٣

كتبت اليك عن تقدم الديمقراطية ، ولكن تذكرى أنه كان تقدما وليد حرب شاقة • فمن لهم مصالح من الناس فى نظام قائم لايريدون التغيير ، ويقاومونه بكل ما أوتوا من قوة •

ومع هذا فالتقدم أو الترقى يعنى التغيير ، فأى نظام أو أسلوب للحكم محتوم عليه أن يفسح المكان لما هو خير منه • وهؤلاء الذين يرغبون فى تقدم من هذا القبيل يتحتم عليهم بالضرورة أن يهاجموا النظم والعادات القديمة ، ومن ثم يقودهم طريقهم الى الانكار الدائم للأوضاع القائمة والى الاصطدام بمن ينتفعون منها •

فالطبقات الحاكمة فى أوربا الغربية قاومت كل تقدم خطوة خطوة • ففى انجلترة لم يستسلموا ويذعنوا الا عند ما وجدوا أن الرفض قد يؤدى الى ثورة عنيفة • وسبب آخر لتقدمهم ، كما ذكرت من قبل ، هو الشعور بين رجال المال والأعمال بأن بعض الديمقراطية فيه غنم لهم ، وأنه يعود على التجارة والصناعة بالرواج والازدهار •

وأود هنا أن أعود فأذكرك بأن هـذه الأفكار الديمقراطية كانت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر مقصورة الى حد كبير على

المثقفين . وقد تأثر العمال تأثرا قويا بنمو الصناعة ، واضطروا تبعا لذلك أن يهجروا الأرض الى المصانع . ثم أخذت طبقة من العمال الصناعيين تظهر وتتكدس فى مدن للمصانع قبيحة غير صحية ، وعلى مقربة من مناجم الفحم عادة .

وكان هؤلاء العمال يتطورون تطورا سريعا ، ويكشفون عن عقلية جديدة ، كما كانوا يختلفون كل الاختلاف عن العمال الزراعيين وأرباب الحرف ممن ازدحموا على المصانع مدفوعين بدافع الجوع . ولما كانت انجلترة أسبق من غيرها فى اقامة هذه المصانع ، فانها كانت أيضا أول قطر ظهرت فيه طبقة العمال الصناعيين هذه .

وكانت الأحوال فى المصانع مرعبة مفزعة ، وأسوأ من ذلك كانت بيوت العمال وأكواخهم ، وبين العمال كان يتفشى البؤس المؤلم الشديد . وكان الأحداث الصغار والنساء يشتغلون ساعات طوالا لدرجة لايكاد العقل يصدقها .

ومع هذا فكل المحاولات التى بذلت لتحسين أحوال المصانع ومساكن العمال عن طريق التشريع قد باءت بالفشل لمعارضة أرباب المصانع لها معارضة قوية ، فهؤلاء كانوا يردون على كل محاولة للاصلاح بأنها تدخل فاضح فى حقوق الملكية واعتداء صارخ عليها . وحتى محاولة ادخال المرافق الصحية على المنازل اجباريا قد عورضت أيضا على أساس أنها تدخل فى حقوق الملكية .

وكان العمال الانجليز الفقراء يموتون من الجوع البطىء والارهاق فى العمل ، فبعد الحروب النابليونية كانت انجلترة مجهدة منهكة ، تعانى انهيارا اقتصاديا ، ويقاسى العمال فيها أكثر من أى طبقة أخرى . والنتيجة الطبيعية لذلك أن العمال أرادوا أن يكونوا جمعيات ليحموا أنفسهم ويقاتلوا من أجل الوصول الى أحوال خير من الأحوال

التى كانوا عليها . نعم ، كان لديهم من قبل نقابات من أرباب الحرف والعمال المهرة ، ولكن هذه كانت شيئا مختلفا تمام الاختلاف ، ولا بد أن ذكرى هذه النقابات كانت اغراء لعمال المصانع بأن يكونوا جمعيات خاصة بهم ، ولكنهم منعوا من عمل ذلك .

فالطبقات الانجليزية الحاكمة قد أقلقتها الثورة الفرنسية وأفزعتها الى حد بعيد ، ولهذا أصدرت قوانين تقضى بمنع العمال الفقراء من اجتماع بعضهم ببعض لبحث مشاكلهم وأسباب متاعبهم . وقد أدت دائما دعوى المحافظة على « القانون والنظام » فى انجلترة، وكما تؤدى الآن فى الهند خدمة نافعة جدا فى تحقيق مآرب الطبقة الحاكمة القليلة العدد ، ومرء جيوبها .

ولكن اصدار قوانين تحرم اجتماع العمال لم تحسن من أحوالهم. بل على العكس استثارت غضبهم وجعلتهم بسبب فقدان الأمل على أهبة الخروج عن طورهم . ومن أجل ذلك كونوا جمعيات سرية ، وأخذ بعضهم على بعض المواثيق والعهود التى تحتم التزام السرية والاجتماع فى غلس الظلام وفى أماكن نائية بعيدة عن الأنظار . وكانوا ، اذا خانهم أحد أو انكشف أمرهم ، يقدمون الى القضاء فيوقع عليهم أفظع العقوبات . وفى حالات غضبهم حدث أحيانا أن خربوا الآلات التى كانوا يعملون عليها ، وأشعلوا النيران فى المصانع ، حتى لقد قتلوا بعض أسيادهم .

وأخيرا ، وعلى التحديد فى عام ١٨٢٥ ، رفعت القيود جزئيا عن جمعيات العمال ، فبدأت اتحاداتهم تتشكل وتظهر بواسطة العمال ذوى المهارة الفنية والأجور المرتفعة . أما الغالبية العظمى من العمال غير المهرة فقد ظلوا غير منظمين لمدة طويلة . وهكذا أخذت حركة العمال شكل اتحادات تكونت لتحسين أحوال العمال عن طريق المساومة الجماعية .

وكان سلاح العمال الوحيد الفعال هو حق الاضراب عن العمل الذى كان يترتب عليه تعطيل المصانع وشل حركتها·ولا شك أن هذا كان سلاحا قويا ، ولكن كان فى يد أرباب المصانع سلاح أمضى وأقوى وهو القدرة على اماتتهم جوعا حتى يذعنوا ويستسلموا · وهكذا استمر كفاح الطبقة العاملة مع تضحيات كثيرة من جانب العمال ومكاسب ضئيلة بالنسبة لهم · ولما كانوا لم ينالوا بعد حق الانتخاب فانه لم يكن لهم تأثير مباشر على البرلمان · ولائحة قانون الانتخاب المعدلة التى صدرت عام ١٨٣٢ ، والتى لقيت معارضة قوية ، لم تعط حق الانتخاب الا لاغنياء الطبقة الوسطى فقط ، أما الطبقة العاملة وفقراء الطبقة الوسطى فلم يكن لهم بمقتضى هذه اللائحة حق فى الانتخاب ·

وفى هذه الاثناء ظهر من بين أرباب المصانع فى مدينة مانشستر رجل انسانى تألم لأحوال العمال البائسة المحزنة · ذلك الرجل المحب للخير العام هو « روبرت أوين » Robert Owen وكان أول ماقام به هو أنه أدخل اصلاحات كثيرة على مصانعه وحسن من أحوال عماله هو · ولم يقف عند هذا الحد وانما أثار حركة وضجة قوية بين صفوف طبقته من أرباب المصانع محاولا أن يقنعهم عن طريق الحجة بضرورة معاملة العمال معاملة حسنة · ويرجع الفضل اليه نسبيا فى موافقة البرلمان الانجليزى على أول قانون لحماية العمال من طمع أرباب المصانع وأنانيتهم · وقد صدر هذا القانون الذى سمى بقانون المصانع عام ١٨١٩ · وكان من نصوص هذا القانون نص يحرم اشتغال الأطفال البالغين من العمر تسع سنوات أكثر من اثنتى عشرة ساعة يوميا · فهذا النص فى ذاته يعطيك فكرة عن الأحوال السيئة الشنيعة التى كان العمال مضطرين الى الخضوع والاذعان لها ·

ويقال ان روبرت أوين هو أول من استعمل كلمة « الاشتراكية » حوالى عام ١٨٣٠ · وطبيعى ان فكرة التقريب بين مستوى الأغنياء والفقراء ، وتوزيع الملكية توزيعا متساويا تقريبا لم تكن فكرة جديدة ،

فكثيرون من الناس قد أيدوا هذه الفكرة وحبذوها فى الماضى • وقد ظهر حتى فى مجتمعات العصور الأولى نوع من الشيوعية حيث كانت الأرض وغيرها ملكا شائعا بين كل أفراد القرية أو الجماعة • وهذا يسمى بالشيوعية البدائية ، وقد وجدت فى أقطار كثيرة منها الهند •

ولكن الاشتراكية الجديدة كانت شيئا أكثر جدا من الرغبة الغامضة فى التسوية بين الناس • لقد كانت أكثر تحديدا ، كما قصد بها أن تطبق على نظام الانتاج فى المصانع ، ومن ثم كانت وليدة النظام الصناعى •

وكانت فكرة أوين تتلخص فى تكوين جمعيات تعاونية للعمال وفى أن يكون لهم حصة أو نصيب فى المصانع • وقد أسس مصانع ومستعمرات نموذجية فى انجلترة وأمريكا كان لها حظ من النجاح • ولكنه فشل فى استمالة الحكومة أو اخوانه من أرباب المصانع الى وجهة نظره • على أية حال لقد كان تأثيره كبيرا فى حياته ، كما يرجع اليه الفضل فى شيوع كلمة الاشتراكية التى استهوت أفئدة الملايين من الناس •

وفى كل هذا الوقت كانت الصناعة الرأسمالية تنمو وتزداد ، وكلما سجلت نجاحا اثر نجاح تزايدت مشكلة الطبقة العاملة • وقد أدت الرأسمالية الى انتاج أكثر فأكثر • وبسبب هذا ازداد تعداد السكان بسرعة هائلة حيث أصبح فى مقدور أكثر الناس أن يعملوا ويتغذوا • وقد أنشئت مؤسسات تجارية وصناعية ضخمة عن طريق التعاون المعقد بين الطبقات المختلفة • وفى نفس الوقت قضى على منافسة المؤسسات التجارية والصناعية الصغيرة •

وقد أخذ الغنى والثراء يتدفق على انجلترة ، ولكن كثيرا من هذا الغنى والثراء استخدم فى انشاء مصانع جديدة أو طرق حديدية أو غير ذلك من مشروعات الاستثمار • وحاول العمال أن يحصلوا على

امتيازات وشروط أفضل عن طريق الاضرابات ، ولكن هذه فشلت في العادة فشلا ذريعا · عندئذ لم يجد العمال أمامهم الا أن ينضموا الى حركة الاصلاح التى ظهرت عام ١٨٣٧ ، ولكن حركة الاصلاح هذه انهارت فى عام ١٨٤٨ المعروف بعام الثورة ·

وقد أذهل نجاح الرأسمالية الناس وبهر أبصارهم ، ولكن كان لا يزال هناك بعض التقدميين والانسانيين الذين لم يشعروا بالسعادة ازاء منافسة الرأسمالية القاتلة ، وازاء الآلام التى سببتها للعمال على الرغم من ازدياد غنى الدولة وثرائها ·

فهؤلاء التقدميون والانسانيون الذين ظهروا فى انجلترة وألمانيا وفرنسا نظروا فى أمور شتى يصح أن يكون كل واحد منها بديلا للرأسمالية ، واقترحوا بعض حلول للمشكلة · وقد انضووا جميعا تحت علم الاشتراكية أو التعاونية أو الديمقراطية الاجتماعية ، وهذه الكلمات الثلاث تكاد كل واحدة منها تكون مرادفة للأخرى ·

وكان هناك اتفاق عام بين هؤلاء المصلحين على أن التعب أو الخلل يكمن فى الملكية الخاصة وتحكم الصناعة · فاذا كانت الدولة هى التى تملك وتتحكم بدل الرأسماليين ، أو على الأقل اذا كانت تملك وسيلة الانتاج الأساسية كالأرض والمصانع الرئيسية فان خطر استغلال العمال لايمكن عندئذ أن يكون ·

من أجل ذلك بحث الناس بحثا مبهما تقريبا عن بديل للنظام الرأسمالى ، ولكن النظام الرأسمالى لم تكن لديه النية على الانهيار ، بل كان ينتقل من قوة الى قوة ·

وأول من دعا الى هذه الأفكار الاشتراكية ونادى بها هم المثقفون ورجال الفكر ، وان كان قد انضم اليهم فى هذا واحد من أرباب المصانع

هو روبرت أوين • أما حركة اتحادات العمال فقد نمت وانتشرت لمدةما على سياسة مختلفة هى المطالبة بأجور مرتفعة وبأحوال من المعيشة والمعاملة خير من الأحوال التى كان عليها العمال ، ولكن هذه الاتحادات تأثرت طبيعيا بهذه الأفكار ثم أثرت هى بدورها تأثيرا كبيرا فى حركة الاشتراكية • •

وكانت أكثر الدول الأوربية تقدما فى الصناعة هى انجلترة والمانيا وفرنسا • ففى كل دولة من هذه الدول الثلاث نمت الاشتراكية نموا مختلفا على حسب قوة الطبقة العاملة وشخصيتها فى كل دولة • وعلى الاجمال كانت الاشتراكية الانجليزية اشتراكية محافظة تؤمن بطرق التطور والتقدم البطىء • أما اشتراكية أوربا فكانت أكثر تقدمية وثورية • وفى أمريكا كانت الأوضاع مختلفة جدا ، نظرا لاتساع القارة وقلة الأيدى العاملة ، ومن ثم لم تظهر فيها حركة عمالية قوية لعهد طويل •

وظلت السيادة للصناعة الانجليزية فى العالم لمدة ثلاثين سنة تقريبا ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر ، وتبعا لذلك تدفق الثراء على انجلترة من أرباح الصناعة ومن استغلال الهند وغيرها من المستعمرات • وقد تسرب جزء من هذا الثراء حتى الى العمال، وارتفع مستوى معيشتهم الى درجة لم يعرفوها من قبل • ولما كان الرخاء والثورة لايلتقيان فان روح العمال الانجليز الثورية قد اختفت • وحتى الاشتراكية الانجليزية أصبحت أكثر أنواع الاشتراكية اعتدالا ، وسميت بالفابية نسبة الى « فابيوس » القائد الرومانى القديم الذى رفض أن يلتحم مع هانيبال عدوه فى معركة مباشرة ، وانما أتعبه وأنهكه حتى قضى عليه شيئا فشيئا (١)

وفى عام ١٨٦٧ أدخلت تعديلات على حق التصويت فى الانتخابات • وبمقتضى هذه التعديلات صار لبعض عمال المدن حق الانتخاب • وقد

(١) أنظر ص ٢٣

كان مسلك اتحادات العمال مسلكا حميدا ، لما كانت عليه من رخاء ويسر ، حتى لقد انتخب العمال حزب الأحرار البريطانى .

وبينما كانت انجلترة راضية عن نفسها ومدلة بيسرها وثرائها كان مذهب جديد ينتشر فى أوربا ويجد تأييدا حارا وانعطافا . ذلك هو المذهب « الفوضوى » . وهذه كلمة تخيف وتفزع كثيرين ممن لايعرفون شيئا عنها . فالفوضوية تعني مجتمعا بدون حكومة مركزية ما أمكن ومع قدر كبير من الحرية الفردية .

فالمثل الأعلى للفوضوى كان مرتفعا ارتفاعا عجيبا مخالفا للمألوف . فقد كان « يؤمن بفكرة حكم جمهورى قائم على الايثار والاحسان والتضامن واحترام حقوق الآخرين عن طواعية واختيار » .

وفى نظره أنه ينبغى أن يكون هناك اكراه أو اجبار من جانب الدولة . وقد قال ثورو الامريكى : « ان أحسن حكومة لدى الفوضويين هى التى لاتحكم مطلقا . والحكومة التى يريدونها ويقبلونها هى التى يكون الناس مهيئين لها » .

فهذا التصور للحكم يبدو مثلا رفيعا جدا . فالحرية الكاملة لكل فرد ، واحترام الناس بعضهم بعضا ، وعدم الأنانية ، والتعاون المنبعث عن الارادة ، كل هذه أشياء جميلة . ولكن دنيا اليوم بكل أنانيتها وعنفها بعيدة كل البعد عن تلك التصورات .

ولا بد أن آمل الفوضويين فى عدم وجود حكومة مركزية أو فى وجود الحد الأدنى من حكومة قد نشأ كرد فعل للحكم الفردى الاستبدادى الذى عانى الناس منه طويلا . فالحكومات فى نظرهم قد حطمت الناس واستبدت بهم ، ولهذا فلا ينبغى وجود الحكومات .

وقد شعر الفوضويون أيضا أن الدولة فى ظل بعض صور من

الاشتراكية ، وبحكم أنها صاحبة كل وسائل الانتاج قد تصبح هى نفسها طاغية مستبدة • من أجل ذلك كان الفوضويون اشتراكيين فى صورة ما يعلقون أهمية عظمى على الحرية الفردية والمحلية • ومن ناحية أخرى كان كثيرون من الفوضويين مستعدين للموافقة على أن المذهب الفوضوى مثل أعلى ، ولكنهم كانوا يرون أن الضرورة تقتضى أن تكون للدولة لمدة ما حكومة مركزية قوية أساسها الاشتراكية • ولهذا فمع ما كان من فرق كبير جدا بين الاشتراكية والفوضوية فانه كانت هناك ظلال كثيرة من كليهما يتلاقى ويتداخل بعضها فى بعض شيئا فشيئا •

وقد أدت الصناعة الحديثة الى ظهور طبقة منظمة من العمال • والمذهب الفوضوى ما كان يمكن بطبيعته أن يكون حركة منظمة تنظيما حسنا • ولهذا كانت الفرصة ضئيلة جدا أمام انتشار الأفكار الفوضوية فى الدول الصناعية حيث كانت اتحادات العمال وما أشبهها آخذة فى النمو والظهور • ونتيجة لذلك لم يكن فى انجلترة أو المانيا عدد كبير من الفوضويين • أما فى جنوب أوربا وشرقها المتخلفين فى حركة التصنيع فان التربة كانت أكثر خصوبة لنمو الأفكار الفوضوية • وكلما انتشرت الصناعة الحديثة فى جنوب أوربا وشرقها أصبح المذهب الفوضوى أضعف فأضعف • ويكاد يكون اليوم مذهبا ميتا ، ولكنه حتى الآن ممثل الى درجة ما فى بعض الأقطار غير الصناعية كأسبانيا •

والمذهب الفوضوى كمثل أعلى قد يكون فكرة رفيعة جدا ، ولكنه قدم ملجأ لا الى الساخطين والناقمين فحسب ، وانما للأنانيين أيضا ممن حاولوا منفعة أنفسهم تحت ستار المثل الأعلى • وقد قادهم هذا المذهب الى نوع من العنف الذى أصبح مرتبطا ومقترنا فى ذهن كل انسان بكلمة « الفوضوية » والذى أدى الى فقدان الايمان بما فى هذه الكلمة من حقيقة • ولما رأى بعض الفوضويين عجزهم عن القيام بأى

عمل كبير لتغيير المجتمع كما أرادوا ، فقد قرروا الدعاية لمذهبهم بأسلوب طريف • ولم يكن ذلك غير « الدعاية بالفعل لا بالقول » • وبالتأثير بالمثال الشجاع ، وبالأعمال الجريئة ، وبمقاومة الطغيان والاستبداد ، والتضحية بالنفس •

وقد قامت ثورات مشبعة بهذه الروح فى أماكن مختلفة ، وهؤلاء الذين اشتركوا فيها لم يتوقعوا أى نجاح فى ذاك الوقت • وعن طواعية واختيار عرضوا حياتهم للخطر بالاقدام على هذا النوع الطريف من الدعاية لقضيتهم • وبطبيعة الحال أخضعت هذه الثورات وقمعت ، وعندئذ بدأ بعض الفوضويين يلجأون الى الارهاب والقاء القنابل وقتل الملوك والموظفين الكبار • وهذا العنف الأحمق دل بوضوح على يأسهم وضعفهم المتزايد ، وقبيل نهاية القرن التاسع عشر أخذت الفوضوية كحركة فى الزوال شيئا فشيئا • وكثيرون من زعماء الفوضويين لم يستحسنوا القاء القنابل والدعاية بالفعل لا بالقول ، ولهذا أنكروها وتبرءوا منها •

ويجدر بى الآن أن أعطيك أسماء بعض أعلام الفوضويين • ومن المفيد أن تلاحظى أن معظم هؤلاء الزعماء الفوضويين كانوا نبلاء مثاليين محبوبين فى حياتهم الخاصة •

وأقدم الزعماء الفوضويين بيير برودون الفرنسى الذى عاش من ١٨٠٩ الى ١٨٦٥ • وأصغر قليلا منه النبيل الروسى ميخائيل باكونين، زعيم عمال أوربا المحبوب ولا سيما فى الجنوب • وقد دخل فى صراع مع ماركس الذى طرده هو وأتباعه من الاتحاد الدولى الذى أسسه • والاسم الثالث الذى ينقلنا الى عصرنا الحاضر هو روسى آخر ونبيل يدعى بطرس كروباتكن Peter Kropatkin ، وقد ألف بعض كتب مهمة عن المذهب الفوضوى وعن موضوعات أخرى • والاسم الرابع والأخير الذى سأذكره هنا هو مالاتيستا الايطالى Enercò Malatesta

الذى بلغ من العمر أكثر من ثمانين سنة . وهو آخر أثر من كبار الفوضويين الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر .

وهناك قصة طريفة عن مالاتيستا يجب أن أقصها عليك . لقد حوكم أمام محكمة فى ايطاليا . وقد ادعى مدعى الحكومة العام أن تأثير مالاتيستا على عمال المنطقة كان تأثيرا كبيرا ، وأن هذا التأثير قد غير من أخلاقهم تغييرا كليا ، ووضع نهاية للجريمة والجرائم حتى لقد أصبحت نادرة . فاذا امتنعت الجرائم فماذا تكون وظيفة المحاكم ؟ ولهذا ينبغى أن يسجن مالاتيستا ! ونتيجة لذلك سجن مالاتيستا ستة أشهر !

ومن سوء الحظ أن المذهب الفوضوى اقترن أكثر مما ينبغى فى الأذهان بالعنف ، وقد نسى الناس أنه فلسفة ومثل أعلى استهوى كثيرين من الرجال الممتازين . وكمثل أعلى لا يزال بعيدا جدا عن دنيانا الحاضرة غير الكاملة . وهيهات أن تجدى أدويته البسيطة فى علاج مدنيتنا المعقدة غاية التعقيد .

١٣٧ — الحرب الأهلية فى أمريكا

٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣

ان العالم القديم بحروبه ومؤامراته ، وملوكه وثوراته ، وأحقاده وقومياته قد استبد بجزء كبير من وقتنا · ولهذا دعينا نعبر الآن المحيط الأطلسى ونزور عالم أمريكا الجديد ، لنرى ماذا كان حظه ومصيره بعد أن طوح بقبضة أوربا بعيدا عنه ·

والولايات المتحدة على وجه الخصوص تستحق اهتمامنا وانتباهنا · فهذه الولايات التى بدأت صغيرة قد نمت وكبرت حتى ليبدو اليوم أنها تسود العالم وتتحكم فى مصيره ·

ولم يعد لانجلترة فى العصر الحاضر مكانة مرموقة ، فهى ليست دائنة العالم الآن ، وانما هى دولة بائسة مدينة مثل كل الدول الأوربية الأخرى ، تلتمس من الولايات المتحدة معاملة كريمة رحيمة ·

فدور الدائن أو مقرض المال قد وقع على عاتق أمريكا ، حيث الثراء يتدفق عليها ، وحيث تنبت أرباب الملايين فى كثرة مذهلة · ولكن لمسها للذهب ، كما هو الحال فى قصة ميداس القديمة ، لم يدخل عليها كثيرا من الفرح والسعادة ، وان عامة الناس فيها ليقاسون اليوم من الحاجة والفقر على الرغم من أرباب ملايينها ·

فالثلاث عشرة ولاية التى على الشاطىء والتى انفصلت عن انجلترة عام ١٧٧٥ كان تعدادها يقل كثيرا عن أربعـــة ملايين نسمة • واليوم يبلغ تعداد مدينة نيويورك وحدها نحو ضعفى هــذا العدد ، كما يبلغ تعداد كل سكان الولايات المتحدة مائة وخمسين مليون نسمة •

وقد ازداد الآن عدد الولايات المنضمة الى الاتحاد ، واتسعت رقعتها حتى وصلت الى المحيط الهادى • وقد شهد القرن التاسع عشر نمو هذا القطر الشاسع الأطراف ، لافى المساحة وتعداد السكان فحسب ، ولكن فى الصناعة الحديثة والتجارة ، والثراء والنفوذ أيضا •

وواجهت الولايات المتحدة صعابا ومشــاكل كثيرة ، واشــتبكت مع أوربا فى بعض الحروب • ولكن أشد ما عانته من محن وشدائد قد نشأ من الحرب الأهلية المريرة المخربة التى نشبت بين ولايات الشـــمال وولايات الجنوب •

وحدث بعد أن استقلت أمريكا وتحررت بسـنوات قليلة أن قامت الثورة الفرنسية وتلتها حروب نابليــون • وحاول كل من انجلتــرة ونابليون أن يقضى كلاهما على تجارة الآخر ، وفى سبيل تحقيق هذا الغرض دخلا فى صراع مع الولايات المتحدة •

فنتيجة للتنافس بين فرنســا وانجلتــرا أصيبت تجــارة أمريكا الخارجية بالشلل ، وهذا بدوره أدى الى حرب أخرى مع انجلترة عام ١٨١٢ • ولم تسفر هذه الحرب التى دامت سنتين عن أى شىء يستحق الذكر • ففى خلال هذه الحرب ، وعلى التحديد عنــدما نفى نابليون الى جزيرة البــا ، أصبحت انجلترة حرة طليقــة اليد ، ولهذا نجحت فى الاســتيلاء على مدينــة واشنجتون العاصمة ، وأحرقتها ، وخربت كل المرافق العامة بما فيها « الكبيتول » مبنى مجلس الشيوخ الأمريكي ،

والبيت الأبيض ، مسكن رؤساء الجمهورية • ولكن الانجليز على الرغم من كل ذلك هزموا فيما بعد •

وقد أضافت الولايات الى رقعتها ، حتى قبل هذه الحرب ، مساحات كبيرة فى الجنوب • وتمثل هذا فى لويزيانا المستعمرة الفرنسية القديمة التى باعها نابليون للولايات عندما أصبح غير قادر على أن يحميها ويدفع عنها شر هجمات الاسطول البريطانى • وبعد ذلك بسنوات قليلة باعت أسبانيا للولايات فى عام ١٨٢٢ ولاية فلوريدا ، وفى عام ١٨٤٨ وعلى اثر حرب ناجحة مع المكسيك انضمت الى الولايات المتحدة بعض ولايات أخرى فى الجنوب الغربى بما فيها ولاية كاليفورنيا ••وكثير من أسماء المدن فى هذا الجزء الجنوبى الغربى لايزال اسبانيا، ويذكرنا بالأيام التى كان الحكم فيها للاسبان أو للمكسيكيين الذين يتكلمون اللغة الاسبانية •

وبينما كانت أوربا تعانى من المحاولات المتكررة للثورة وقمع الثورة استمرت الولايات فى التوسع غربا • وقد ساعد قمع الثورات فى أوربا على الهجرة ، كما جذبت قصص الاراضى الشاسعة والاجور المرتفعة الكثيرين من الأقطار الأوربية • وبانتشار السكان غربا نشأت ولايات جديدة انضمت الى الاتحاد •

وكان بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية اختلاف كبير من البدء • فالولايات الشمالية كانت صناعية تنتشر فيها بسرعة المصانع التى تعتمد على الآلات الكبيرة الحديثة ، أما فى الولايات الجنوبية فكانت تنتشر المزارع الكبيرة التى كان يعمل فيها عمال من العبيد •

فالعبودية فى الجنوب كانت مشروعة قانونا • ولكنها لم تكن محبوبة أو ذات أهمية فى الشمال • وكان العبيد طبعا من زنوج افريقية ، أما الجنس الابيض فلم يكن منه عبيد • نعم لقد تضمن اعلان الاستقلال

المبدأ القائل « كل الناس قد ولدوا متساوين » · ولكن هذا يطبق على البيض فقط ، لاعلى السود ·

وقصة جلب الزنوج من افريقية قصة بالغة الاسى والحزن · فتجارة العبيد بدأت فى أوائل القرن السابع عشر وظلت مستمرة بانتظام حتى عام ١٨٦٣ ·

ففى أول الأمر كانت سفن البضائع التى تمر بساحل افريقية الغربى ، والذى لايزال جزء منه يسمى « ساحل العبيد » ، تختطف الافريقيين وتلتقطهم كلما أمكن ذلك وتنقلهم الى أمريكا · وقلما كان بين الافريقيين أنفسهم عبودية ، ولم يعاملوا أحدا معاملة العبيد غير أسرى الحرب والمدينين ممن لم يوفوا ديونهم · وقد وجد أن عملية نقل الافريقيين هذه الى أمريكا وبيعهم هناك كانت تجارة رابحة جدا ، ولهذا نمت واتسعت تجارة الرقيق · وكانت انجلترة واسبانيا والبرتغال فى مقدمة الدول التى مولتها على أنها مصدر من مصادر الغنى والثراء ·

وقد بنى تجار الرقيق لهذا الغرض سفنا خاصة ذات غرف عديدة ، وكان الزنوج البؤساء يزج بهم فى هذه الغرف مصفدين فى السلاسل ، وقد قيد كل اثنين منهم بقيد واحد · وكانت الرحلة عبر المحيط الأطلسى تستغرق أسابيع كثيرة وأحيانا أشهرا ، وفى أثناء هذه الأسابيع والاشهر كان الزنوج ينامون فى هذه الغرف الضيقة مقيدين معا ، وكان المكان المسموح به لكل واحد منهم لايزيد على خمسة أقدام ونصف قدم طولا ، وقدم وثلث قدم عرضا !

وعلى أساس تجارة الرقيق أصبحت ليفربول مدينة كبيرة · وفى معاهدة السلام التى وقعت فى مدينة « أوتريخت » الهولندية عام ١٧١٣ انتزعت انجلترة من اسبانيا امتياز نقل الرقيق بين افريقيا وأمريكا الاسبانية · وحتى قبل هذا كانت انجلترا تزود الممتلكات الانجليزية

فى آمريكا بالرقيق • وهكذا بذلت محاولة فى القرن الثامن عشر لجعل تجارة الرقيق بين افريقية وأمريكا احتكارا انجليزيا •

وفى عام ١٧٣٠ كان لمدينة ليفربول خمس عشرة سفينة تشتغل فى هذه التجارة ، ثم أخذ عدد هذه السفن فى التزايد حتى بلغ فى عام ١٧٩٢ مائة واثنتين وثلاثين سفينة • وقد أدت الثورة الصناعية فى مطلعها الى تقدم كبير فى غزل القطن بلانكشير فى انجلترة ، وهذا بدوره أدى بالولايات المتحدة الى طلب عدد أكثر من الرقيق • ذلك لأن القطن المستعمل فى مغازل لانكشير كان يرد اليها من مزارع القطن الشاسعة فى الولايات الجنوبية • ولما كانت مزارع القطن فى هذه الولايات تمتد وتتسع بسرعة ، فقد استدعى الأمر استيراد أفواج أكثر وأكثر من رقيق افريقية • ولما اشتد الاقبال على هذه السلعة الآدمية بذل تجار الرقيق أقصى الجهود فى تربية الزنوج والاكثار من نسلهم ! وفى عام ١٧٩٠ كان عدد العبيد فى الولايات المتحدة ٦٩٧ز٠٠٠ عبد ، ثم أخذ هذا العدد فى التزايد حتى بلغ عام ١٨٦١ أربعة ملايين •

وفى أوائل القرن التاسع عشر وافق البرلمان الانجليزى على قوانين مشددة ضد الرق والعبودية ، وتبع انجلترة فى ذلك أمريكا وبعض الأقطار الأوربية • ومع أن تجارة الرقيق قد حرمتها هذه الدول فان عملية نقل الزنوج من افريقية الى أمريكا ظلت قائمة مستمرة ، مع فارق واحد هو أن رحلتهم صارت أشد وأقسى مما كانت عليه قبل التحريم • فهؤلاء الزنوج البؤساء لم يعودوا ينقلون علنا ، وانما أصبحوا ينقلون خفية على ألواح خشبية منفصلة بعضها فوق بعض • وكما ينبئنا كاتب أمريكى كانوا أحيانا يكدسون الواحد فى حجر الآخر وسيقانهم مدلاة ، كما يفعل الراكبون على مراكب الانزلاق على الجليد •

ومن الصعب أن يتخيل المرء مدى الهول والشناعة فى كل هذا • فالأحوال على سفن نقل الرقيق كانت على غاية من القذارة ، حتى أن

بعضها كان من شدة الوسخ والقذارة يهجر ويتخلى عنه بعد أربع أو خمس رحلات . ولكن الأرباح كانت هائلة ضخمة ، وعندما بلغت هذه التجارة ذروتها فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان ينقل سنويا نحو مائة الف عبد من ساحل العبيد الا فريقى . وهنا أود أن تتذكرى أن نقل هذا العدد الهائل من البشر كان يعنى قتل عدد أكبر منه فى الغارات التى كان يشنها تجار الرقيق على الزنوج لأسرهم والاستيلاء عليهم .

وقبيل القرن التاسع عشر ، أو فى أوائله ، حرمت الدول الكبرى ، وكذلك الولايات المتحدة ، تجارة الرقيق وعدتها عملا غير مشروع . ولكن مع تحريم هذه التجارة فان العبودية نفسها ظلت مشروعة ، بمعنى آن العبيد القدامى استمروا عبيدا ، كما استمرت تجارة الرقيق على الرغم من تحريمها . وعندما أنهت بريطانيا الرق والعبودية أصبحت نيويورك الميناء الرئيسى لتجارة الرقيق .

ومع أن نيويورك كانت الميناء لهذه التجارة حتى منتصف القرن التاسع عشر فان الولايات الشمالية كانت ضد الرق والعبودية . أما الولايات الجنوبية فكانت بحاجة الى هؤلاء العبيد للعمل بالمزارع . وقد ألغى بعض الولايات الرق ، وأبقى عليه البعض الآخر . وكثيرا مافر الزنوج من الولايات التى يمارس فيها الرق الى الولايات التى لايمارس فيها . وكان هذا الفرار والتسلل مدعاة الى النزاع والخلاف بين الولايات .

وكانت مصالح الشمال والجنوب الاقتصادية مختلفة تمام الاختلاف. وقد حدث نحو عام ١٨٣٠ أن نشأ احتكاك بين الجانبين بشأن ضرائب الصادرات والواردات والضرائب الجمركية . ثم بدأت نغمة التهديد بالانفصال من الاتحاد تظهر وتعلو ، لأن الولايات كانت متحمسة

لحقوقها وغيورا عليها ، ولم ترتح لكثرة تدخل الحكومة الاتحادية فى شئونها ٠

ونتيجة لكل ذلك ظهر فى أمريكا حزبان : أحدهما ينادى بسيادة الولاية ، والآخر يدعو الى حكومة مركزية قوية ٠ وقد أحدث اختلاف وجهات النظر هذا انقساما بين الشمال والجنوب وباعد بين أحدهما والآخر ٠ وكلما انضمت ولاية جديدة الى الاتحاد كان يتجدد موضوع : الى أى الجانبين تنضم الولاية الجديدة وتؤيد وجهة نظره ٠

ولكن الى أى الجانبين كانت الأغلبية تنتمى ؟ لقد كان سكان الشمال فى تزايد سريع مستمر بسبب الهجرة من أوربا ، وكان طبيعيا أن تخيف هذه الظاهرة أهل الجنوب ، لأن استمرارها كان يعنى بالنسبة لهم قرب اليوم الذى يرجحهم فيه أهل الشمال عددا ، وبالتالى ينالون فيه أصواتا أكثر عند الاقتراع على كل مشكلة تكون مدار بحث ٠ من أجل ذلك ازدادت العلاقات توترا بين الشمال والجنوب ٠

وفى أثناء ذلك اشتدت الحملات فى الشمال مطالبة بابطال الرق ابطالا تاما ٠ وكان المنادون بذلك يسمون « الابطاليين » أى المعتنقين فكرة ابطال الاسترقاق ، وكان زعيم هؤلاء يدعى وليام لويد جاريسون William Lloyd Garrison ٠ وفى عام ١٨٣١ أصدر جاريسون جريدة أسماها « المحرر » أو « المعتق » the Liberator لتؤيد دعواه وحملته ضد الرق والعبودية ٠ وفى العدد الأول من هذه الجريدة أوضح أنه لن يقبل حلا وسطا لهذه المشكلة ، ولن يكون معتدلا ازاءها ٠ وبعض الجمل التى عبر فيها عن رأيه فى العدد الأول من جريدته أصبحت مشهورة ، ولهذا أقدمها لك هنا ٠ قال :

« سأكون قاسيا كالحق ، ومنصفا كالعدل

وعن هذا الموضوع « الرق » لا أبغى أن أفكر ، أو أتكلم ، أو أكتب باعتدال .

كلا ! كلا !

قل للرجل الذى يحترق بيته أن يستنجد صائحا باعتدال .

وقل له أن يستنقذ زوجته من يدى مغتصبها باعتدال .

وقل للأم التى سقط ابنها فى النار أن تخلصه منها شيئا فشيئا .

ولكن لا تتطلب منى اعتدالا فى قضية كقضية الساعة .

انى جاد كل الجد .

لن أوارب أو أداجى .

ولن أسامح أو أغتفر .

ولن أتراجع قيد أنملة .

ولا بد أن يسمع صوتى » .

على أية حال كان هذا الموقف الجرىء الشجاع قاصرا على قلة قليلة ، أما معظم معارضى الرق فلم يشاءوا التدخل فيه حيث يمارس فعلا . ومع ذلك فقد ازدادت العلاقات توترا بين الشمال والجنوب بسبب اختلاف مصالحهم الاقتصادية التى تعارضت ولاسيما من جهة الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات المتبادلة بين الولايات الشمالية والجنوبية .

وفى عام ١٨٦٠ انتخب ابراهام لنكولن رئيسا للولايات المتحدة ، فكان انتخابه ايذانا للجنوب بالانفصال عن الاتحاد . لقد كان لنكولن

معارضا للرق والعبودية ، ولكنه على الرغم من معارضته هذا أعلن عدم التدخل فيه حيثما وجد · بيد أنه لم يكن مستعدا لأن يراه يمتد الى ولايات جديدة أو لأن يجيز مشروعيته · ولم يقتنع الجنوب بهذا التأكيد أو يطمئن اليه ، ولهذا أخذت ولاياته تنشق على الاتحاد وتنفصل عنه ولاية بعد ولاية ·

هكذا أخذت الولايات المتحدة تتفرق وتتفتت ، وكان هذا هو الموقف العصيب الذى واجه الرئيس الجديد · وقد بذل محاولة أخرى لكسب الجنوب ومنعه من الانفصال · ذلك أنه أعطاهم كل التأكيدات والضمانات بأن يسمح للرق بالبقاء والاستمرار ، حتى لقد قال انه مستعد أن يجعله حينما وجد جزءا من الدستور ليعطيه صفة الدوام · وفى الحق كان لنكولن مستعدا لأن يذهب تقريبا الى أبعد الحدود من أجل السلام · ولكن كان هناك شيء واحد لم يكن ليوافق عليه ألا وهو القضاء على الاتحاد · فقد أنكر انكارا مطلقا حق أى ولاية فى الانسحاب من الاتحاد ·

ومع ذلك فقد فشلت جميع المحاولات التى بذلها لنكولن لكى يتجنب الحرب الأهلية · فالجنوب قد قرر الانفصال ، وقد انفصلت فعلا احدى عشرة ولاية ، وتعاطفت معها أيضا بعض الولايات الأخرى التى على الحدود · وقد سمت الولايات المنفصلة نفسها « الولايات المتحالفة » ، وانتخبوا رئيسا خاصا لهم هو جيفرسون دافيز Jefferson Davis

وفى أبريل من عام ١٨٦١ بدأت الحرب الأهلية واستمرت أربع سنوات بطيئة مجهدة قاتل فيها الأخ أخاه والصديق صديقه · وكلما استطالت الحرب كبرت الجيوش عدة وعتادا وعددا ·

وكان الشمال يفوق الجنوب ويمتاز عليه بأشياء كثيرة : فقد كان أكبر من الجنوب سكانا وأكثر غنى · ولكونه منطقة صناعية كان أكثر موارد وامكانيات ، وأرقى من حيث الطرق الحديدية ·

ولكن الجنوب كان أحسن جنودا وقوادا ولاسيما القائد «لى» Lee وكانت الانتصارات الأولى فى جانب الجنوب أكثر منهـا فى جـانب الشمال · ولكن الجنوب أدركه فى النهاية الكلل والاجهاد والملال ·

وقد قطع أسطول الولايات الشمالية الجنوب قطعا تاما عن سوقه فى أوربا ، وبهذا لم يستطع أن يصدر قطنه أو تبغه · وهذا بدوره أصاب الجنوب بالعجز ، كما كان له أيضا نتيجة مشئومة على لانكشير، حيث توقف كثير من مصانعها ومغازلها عن العمل لعدم ورود القطن، وحيث عانى عمالها المتعطلون غاية الهم والضيق ·

وكان الرأى العام فى انجلترة بشأن هذه الحرب منعطفا بوجه عام مع الجنوب ، أو على الأقل كان هذا هو رأى الطبقـات الأكثر غنى ويسارا فيها ·

ولم يكن الرق هو السبب الرئيسى للحرب الأهلية ، لأن لنكولن ، كما أخبرتك ، قد أعطى كل التأكيدات والضمانات بأن يحترم الرق حيثما وجد · انما نشأ الاضطراب الحقيقى من اختلاف مصالح الشمال والجنوب الاقتصادية وتعارضها تقريبا · وقد اضطر لنكولن أخيرا أن يحارب محافظة على بقاء الاتحاد وسلامته · ولم يصرح لنـــكولن أي تصريح واضح عن الرق ، حتى بعد أن بدأت الحرب ، خوفا من اثارة غضب الـكثيرين من أهل الشـمال ممـن كانوا يؤيدون ابطـال الاسترقاق ·

وقد دفعه استمرار الحرب الى أن يكون أكثر وضوحا وتحديدا • وكانت أول خطوة فى ذلك أن اقترح على مجلس الشيوخ ضرورة تحرير العبيد بعد تعويض أسيادهم ومواليهم • ثم تخلى عن هذه الفكرة فيما بعد • وأخيرا أصدر فى سبتمبر عام ١٨٦٢ اعلان التحرير الذى صرح فيه بأن العبيد فى كل الولايات الثائرة ضد الحكومة يصبحون أحرارا ابتداء من أول يناير ١٨٦٣، وفيما بعد هذا التاريخ •

وربما كان السبب الرئيسى الرئيسى لاصدار هذا الاعلان هو الرغبة فى اضعاف الجنوب فى الحرب ، لأنه أدى الى تحرير أربعة ملايين من العبيد ، ولا شك أنه كان يرجى من هؤلاء أن يخلقوا المتاعب والصعاب للولايات المتحالفة •

ثم انتهت الحرب الأهلية عام ١٨٦٥ بعد أن أنهك الجنوب انهاكا تاما • والحرب فى أى وقت شىء شنيع فظيع ، ولكن الحرب الأهلية أكثر شناعة وفظاعة • وقد وقع عبء هذا الصراع الهائل الذى دام أربع سنوات على عاتق الرئيس لنكولن أكثر من غيره ، وكانت النتيجة فى جملتها ناشئة عن اصراره الهادىء على المثابرة رغم الكوارث وخيبة الآمال •

ولم يكن هدفه مجرد كسب الحرب فحسب ، وانما كان الهدف أن يكسبها بأقل حقد ممكن ، فلعل الاتحاد الذى قاتل من أجله يصبح اتحاد قلوب لا اتحاد اكراه والزام • ولهذا لم تكد الحرب تنتهى حتى بدأ يكون كريما مع الجنوب المهزوم • ولم تمر أيام قليلة على هذا حتى اغتاله رجل متطرف •

وابراهام لنكولن بطل من أبطال أمريكا العظام • وقد تبوأ أيضا مكانه بين كبار عظماء العالم • لقد كانت نشأته الأولى نشأة

متواضعة ، وكان حظه من التعليم ضئيلا . وقد اكتسب معظمه عن طريق تحصيله الخاص ، ومع هذا استطاع بذاته أن يكون سياسيا عظيما وخطيبا عظيما . وأن يدير دفة الأمور فى بلاده ادارة رشيدة أثناء أزمة عظمى .

ولم يكن مجلس الشيوخ الأمريكى بعد وفاة لنكولن كريما مع البيض من سكان الجنوب بمقدار ما كان يتوقع منه . فهؤلاء البيض الجنوبيون عوقبوا بصورة أو بأخرى ، وكثيرون منهم حرموا من حق الانتخاب الذى كان قد أعطى لهم . ومن ناحية أخرى أعطى الزنوج كل حقوق المواطنين . وهذا أصبح جزءا من الدستور الأمريكى . وقد نص أيضا على أنه لاحق لأى دولة فى حرمان أى رجل من حقه الانتخابى بسبب جنسه أو لونه أو عبوديته السابقة .

لقد أصبح الزنوج الآن بمقتضى القانون أحرارا ولهم حق الانتخاب . ولكن هذا لم يعد بنفع كبير عليهم،لأن حالتهم الاقتصادية ظلت كما كانت عليه من قبل . فكل الزنوج العتقاء أو الأحرار كانوا على العموم بدون ملكية ، وأصبحت مشكلة أن يعرف المرء ماذا يفعل بهم . من أجل ذلك هاجر بعضهم الى المدن الشمالية .

أما معظمهم فبقوا حيث هم رهن اشارة أسيادهم ومواليهم القدامى فى الجنوب . لقد اشتغلوا عمالا فى المزارع القديمة بأى أجر يومى يعطيه لهم مستخدموهم البيض . كذلك نظم البيض الجنوبيون أنفسهم على أن يخضعوا الزنوج لارادتهم فى جميع الأحوال بالارهاب . وقد تكونت منظمة نصف سرية اسمها « كوكلوكس كلان » وكان أعضاؤها ينتشرون مقنعين فى وجوه مستعارة لارهاب الزنوج ومنعهم من الادلاء بأصواتهم فى أوقات الانتخابات .

وفى أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر تقدم الزنوج بعض الشيء : فكثيرون منهم صاروا من ذوى الملكيات ، وأصبحت لهم بعض المعاهد الراقية التى يتعلمون فيها ، ولكنهم ما زالوا العنصر الخاضع خضوعا تاما ٠ ويوجد منهم الآن فى الولايات المتحدة نحو اثنى عشر مليونا ، أى نحو عشرة فى المائة من مجموع السكان العام ٠

وحيثما وجدوا فى أعداد صغيرة ، كما هو الحال فى أجزاء من الشمال ، فانهم يحتملون ، أما اذا وجدوا فى أعداد كبيرة فانهم يحقرون ويعاملون معاملة مذلة للكبرياء ، معاملة تجعلهم يشعرون بأنهم أحسن قليلا من العبيد القدماء ٠ وفى كل مكان ترينهم منفصلين عن البيض ٠ ترين ذلك فى الفنادق ، والمطاعم، والكنائس ، والكليات، والمتنزهات العامة ، وشواطىء الاستحمام ، والترام ، وحتى فى الدكاكين والمتاجر ! وفى قطر السكة الحديدية لهم عربات خاصة تسمى عربات « جيم كراو » "Jim Crow" ٠ والزواج بين الابيض والزنجى محرم قانونا ٠ وحوالى عام ١٩٢٦ صدر قانون فى ولاية فرجينيا يحرم جلوس الأبيض والملون فى مكان واحد !

ويحدث أحيانا شغب عنصرى فظيع بين البيض والزنوج ٠ وكثيرا ما تحدث فى الجنوب حالات قصاص يغير فيها السوقة والغوغاء على أى شخص يشتبهون فيه بأنه أساء الى أحدهم أو بعضهم ويقتلونه ٠

وفى جميع أرجاء أمريكا ، ولا سيما فى الولايات الجنوبية لا تزال أغلبية الزنوج تحيا حياة شاقة ٠ وكثيرا ما يحدث فى بعض ولايات الجنوب عندما يقل وجود العمال أن يزج ببعض الزنوج الأبرياء فى السجن بتهمة ملفقة ، ثم يؤجر العامل المتهم لبعض المقاولين والمتعهدين ٠ وهذا فى حد ذاته عمل سيىء قبيح ، ولكن ما يصحبه

من أحوال أشد سوءا وقبحا . وهكذا ترين أن الحرية التى خولهـا القانون للزنوج لاتعنى كثيرا جدا بعد كل ما ذكرناه .

وبعد ، فهل قرأت أو سمعت عن كتاب « كوخ العم توم » للكاتب هارييت بيتشر ستاو Harriet Beecher Stowe ؟ فهـذا الـكتاب يعالج موضوع الزنوج العبيد القدماء ويقص حياتهم الفاجعة الحزينة. لقد ظهر هذا الكتاب قبل اندلاع نار الحرب الاهلية بعشر سنوات ، وكان له أثر كبير فى اثارة نفوس الامريكيين ضد الرق والعبودية .

١٣٨ — إمبراطورية أمريكا الخفية

٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣

ان الحرب الأهلية التى نشبت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية كان ثمنها بالنسبة لأمريكا باهظا • فقد راح ضحية لها الكثيرون من الرجال والشبان ، كما خلفت لأمريكا دينا فادحا ثقيلا•

ولكن الولايات المتحدة كانت دولة شابة فتية ممتلئة بالنشاط ، ولهذا فلم تعق الحرب الأهلية استمرار نموها • والولايات المتحدة تتمتع بمصادر ثروة طبيعية هائلة ، وتمتاز بغناها بالمعادن • فالفحم والحديد والنفط (البترول) توجد لديها بوفرة • وهذه هى المواد الثلاث التى تكون أساس الصناعة والحضارة الحديثتين • وكان لديها وفرة من القوة المائية التى تتولد عنها القوة الكهربائية ، وشلالات نياجرا مثل من أمثلة هذه القوة المائية ، وبالاضافة الى ذلك فهى قطر شاسع الاطراف ، قليل السكان نسبيا ، يجد فيه كل شخص مكانا فسيحا له •

فالولايات المتحدة ، لهذا ، لديها كل امكانيات النمو والتطور التى تؤهلها لأن تكون قطرا صناعيا كبيرا ، وقد أخذت تفعل ذلك بخطى واسعة • وقبيل نهاية القرن التاسع عشر بدأت الصناعة الأمريكية تنافس الصناعة البريطانية وتزاحمها فى الأسواق الأجنبية • وقد

وضعت أمريكا وألمانيا نهاية للتفوق السهل الذى تمتعت به بريطانيا لمدة قرن من الزمان فى التجارة الخارجية ٠

وقد تدفق المهاجرون على الولايات المتحدة من كل أقطار أوربا ٠ نزح اليها الكثيرون من الألمان والسويديين والنرويجيين والدنمركيين والارلنديين والايطاليين واليهود والبولنديين وغيرهم ٠ وكثيرون من هؤلاء خرجوا من ديارهم فرارا من الارهاب السياسى ، وكثيرون غيرهم هاجروا متطلعين الى أحوال من العيش أرقى وأفضل ٠ فأوربا المزدحمة بالسكان لم تجد أمامها الا أن تلقى بالزائد من أبنائها الى أمريكا ٠

لقد كان خليطا عجيبا من الأجناس والقوميات واللغات والأديان ٠ ففى أوربا كان يعيش كل هؤلاء منفصلين متباعدين ، وكان لكل منهم دنياه الخاصة ، وكان قلب الواحد منهم مفعما بالحقد على الآخرين ، وبالكراهية والبغضاء لهم ٠ أما هنا فى أمريكا فقد ألقى بهم جميعا فى جو جديد لاموضع فيه ولا قيمة للأحقاد القديمة ٠ وسرعان ما أزال نظام التعليم الاجبارى الموحد نزعاتهم القومية ، وهيأ الفرصة لظهور النموذج الامريكى من ثنايا هذا الخليط المشوش من الأجناس ٠

وهؤلاء الذين تحدروا منهم من الأصل السكسونى الانجليزى يعتبرون أنفسهم النبلاء والزعماء الاجتماعيين ٠ ويليهم ، وليس بعيدا عنهم ، الأجناس التى نزحت من أوربا الشمالية ٠ أما الذين هاجروا من أوربا الجنوبية ، وخاصة من ايطاليا ، فقد كان الوافدون من أوربا الشمالية ينظرون اليهم نظرة احتقار وازدراء ويسمونهم « الملونين » ثم يأتى الزنوج ، وهؤلاء كانوا فى أسفل السلم ولم يختلطوا بأى جنس من أجناس البيض ٠ وكان على شاطىء أمريكا الغربى بعض الصينيين واليابانيين والهنود ممن نزحوا الى أمريكا عندما كانت

حاجتها الى العمال شديدة • وهذه الأجناس الأسيوية تحاشت الاندماج فى الأجناس الأخرى ، وبقيت فى معزل عنها •

وكان من أثر شبكة المواصلات اللاسلكية والحديدية الواسعة الامتداد والانتشار أن اتصلت أطراف هذا القطر الضخم وأجزاؤه بعضها ببعض • وهذا الاتصال كان مستحيلا فى العصور القديمة عند ما كان السفر من شاطىء الى شاطىء يستغرق أسابيع وأشهرا •

وقد رأينا أنه كثيرا ما قامت فى الماضى امبراطوريات فى آسيا وأوربا • ولكن هذه ما كان يمكن أن يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بسبب صعوبة المواصلات ووسائل الانتقال • ومن ثم كان يمكن اعتبار أجزاء مختلفة من أى امبراطورية من هذه الامبراطوريات مستقلة تقريبا • فقد كانت تحيا حياتها الخاصة على طريقتها الخاصة ، ولا يربطها بالامبراطورية غير الاعتراف بسيادة الامبراطور وتأدية فروض الطاعة والولاء له • ويمكن القول بأنها كانت عصبة غير متحدة من أقطار مختلفة تدين لرئيس واحد ، ولا تجمع بينها نظرة واحدة مشتركة •

ومهما يكن من الأمر ، فان الولايات المتحدة استطاعت بفضل السكك الحديدية وطرق المواصلات الأخرى ونظام التعليم الموحد أن تنمى هذه النظرة المشتركة بين أجناسها المختلفة • وشيئا فشيئا تحولت الأجناس الى أصل واحد مشترك ، ولا تزال العملية مستمرة لم تتم بعد • وليس فى التاريخ مثل من أمثلة التحول على درجة كبيرة كهذه الدرجة •

وحاولت الولايات المتحدة أن تظل بمنأى عن الأحابيل الأوربية

ومؤامراتها ، كما أرادت أن تبقى أوربا بعيدة عن امريكا فى الشمال والجنوب • لقد أخبرتك من قبل عن « مذهب مونرو » : عن التصريح الذى أصدره رئيس الولايات المتحدة مونرو عنـد ما أرادت بعض الدول الأوربية التى كان يتألف منها « الحلف المقدس » أن تتدخل فى جنوب أمريكا ابقاء على امبراطورية اسبانيا •

فعندما همت هذه الدول بالتدخل صرح مونرو بأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تسمح بأى تدخل مسلح من جانب أى دولة أوربية فى أى جزء من أجزاء أمريكا • فهـذا التصريح أنقـذ جمهوريات أمريكا الجنوبية الناشئة من أوربا • وكاد هـذا التصريح أن يؤدى مرة أخرى الى حرب مع انجلترة • ولكن أمريكا تمسكت ناجحة بهذه السـياسة لمدة بلغت حتى الآن أكثر من مائة سنة •

وكانت أمريكا الجنوبية مختلفة جدا عن أمريكا الشـمالية ، ولم يستطع مرور قرن من الزمان أن يقلل الفوارق والاختـلافات التى بينهما • وبينما كانت كندا فى الشمال تتأثر خطى الولايات المتحدة وتزداد أوجه الشبه بينهما أكثر فأكثر ، لم تكن الجمهوريات الجنوبية كذلك • وكما أخبرتك مرة أخرى ان جمهوريات أمريكا الجنوبية هذه بما فيها المكسيك التى تقع فى أمريكا الشـمالية هى جمهوريات لاتينية • فالحد مابين الولايات المتحدة والمكسيك يفصل بين ثقافتين مختلفتين ونوعين من الناس مختلفين كذلك • فالسـكان جنوبى هذا الحد ، وعبر أمريكا الوسطى ، وفى جميع أرجاء قارة أمريكا الجنوبية الكبيرة يتكلمون الاسبانية والبرتغاليـة • والاسـبانية هى اللغـة الغالبة • أما البرتغالية فتستعمل ، على ما أظن ، فى البرازيل فقط • وقد أصبحت الاسبانية اليوم بسبب أمريكا الجنوبية احـدى لغـات العالم الكبرى • ولا تزال أمريكا اللاتينية تولى وجهها شطر اسبانيا لتستمد منها وحيها الثقافى • ولم يكن للاختـلافات العنصرية فيها

من الأهمية ما كان لها فى الولايات المتحدة ، وكندا · وقد تولد جنس مختلط نتيجة لتزاوج من تحدروا من أصل اسبانى بالزنوج وبالهنود الحمر سكان البلاد الأصليين ·

وعلى الرغم من مائة سنة من الحرية ، فان جمهوريات الجنوب اللاتينية رفضت أن تستقر · وقد قامت فيها من وقت الى آخر ثورات وديكتاتوريات عسكرية ، وليس من السهل تتبع مجرى التغير الدائم فى سياستهم وحكوماتهم · والدول الثلاث الكبرى فى أمريكا الجنوبية هى الارجنتين ، والبرازيل ، وشيلى · وتعتبر المكسيك التى هى فى أمريكا الشمالية من دول أمريكا اللاتينية الكبرى

أشرت آنفا الى أن الولايات المتحدة عن طريق تصريح مونرو قد منعت أوربا من التدخل فى شئون أمريكا اللاتينية · ولكن الولايات المتحدة أخذت عندما ازداد غناها وثراؤها ، تتطلع خارج حدودها الى ميادين جديدة للتوسع · وكان طبيعيا أن تقع أعين الولايات المتحدة أول ماتقع على أمريكا اللاتينية ·

ولم تحاول الولايات المتحدة أن تستولى على أى قطر من هذه الأقطار بالقوة ، أى بالطريقة القديمة التى كانت تتبع فى بناء الامبراطوريات · وكل ما فعلته هو أنها أرسلت منتجاتها وسلعها الى أمريكا اللاتينية واستولت على أسواقها · ولم تقف الولايات المتحدة عند هذا الحد ، وانما استثمرت رءوس أموالها فى انشاء السكك الحديدية ، واستغلال المناجم وغير ذلك من المشروعات الاقتصادية فى الجنوب · كذلك قدمت قروضا مالية للحكومات وأحيانا للأحزاب السياسية المتحاربة فى أوقات الثورات ·

والذين قدموا هذه القروض هم أرباب المصارف (البنوك)

والرأسماليون الأمريكيون،ومن ورائهم الحكومة الأمريكية تشد أزرهم وتؤيدهم • وشيئا فشيئا تحكم أرباب المصارف الأمريكية عن طريق الأموال التى أقرضوها أو استثمروها فى كثير من حكومات الجنوب وأمريكا الوسطى • وقد بلغ سلطان أرباب المصارف ونفوذهم الى حد أنهم كانوا من أجل مصالحهم يعملون على قيام الثورات بتقديم الأسلحة والمساعدات المالية لحزب أو فريق دون آخر • ومن وراء أرباب المصارف والرأسماليين كانت تقف حكومة الولايات المتحدة العظمى • ولهذا فماذا كانت تستطيع أقطار الجنوب الصغيرة الضعيفة أن تفعل ؟ وقد حدث فى بعض الأحيان أن أرسلت الولايات المتحدة جنودها فعلا لمساعدة حزب خاص فى بعض دول الجنوب بحجة المحافظة على النظام•

وبهذه الطريقة نجح الرأسماليون الأمريكيون فى أن تكون لهم رقابة فعالة على سياسة أقطار الجنوب الصغرى ، وفى أن تئول اليهم ادارة مصارفها وطرقها الحديدية ومناجمها ، واستغلال كل ذلك استغلالا يعود عليهم خاصة بالمنفعة والربح • فللرأسماليين الأمريكيين ، حتى فى دول أمريكا اللاتينية الكبرى ، نفوذ عظيم بسبب رءوس أموالهم المستثمرة فيها وبسبب الرقابة المالية •

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة ضمت اليها ثروة هذه الاقطار أو الجزء الاكبر من ثروتها • وهذه الظاهرة تستحق اعمال النظر والانتباه ، لأنها تشير الى نوع جديد من الامبراطوريات • فهى تميط اللثام عن الامبراطورية الاقتصادية الخفية غير المنظورة التى تستغل وتسيطر بدون أى مظاهر خارجية واضحة • فجمهوريات أمريكا الجنوبية هى من الناحية السياسية والدولية جمهوريات مستقلة حرة • وهى على الخريطة أقطار شاسعة الأطراف ، وليس هناك ما يدل على أنها غير مستقلة فى أى معنى من المعانى ، أو أية صورة من الصور • ومع هذا فان معظم هذه الأقطار تتسلط عليها الولايات المتحدة وتتحكم فيها تحكما تاما •

وقد رأينا فى لحاتنا التاريخية ألوانا شتى من الاستعمار فى عصور مختلفة • ففى البدء كان انتصار شعب على شعب آخر فى الحرب يعنى أن يتصرف المنتصرون كما يشاءون فى الشعب المنهزم وأرضه • لقد كان الشعب المنتصر يضم اليه أرض عدوه بسكانها ، وبهذا يصبح الشعب المنهزم كله عبيدا • هذه كانت السنة أو العادة المألوفة • وفى التوراة ، يقرأ المرء عن أخذ اليهود أسرى لانهزامهم فى الحرب أمام البابليين ، كما يقرأ عن أمثلة أخرى كثيرة •

وشيئا فشيئا زال هذا الاستعمار وأخلى مكانه لاستعمار آخر يضم فيه الشعب المنتصر أرض عدوه المنهزم اليه دون أن يحيل سكانها الى عبيد • واذا كان هذا الاستعمار لم يحل الناس عبيدا فلأنه قد اكتشف بلا شك أن من الأسهل أن يربح ويثرى على حسابهم عن طريق فرض الضرائب عليهم وغير ذلك من طرق الاستغلال الاخرى •

ولا يزال أكثرنا يفكرون فى امبراطوريات من هذا النوع كالامبراطورية البريطانية فى الهند التى لها السلطةالسياسية الحقيقية فى البلاد (١) ، والتى لولاها ، على ما نظن ، لكانت الهند حرة •

ولكن هذا النوع من الامبراطوريات قد أخذ يختفى ويحل مكانه نوع آخر أكمل وأكثر تقدما • وهذا النوع الكامل المتقدم هو أحدث أنواع الامبراطوريات ، وهو لا يعنيه أن يضم اليه أرضا أو سكانا، بل ان ما يعنيه هو أن يضم اليه الثروة أو عناصر انتاج الثروة فى القطر فقط ، وهو بعمله هذا يستطيع أن يستغل القطر استغلالا كاملا لمنفعته الخاصة ، ويستطيع أن يتحكم فيه ويسيطر على شئونه الى حد كبير • ثم هو فى الوقت ذاته لا يتحمل مسئولية حكم ذاك القطر وتخلفه ، أو التعرض لسخط أبنائه وفورات غضبهم • ومعنى ذلك كله أن تسيطر مثل هذه الامبراطورية على الأرض وسكانها معا بأقل قدر ممكن من المتاعب •

(١) كان هذا وقت كتابة هذه الرسائل •

بهذه الطريقة أكمل الاستعمار نفسه على مر العصور ، وأصبحت الامبراطورية الاقتصادية الخفية غير المنظورة أحدث أنواع الامبراطوريات ٠

وعندما أبطل الرق ، وفيما بعد عندما قضى على عبودية نظام الاقطاع كان الظن أن الناس قد صاروا أحرارا ٠ ولكن سرعان ما تبين أن الناس لا يزال يستغلهم ويسيطر عليهم من يملكون قوة المال ويتحكمون فيها ٠ واذا كان الناس قد تخلصوا من الرق والعبودية فانهم أصبحوا عبيد الأجر ، وأصبحت الحرية بالنسبة لهم أمرا بعيد المنال ٠

وهكذا الحال أيضا بالنسبة للشعوب والأقطار ٠ فالناس يتخيلون أن العلة الوحيدة لكل ما يعانونه ويقاسون منه هى فى تحكم قطر فى قطر آخر والتسلط عليه سياسيا ٠ كما يتخيلون أن زوال هذا التحكم يعنى عودة الحرية اليهم آليا ٠ ولكن الامر ليس كذلك ، لأننا نستطيع أن نرى أقطارا حرة سياسيا ، وفى الوقت ذاته خاضعة خضوعا تاما لأقطار أخرى بسبب السيادة الاقتصادية ٠ والامبراطورية البريطانية فى الهند أوضح مثل على ذلك ٠

فبريطانيا تتحكم فى الهند سياسيا ، وبجانب هذه الامبراطورية المنظورة وكجزء منها تتحكم بريطانيا فى الهند اقتصاديا ٠ ومن الممكن أن ينتهى حكم بريطانيا السافر للهند قريبا ، ومع هذا فقد يبقى تحكمها الاقتصادى كامبراطورية خفية غير منظورة ٠ فاذا حدث هذا كان معناه أن استغلال بريطانيا للهند سيظل مستمرا ٠

والاستعمار الاقتصادى هو أقل صور الاستعمار تعبا بالنسبة للدولة المستعمرة ، فهو كسيطرة سياسية لا يسبب سخطا وحقدا

لأن عامة الناس لا يلحظونه ، ولكن عند ما تحس قرصته وثقل وطأته يبدأ الناس يفهمونه وينقمون عليه .

وفي أمريكا اللاتينية الآن لا يوجد حب كثير للولايات المتحدة ، وقد بذلت جهود كثيرة لخلق معسكر من الشعوب الامريكية اللاتينية لتعارض سياسة أمريكا الشمالية وسيطرتها وغلبتها ، وليس من المحتمل أن ينجحوا كثيرا في محاولتهم هذه حتى يتغلبوا على عادة ثورات حكامهم الكثيرة ، وعلى خصوماتهم ومشاجراتهم المتبادلة .

وامبراطورية الولايات المتحدة المرئية الظاهرة تمتد الى جزائر الفلبين . وأظنك تذكرين أني حدثتك في رسالة سابقة كيف استولت أمريكا على هذه الجزائر على اثر الحرب التي نشبت بينها وبين اسبانيا عام ١٨٩٨ بسبب جزيرة كوبا في المحيط الأطلسي . وكوبا وهايتي خاضعتان لأمريكا .

ومنذ اثنتي عشرة سنة أي في عام ١٩٢١ افتتحت قناة بنما في قطاع أمريكا الوسطى الضيق ، وهي تصل المحيط الأطلسي بالمحيط الهادىء . وقد وضع فرديناند دي ليسبس الذي أنشأ قناة السويس تصميم قناة بنما منذ أكثر من خمسين سنة ، ولكن الأمريكيين هم الذين أنشئوها . وقد واجهتهم أثناء انشائها صعوبات كثيرة من الملاريا والحمى الصفراء ، ولكنهم نجحوا في مكافحة هذين المرضين والتغلب عليهما . لقد قضوا على كل المصادر التي يتولد منها بعوض الملاريا وغيره من الحشرات وناقلات الأمراض ، وجعلوا من منطقة القناة منطقة صحية .

وتقع القناة في جمهورية بنما الصغيرة ، ولكن الولايات المتحدة تتحكم فيها كما تتحكم في الجمهورية الصغيرة . وقناة بنما بالنسبة

لأمريكا مصدر دخل كبير ، ولولاها لاضطرت السفن أن تتخذ سبيلها الى المحيطين بالطواف حول جنوب أمريكا ، ولكن قناة بنما لا تبلغ أهميتها أهمية قناة السويس ٠

وهكذا استمرت الولايات المتحدة تزداد قوة وغنى وتنتج فيما تنتج أرباب الملايين وناطحات السحاب ٠ وقد وصلت الى ما وصلت اليه أوربا من نواح كثيرة وتقدمت عليها ٠ وفى ميدان الصناعة أصبحت أسبق الشعوب جميعا ، كما أصبح مستوى معيشة عمالها أعلى منه فى أى مكان آخر ٠

وبسبب ما تتمتع به من يسر ورخاء شبيه بما كانت عليه انجلترة فى القرن التاسع عشر نرى أن النظريات الاشتراكية والتقدمية لاتجد فيها تأييدا٠ فالعمال الأمريكيون، الا القليل، أكثر اعتدالا ومحافظة٠ وهم يتقاضون أجورا أعلى نسبيا ، فلماذا يقامرون براحتهم ورفاهيتهم الحاضرة من أجل حياة أفضل مشكوك فيها ؟ وغالبية هؤلاء العمال من الايطاليين وغيرهم ممن كانوا يسمون باحتقار «الملونين» ، والعمال المهرة من ذوى الأجور المرتفعة يعتبرون أنفسهم طبقة أخرى منفصلة عن طبقة هؤلاء « الملونين » ٠

وفى محيط السياسة الأمريكية ظهر حزبان سياسيان هما : الحزب الجمهورى ، والحزب الديمقراطى ٠ ويمثل هذان الحزبان ، كما فى انجلترة وربما أكثر مما فى انجلترة ، نفس الطبقات الغنية الموسرة ٠ وليس بينهما اختلاف كبير من حيث المبادىء والأهداف٠

تلك كانت الحال عند ما نشبت الحرب العالمية (١) التى امتصت أمريكا فى النهاية وقذفت بها فى دوامة الصراع العالمى ٠

---

(١) يقصد الحرب العالمية الأولى ٠

١٤٥ — نهاية عصر تاريخى



٢٢ مارس سنة ١٩٣٣

القرن التاسع عشر ! ما أطول الوقت الذى شغلنا فيه أنفسنا بأحداث هذه السنين المائة! لقد أنفقت أربعة أشهر فى الكتابة لك عن هذه الفترة ، حتى بدأت أشعر قليلا بالتعب منها · ومن يدرى ، قربما تشعرين أنت أيضا بالتعب عند قراءة هذه الرسائل ··

لقد حدثتك أول ما حدثتك عن هذا القرن بأنه فترة من الزمن فاتنة ساحرة ، ولكن كل شىء حتى الفتنة والسحر يحول بعد قليل ·

ونحن فى عرضنا التاريخى هذا قد تجاوزنا القرن التاسع عشر الى القرن العشرين·· وكان آخر ما وصلنا اليه هو عام ١٩١٤ · ففى ذاك العام أطلقت كلاب الحرب من عقالها ، كما يقول المثل ، على أوربا وعلى العالم · فهذا العام يعتبر نقطة التحول فى التاريخ ،كما يعتبر نهاية عصر تاريخى وبداية عصر آخر ·

عام ١٩١٤ ! كان هذا العام قبل مولدك ، وقد مضى عليه الآن أقل من تسعة عشر عاما ، وهذه ليست بالفترة الطويلة اذا قيست بعمر الانسان ، وهى أقل كثيرا اذا قيست بعمر التاريخ ·

ولكن الدنيا منذ عام ١٩١٤ حتى اليوم قد تغيرت تغيرا كبيرا ، ولا تزال تتغير حتى لتبدو هذه الفترة بأحداثها عصرا برمته • وان عام ١٩١٤ والأعوام التى سبقته لتدخل فى عداد التاريخ الطويل ، وتصبح أجزاء من ماض بعيد نقرأ عنه فى الكتب ، ومختلف كل الاختلاف عن عصرنا الحاضر • وسوف أحدثك عن شىء من هذه التغيرات الكبيرة فيما بعد •

وقبل كل شىء ، أرى لزاما على أن أنذرك انذارا • ذلك أن الجغرافيا التى تتعلمينها فى المدرسة تختلف تمام الاختلاف عن الجغرافيا التى كان على أن أتعلمها عندما كنت فى المدرسة قبل عام ١٩١٤ • ومن الجائز أن كثيرا من الجغرافيا التى تتعلمينها اليوم قد تضطرين ألا تتعلميها فيما بعد ، كما كان الحال معى •

فالحدود الجغرافية القديمة والاقطار القديمة قد اختفت فى دخان الحرب وحلت محلها أقطار جديدة يصعب على المرء أن يتذكر أسماءها •

فمئات المدن قد تغيرت أسماؤها ما بين عشية أو ضحاها• فمدينة سانت بطرسبرج St. Petersburg أصبحت بيتروجراد، ثم أصبحت بعد ذلك لينينجراد ، والقسطنطينية تدعى الآن استانبول ، وبيكين تعرف الآن باسم بيبنج Peiping ، وبراغ التى كانت احدى مدن بوهيميا أصبحت براها Praha احدى مدن تشيكوسلوفاكيا •

وفى رسائلى اليك عن القرن التاسع عشر قد عالجت بالضرورة قارات وأقطارا على حدة ، كما بحثت جوانب شتى وحركات مختلفة على حدة أيضا • ولكنك ستتذكرين طبعا أن كل هذا كان فى وقت واحد تقريبا ، وأن التاريخ قد زحف فى جميع أرجاء الدنيا بأقدامه الألف معا •

فالعلم والصناعة ، والسياسة والاقتصاد ، والغنى والفقر ،

والرأسمالية والاستعمار ، والديمقراطيـة والاشـــتراكية ، وداروين وماركس ، والحرية والعبودية، والمجاعة والطاعون، والحرب والسلام، والحضارة والبربرية ـ كل هذه جميعا قد احتلت مكانها في هذا البناء أو النظام الغريب ، وأثر كل منها في الآخر وتأثر به • فاذا أردنا أن نكون صورة في أذهاننا عن هذه الفترة أو أى فتـرة أخرى ، فلا بد أن تكون صورة مركبـة متغـيرة متحركة دائمـا كالكاليدوسكوب Kaleidoscope (١) وان كانت أجزاء كثيرة من الصورة لا تسر المرء أن يتملاها ويتأملها ••

فالمظهر الغـالب على هذه الفترة قد تجـلى ، كما رأينـا ، في نمو الصناعة الرأسمالية عن طريق الانتـاج الهائل الضخم ، أو الانتـاج بمسـاعدة بعض القوى الآليـة كالقوى المائية أو البخـارية أو الكهربائية •

وقد أحدث ذلك آثارا مختلفة في أجزاء شـتى من الدنيا ، وكانت هذه الآثار مباشرة وغير مباشرة معا • وهكذا أثر انتـاج المنسوجات بواسطة الأنوال الآلية في مقاطعة لانكشير بانجلترة على الأحوال في القرى الهندية النائية ، وقضى على كثير من الحرف والمهن هناك •

فالصناعة الرأسمالية كانت قوية ، وبطبيعتهـا الذاتيـة أخذت تزداد نموا على نمو،وقلما اكتفت أو أشبعت نهمها•وكان طابعها المميز هو الاكتساب ، فالصناعة الرأسمالية قد وجدت لتكتسب ولتستحوذ على ما تكتسب دائمـا ، ثم لتـكتسب ثانيا • وكذلك حاول الأفراد وحاولت الشعوب • ولهذا يسمى المجتمع الذى نما في ظل هذا النظام مجتمعا مكتسبا •

---

(١) آلة يتمكن بها الناظر من مشاهدة أشكال شتى على نظام بديع•

وكان الهدف دائما هو أن تنتج المصانع أكثر فأكثر ، وأن تستغل ثروتها الزائدة الناتجة هذه فى بناء مزيد من المصانع والطرق الحديدية، وما أشبه ذلك من مشروعات الانتاج ، وكل هذا من شأنه أن يزيد بطبيعة الحال من ثراء أرباب هذه المصانع • ومن أجل تحقيق هذا الهدف ضحى بكل شيء آخر •

فالعمال الذين أنتجوا غنى المصانع وثراءها لم ينتفعوا من ذلك الا بالقليل • وقد اضطر أولئك العمال ، بما فيهم النساء والأطفال، أن يمروا بأوقات عصيبة قبل أن تتحسن أحوالهم بعض الشيء • كذلك ضحى بالمستعمرات والمحميات والتوابع ، كما استغلت كل هذه من أجل مصلحة الصناعة الرأسمالية ومصلحة شعوبها •

ولهذا مضت الرأسمالية فى طريقها ، عمياء ضارية قاسية ، تاركة وراءها الكثيرين من الضحايا • وعلى الرغم من ذلك فقد أحرزت انتصارا وتقدما • فبمساعدة العلم لها نجحت الرأسمالية فى أشياء كثيرة ، وهذا النجاح خطف أبصار العالم وبدا كأنه تكفير عن شرورها ومساوئها • وكذلك نجحت عرضا وبدون خطة مقصودة فى انتاج الكثير من الأشياء الحسنة فى الحياة ، ولكن هذا السطح اللامع البراق كان يخفى تحته كثيرا من الفساد • أجل كان هناك الفقر القاتل والثراء الفاحش ، وكان هناك الأحياء الفقيرة القذرة وناطحات السحاب ، ثم كان هناك الامبراطوريات والمستعمرات المستغلة • وكانت أوربا هى القارة ذات السلطان والسيادة ، بينما كانت آسيا وافريقية هما القارتين المستغلتين •

وكانت أمريكا معظم هذا القرن بمعزل عن تيارات الأحداث العالمية ، ولكنها كانت تتقدم تقدما سريعا فى بناء مصادر ثروتها واستغلالها • وفى أوربا كانت انجلترة هى زعيمة الرأسمالية المزهوة بنفسها وغناها وامبراطوريتها •

على أن طبيعة الصناعة الرأسمالية قد بلغت بالأمور الى حال استوجبت التدخل ، وأدت الى المعارضة والاضطراب ، ثم الى فرض بعض القيود فى النهاية حماية للعمال · فنظام المصنع فى أيامه الأولى كان يعنى استغلال العمال استغلالا قاسيا شنيعا ، ولا سيما النساء والاطفال منهم · فهؤلاء النساء والاطفال كانوا يفضلون فى العمل على الرجال ، لضآلة أجورهم بالقياس الى أجور الرجال ، ولانه كان يفرض عليهم أن يشتغلوا أحيانا ثمانى عشرة ساعة يوميا فى أسوأ الأحوال وأبغضها وأقذرها ·

ولم تجد الدولة مفرا ازاء ذلك الا أن تتدخل فى النهاية ، وتصدر قوانين سميت بتشريعات المصانع ، حددت فيها ساعات العمل اليومى ، وأصرت على أحوال أرقى وأفضل · وقد حمت هذه القوانين النساء والأطفال بوجه خاص ، ولكن استصدارها كان نتيجة كفاح طويل مرير بسبب المعارضة العنيفة من أرباب المصانع ·

وأكثر من ذلك ان الصناعة الرأسمالية قد أدت الى أفكار اشتراكية وشيوعية ، وبينما اعترفت هذه الأفكار بالصناعة الحديثة ، نراها تتحدى أساس الرأسمالية · كذلك تطورت نقابات العمال واتحاداتهم ومنظماتهم الدولية ، التى تنادى بأن الأرض ومصادر الثروة الطبيعية ووسائل الانتاج يجب أن تملكها الدولة وتتحكم فيها من أجل خير الجميع ورفاهيتهم ·

· وقد قادت الرأسمالية الى الاستعمار ، كما آدى اصطدام الصناعة الرأسمالية الغربية بالأوضاع الاقتصادية القديمة فى الاقطار الشرقية الى الخراب والدمار فيها · وحتى فى هذه الاقطار الشرقية نرى الصناعة الرأسمالية قد تأسست فيها وأخذت فى النمو شيئا فشيئا · كذلك ظهرت فيها روح القومية كتحد لاستعمار الغرب ·

وهكذا هزت الرأسمالية العالم ، وعلى الرغم مما أحدثتــه من بؤس انسانى فظيع فانها كانت فى جملتها حركة نافعة على أقل تقدير للغرب• لقد جرت فى أذيالها تقدما ماديا عظيما ، ورفعت كثيرا من مســتويات الناس ، وأصبح الرجل العادى بسببها أهم وأعظم شأنا مما كان عليه من قبل •

فمن الناحية العملية لم يكن لرأيه وزن كثير فى أى شيء ، على الرغم مما كان يتمتع به من صوت انتخابى وهمى ، ومن الناحية النظرية زاد اعتباره فى نظر الدولة ، كما زاد مع ذلك احترامه لنفسه• وهذا ينطبق بطبيعة الحال على الدول الغربية ، حيث الصناعة الرأسمالية قد أسست نفسها

لقد تكاثرت المعرفة الى حد كبير ، وصنع العلم العجــائب ، كما أن استخدامه فى شتى مناحى الحياة جعل الحياة على الناس أيسر وأسهل •

فالطب ، ولا سيما الطب الوقائى والارتقاء بالمستوى الصحى ، كان لهما الفضل فى ايقاف واستئصال كثير من الأمراض التى كانت لعنة على الانسان• وعلى سبيل المثال نذكر اكتشاف أصل الملاريا وطرق الوقاية منها • ومما لاشك فيه أن من المستطاع الآن استئصالها والقضاء عليها فى أية منطقة ، اذا اتخذت الخطوات الضرورية لهذا • واذا كانت الملاريا لاتزال توجد ويروح ضحيتها ملايين من البشر فى الهند وغيرها ، فان ذلك لايعنى خطأ العلم ، وانما يعنى اهمال الحكومات وجهل الناس •

ولعل أبرز مظاهر هذا العصر هو تقدم وسائل النقل والمواصلات • فالطرق الحديدية ، والسفن البخارية ، والبرق (١) ، والســيارات قد

(١) التلغراف •

غيرت الدنيا تغييرا شاملا ، وجعلتها بالنسبة لكل ضروب النشاط الانسانى مكانا مختلفاتمام الاختلاف عما كانت عليه دائما • فالدنيا بفضل هذه المخترعات قد انكمشت ، واقترب سكانها بعضهم من بعض ، واستطاعوا أن يتعارفوا أكثر من قبل ، وبالمعرفة المتبادلة قضى على كثير من الحواجز التى أقامها الجهل • ثم بدأت الأفكار العامة المشتركة تذيع وتنتشر وتحدث نوعا من الوحدة الفكرية فى جميع أرجاء الدنيا •

وفى نهاية العصر الذى ندرسه ظهر اللاسلكى والطيران ، ولكن استعمالهما أصبح الآن شائعا ، وقد ركبت الطيارة وسافرت بها عدة مرات دون أن تفكرى فيها كثيرا • وتطور اللاسلكى والطيران وانتشارهما يمت الى القرن العشرين والى عصرنا الحاضر •

فالناس كثيرا ما طاروا فى مناطيد ، ولكن لم يرتفع أحد من قبل على شىء أثقل من الهواء اللهم الا على البساط الطائر فى الأساطير القديمة ، كما فى قصص ألف ليلة وليلة ، والا على « اليورانخاتولا » Urankhatola كمافى قصصنا الهندية •

والاخوان الأمريكيان « ولبور » Wilbur و « أورفيل رايت » Orville Wright هما أول من نجح فى اعتلاء الجو فى آلة أثقل من الهواء • وهذه الآلة هى أصل الطائرة الحديثة • فهذان الأخوان استطاعا فى ديسمبر ١٩٠٣ أن يطيرا بآلتهما فى الجو الى ارتفاع أقل من ثلثمائة ياردة ، ولكن مع قصر هذه المسافة ، فانهما قد فعلا ما لم يستطع أحد قبلهما أن يفعله •

وقد استمرت بعد ذلك محاولات الطيران فى الجو تتقدم، وانى لأذكر الدهشة التى سرت فى العالم عام ١٩٠٩ عندما تمكن « بليريو » Blériot الفرنسى من الطيران فوق القنال الانجليزى من فرنسا الى

انجلترة · وقد رأيت بعد ذلك بقليل أول طائرة تطير فوق برج ايفل فى باريس · وبعد ذلك بعدة سنوات ، وعلى التحديد فى مايو ١٩٢٧ ، كنت أنا وأنت فى باريس عندما قدم « شارل لندبيرج » Charles Lindbergh كالسهم الفضى المتلألىء عبر المحيط الأطلسى ثم هبط فى لى بورجيه Le Bourget مطار باريس ·

كل ذلك يعد من حسنات هذا العصر ، عندما كان للصناعة الرأسمالية السيادة والسلطان · ومما لاشك فيه أن الانسان قد أتى خلال هذا القرن بأشياء عجيبة ·

وهناك شيء آخر يضاف الى جانب الحسنات · ذلك أن ازدياد شراهة الرأسمالية وشحها أدى الى ظهور الحركة التعاونية لتحد من هذه الشراهة وهذا الشح · وهذه الحركة التعاونية تتمثل فى جماعة من الناس قد اشتركوا معا فى شراء أو بيع السلع العامة وتقسيم الارباح فيما بينهم · وطريق الرأسمالية العادى هو طريق المنافسة القاتلة حيث يحاول كل شخص أن يسبق الآخر · أما الطريق التعاونى فقائم على أساس التعاون المتبادل ، ولا بد أنك رأيت كثيرا من الشركات التعاونية·وقد نمت الحركة التعاونية وانتشرت انتشارا كبيرا فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، ولعل الدانمارك الصغيرة هى الدولة التى أحرزت فيها الحركة التعاونية أكبر نجاح ·

ومن الناحية السياسية أخذت الأفكار الديمقراطية تظهر وتنمو وتنتشر ، كما نالت الشعوب أكثر فأكثر حق انتخاب برلماناتها ومجالسها النيابية · ولكن حق الانتخاب هذا كان قاصرا على الرجال ، وأما النساء ، حتى القادرات وذوات الكفاءة منهن ، فقد حرمن حقهن الانتخابى على أساس أنه ليس من الخير أو الحكمة منحهن هذا الحق· وقد استاء من هذا الموقف كثير من النساء ، وفى أوائل القرن العشرين

نظمت النســاء فى انجلترة اضرابات ومظاهرات طالبن فيها بحقهن الانتخابى ٠

ولكن الرجال لم يأخذوا حركة المطالبة بحق المرأة الانتخابى مأخذ الجد ، وبالتالى لم يصغوا اليها اى اصغاء ٠ ولهذا لجأت المرأة فى المطالبة بحقها الى طرق الشدة والعنف لجذب الانظار الى قضيتها ، ومن ذلك أن النساء الانجليزيات اقتحمن البرلمــان وأحدثن شغبا فيه وشوشن على النواب فى عملهم ٠ ومن ذلك أيضا أنهن اعتدين على الوزراء الانجليــز بالضرب حتى اضطر هؤلاء الوزراء الى التنقــل فى حماية البوليس المستمرة ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد وانما زاد العنف المنظم وانتشر ، ونتيجة لكل ذلك زج بكثير من النساء فى السجن حيث أضربن عن الطعام ٠ ثم أفرج عنهن ، حتى اذا استعدن صحتهن وقوتهن، زج بهن ثانية فى السجن ٠

وقــد وافق البرلمــان على قانون يجيــز القبض على هؤلاء النســاء وسجنهن ، وقد أسمى العامة هذا القانون « قانون القط والفأر » ٠

على أية حال ، لقد نجحت وسائل المطالبات بحق الانتخاب فى اثارة الاهتمام على صعيد واسع ، وفى كسب التأييد الشعبى ، ولم تمض سنوات قليلة بعــد الحرب العالميــة (الأولى) حتى اعترف للمرأة فى انجلترة بحقها الانتخابى ٠

ولم تقتصر حركة المرأة ، أو الحركة النسوية كما تسمى كثيرا ، على المطالبة بحق الانتخاب ، وانما تعدت ذلك الى طلب المساواة بين الرجل والمرأة فى كل شىء ٠

وموقف المرأة فى الغرب كان الى عهد قريب سيئا ، حيث لم تكن قد ظفرت الا بالقليل من حقوقهـا ، فالقانون لم يكن يخـول المرأة الانجليزية مثلا حتى حق التملك ، بينما كان يخول الزوج أن يستولى على كل شىء حتى دخل زوجته· أجل ، كانت المرأة الانجليزية بمقتضى القانون أسوأ حالا حتى من المرأة اليوم تحت القانون الهندى · وهذا يبين مدى ما كانت عليه المرأة الانجليزية من حال سيئة ·

فالمرأة فى الغرب كانت فى حقيقة الأمر جنسا يدين بالخضـوع والتبعية للرجل ، كما هو شأن المرأة الهندية اليوم فى أحوال كثيرة· وقد حدث قبل بدء الكفاح من أجل حق الانتخاب بزمن طويل أن طالبت المرأة بأن تعامل مع الرجل على قدم المساواة فى شئون أخرى ·

وقد أعطيت المرأة الانجليزية قبيل نهاية القرن التاسع عشر بعض الحقوق ، كحق التملك ، ونجاحها فى اكتساب هذا الحق يرجع الى تحبيذ أرباب المصانع له ، معتقدين أن المرأة اذا مكنت من أن تحتفظ بدخلها لنفسها فان هذا من شأنه أن يستميلها الى العمل فى المصانع ·

وعلى الاجمال ، اذا نظرنا الى كل جانب فاننا نلحظ تغييرات كبيرة ، ولـكن الأمر ليس كذلك اذا نظرنا الى أساليب الحـكومات ، فالدول العظمى ظلت تتبع المؤامرات وضروب الخداع التى أوصى بها منذ عهد طويل مكيافيلى الفلورنسى ، والتى أوصى بها من قبله عام ١٨٠٠ الوزير الهندى « تشانكيا » Chânakya.

فبين الدول العظمى كانت هناك منافسة لا تنقطع ، وكان هنـاك أحلاف ومعاهدات سرية ، وكانت كل دولة منها تحاول أن تسـبق الدول الأخرى · وقد لعبت أوربا ، كما رأينـا ، الدور الايجـابى العدوانى ، ولعبت آسيا الدور السلبى · أما دور أمريكا فى ميـدان

السياسة الدولية فكان بالنسبة الى دور الدول العظمى الأخرى دورا صغيرا ، وذلك لانشغال بالها بشئونها الخاصة وانهماكها فيها ٠

ومع فكرة القومية تطورت فكرة تعصب الانسان لوطنه مصيبا أو مخطئا ٠ كذلك مجدت الشعوب على اتيان أشياء ، لو أتاها الأفراد لكانت قبيحة خارجة على مبادىء الأخلاق ٠

وهكذا نشأت مفارقة غريبة بين أخلاق الأفراد وأخلاق الشعوب ، ووجد فرق شاسع بين الاثنين ، وأصبحت رذائل الأفراد فضائل الشعوب ٠

ولا جدال فى أن الأنانية والطمع والشراهة والتعاظم والخسة والفظاظة أمور شائنة لا تغتفر فى حالة الأفراد رجالا ونساء ، أما فى حالة الجماعات والشعوب فقد اعتبرت أمورا تحمد وتشجع باسم حب الوطن وتحت رداء الوطنية النبيل ٠

وليس هذا فقط ، بل أصبح حتى الاغتيال والقتل أمرين جديرين بالثناء والمدح اذا ارتكبتهما الجماعات والشعوب الكبيرة ضد بعضها بعضا !

وقد قال كاتب حديث ، وهو على حق فيما قال : « لقد أصبحت المدنية وسيلة تقترف بها الجماعات آثام الأفراد » ٠

١٤٦ — الحرب العالمية (١) تبدأ

٢٣ مارس ١٩٣٣

فى ختام رسالتى السابقة أبنت لك مدى خبث الدول وفساد طويتها عند ما تعامل بعضها بعضا ٠

فكل دولة تعتبر من علامات استقلالها أن تتخذ ضد الآخرين موقفا هجوميا لا يغتفر ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وأن تمارس سياسة من يعزف عن استعمال الشيء ، وفى الوقت ذاته لا تسمح لغيرها باستعماله ٠

وهل هناك قوة أو سلطة تستطيع أن تكره أى دولة على التزام آداب السلوك ؟ أوليست هذه الدولة أو تلك مستقلة ؟ ثم أليس أى تدخل على هذا النحو يقابل بالاستياء والحنق والاستنكار ؟

ولعل الشيء الوحيد الذى يكبح من جماح الدول هو الخوف من النتائج والتبعات ٠ ومن أجل ذلك احترمت الدول القوية الى حد ما واستذلت الدول الضعيفة ٠

(١) يقصد الحرب العالمية الأولى من ١٩١٤–١٩١٨

وهذه المنافسة القوية كانت في الحقيقة نتيجة حتمية لنمو الصناعة الرأسمالية . وقد رأينا كيف أن الطلب المتزايد للأسواق والمواد الخام جعل الدول الرأسمالية الكبرى تتسابق حول العالم رغبة في بناء امبراطوريات لها .

أجل تدافعت هذه الدول حول آسيا وافريقية للاستيلاء على أكبر ما يمكن الاستيلاء عليه من الارض واستغلاله . وعند ما احتلت المعمور من الدنيا ولم يعد هناك مجال آخر لتوسعها ، بدأت الدول الرأسمالية الكبرى يحملق بعضها في بعض ، وتطمع هذه في ممتلكات تلك .

وكثيرا ما نشأ التصادم بين هذه الدول العظمى في آسيا وافريقية وأوربا ، وتأججت نيران الغضب بينها ، وبدت الحرب معلقة في الميزان .

ومن الدول العظمى من كانت أحسن حالا من الأخرى ، ولعل انجلترة بسبقها الصناعي وامبراطوريتها الشاسعة الأطراف كانت أكثر الجميع حظا . ومع ذلك فان انجلترة لم تكن قانعة بما عندها ، ولا غرابة في ذلك ، فكلما زاد ما لدى الانسان كثر جشعه وتلهفه على طلب المزيد .

وقد ازدحمت رءوس بناة الامبراطورية الانجليزية بمشروعات للتوسع مساحة ونفوذا ، مشروعات تهدف الى امبراطورية افريقية تمتد بلا انقطاع من الشمال الى الجنوب ، ومن القاهرة الى رأس الرجاء الصالح .

وكانت انجلترة أيضا مضطربة منزعجة من منافسة ألمانيا والولايات المتحدة لها في ميدان الصناعة . فهاتان الدولتان كانت منتجاتهما

الصناعية أرخص من منتجات انجلترة ، ولهذا كانتا تسلبان انجلترة أسواقها .

فاذا كانت انجلترة المحظوظة غير قانعة ، فان الدول الأخرى كانت بلا شك أقل منها قناعة ورضا ، ولاسيما ألمانيا التى لحقت متأخرة بركاب الدول العظمى ، ووجدت أن كل الثمار الناضجة الشهية قد ذهبت لغيرها .

فألمانيا كانت قد تقدمت تقدما عظيما فى العلوم ، والتعليم ، والصناعة ، وبنت فى الوقت ذاته جيشا هائلا . وفى ميدان الاصلاح الاجتماعى كانت قد سبقت الدول الأخرى بما فيها انجلترة فى ميدان التشريعات التى سنتها لعمالها .

وعلى الاجمال كانت الدنيا محتلة بالدول الاستعمارية الأخرى عند ما ظهرت ألمانيا على مسرح الحوادث ورأت طرق الاستغلال محدودة . ولكنها على الرغم من ذلك أصبحت بالعمل الشاق وتنظيم نفسها أقوى وأكفأ دولة فى عصر الرأسمالية الصناعية .

فسفنها التجارية كانت تغشى كل ميناء ، وكانت هامبورج وبريمن Bremen الالمانيتان معدودتين بين أكبر موانىء الدنيا ، ولم يحمل الاسطول التجارى الألمانى السلع والمنتجات الالمانية الى أقطار بعيدة فقط ، وانما استولى أيضا على نقل تجارة الأقطار الاخرى .

لم يكن عجيبا اذن من المانيا الجديدة الاستعمارية هذه ، مع نجاحها وشعورها الكامل بالقوة ، أن تغضب وتثور على القيود التى فرضت عليها للحيلولة دون اطراد نموها وتقدمها .

وكانت بروسيا هى زعيمة الامبراطورية الالمانية ، ولم يعرف

أبدا عن مالك الأرض البروسى أو الطبقة العسكرية قبول الهوان والمذلة ، وانما كانا مبادئين بالشر والاعتداء ومتباهيين به ، وقد وجدا فى شخص القيصر ولهيلم الثانى زعيما مثاليا تتجلى فيه روح الزهو والتعاظم والاعتداء •

فهذا القيصر طفق يعلن فى كل مكان وكل مناسبة أن المانيا فى طريقها الى زعامة العالم ، وأنها تريد لنفسها مكانا تحت الشمس ، وأن مستقبلها مرهون بالبحر ، وأن رسالتها هى أن تنشر ثقافتها فى جميع أرجاء الدنيا •

ومثل هذا القول ردده من قبله أناس آخرون وشعوب أخرى • قالته انجلترة عندما ادعت أن رسالتها تتمثل فى الاضطلاع بعبء الرجل الأبيض ، وقالته فرنسا حينما زعمت أن رسالتها هى نشر المدنية •

فانجلترة ادعت ، وكانت على حق فى دعواها ، أنها متفوقة بأساطيلها فى البحار • أما القيصر فقد ادعى لألمانيا وبأسلوب فج مبالغ فيه ما ادعاه كثير من الانجليز لانجلترة ، مع فارق واحد ، هو أن ما ادعته انجلترة كانت تملكه فعلا ، على حين ما ادعته المانيا كانت لاتملك منه شيئا •

ومع هذا فقد استفزت دعاوى القيصر الانجليز غاية الاستفزاز ، وأوغرت صدورهم • ففكرة أن يجرؤ أى شعب آخر حتى على مجرد التفكير فى أن تصير له زعامة العالم ، كانت فكرة بغيضة لدى الانجليز • ولم تكن كذلك فى نظرهم فحسب ، وانما كانت بدعة من البدع ، وهجوما صريحا على انجلترة التى اعتبرت نفسها زعيمة الشعوب •

أما البحر فقد اعتبر أمرا من الأمور التي احتفظت بها انجلترة لنفسها منذ هزيمة نابليون في موقعة الطرف الأغر منذ مائة سنة (١) ولهذا يرى الانجليز أنه لايليق مطلقا بألمانيا أو بأى شعب آخر أن يتحدى هذا الموقف ٠ فاذا لم تعد انجلترة ذات قوة وسيادة فى البحار فماذا يكون مصير امبراطوريتها الشاسعة الاطراف ؟

فتحدى القيصر وتهديده كانا فى حد ذاتهما أمرا سيئا ، ولكن الأسوأ من ذلك أن يقوم القيصر فعلا بعد هذا التحدى والتهديد بزيادة أسطوله وتقويته وتدعيمه ٠ لقد أزعج هذا الأمر الانجليز ونال من أعصابهم فاندفعوا يزيدون من قوة أسطولهم ٠ وهكذا بدأ تسابق بحرى بين الدولتين ، وراحت صحافة البلدين تشن كل منهما على الأخرى حملات صاخبة ، وتزيد من حدة الحقد القومى ، وتطالب ببناء الكثير من البوارج الحربية ٠

هذه كانت منطقة من مناطق الخطر الكثيرة فى أوربا ٠ وكانت فرنسا والمانيا بطبيعة الحال منافستين قديمتين ، وكانت ذكريات الهزيمة المؤلمة التى أصابت فرنسا عام ١٨٧٠ تلتهب فى عقول الفرنسيين ممن كانوا يحلمون بالانتقام ٠ وكانت دول البلقان صندوق بارود ، حيث كانت تتصادم فيها مصالح شتى ٠

وقد بدأت المانيا أيضا تتودد الى تركيا بقصد زيادة نفوذها فى غرب آسيا ٠ ومن ذلك أنها اقترحت انشاء طريق حديدى الى بغداد ، يصل هذه المدينة بالقسطنطينية وأوربا ٠ وكان هذا المشروع مرغوبا فيه جدا ، ولكن رغبة المانيا فى أن تكون لها الرقابة على هذا الطريق الحديدى أثارت الغيرة القومية لدى بعض الدول ٠

(١) كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٣ ٠

وشيئا فشيئا بدأ الخوف من الحرب ينتشر فى أوربا ، ونتيجة لذلك بدأت الدول العظمى تنشد الأحلاف دفاعا عن نفسها • وقد انقسمت الدول العظمى الى معسكرين : معسكر يضم حلفا ثلاثيا من المانيا والنمسا وايطاليا ، ومعسكر آخر يضم حلفا ثلاثيا أيضا من انجلترة وفرنسا وروسيا •

وكانت ايطاليا عضوا فاتر الهمة عديم الجدوى فى الحلف الألمانى، وعندما نشبت الحرب نقضت عهدها وانضمت الى المعسكر الآخر • وكانت النمسا امبراطورية مفككة متداعية ، تبدو على الخريطة مساحة كبيرة ، وتشيع فيها العناصر غير المؤتلفة • وكانت عاصمتها « فينا » الجميلة هى خير ما فيها ، لأنها كانت مركزا كبيرا للعلوم والفنون والموسيقى • لهذا كان الحلف الثلاثى الذى تتزعمه المانيا لايعنى غير المانيا فقط ، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يعرف ، قبل قيام الحرب ، حقيقة كل من ايطاليا والنمسا •

وهكذا تحكم الخوف فى أوروبا ، والخوف أمر فظيع • فكل دولة مضت تستعد للحرب وتسلح نفسها الى أقصى حدود التسلح • لقد كان هناك سباق فى التسلح • والعجيب فى أمر هذا السباق أن الدول كانت تضطر ، عندما ترى احداها تستزيد من أسلحة الحرب ، الى أن تضاعف هى الأخرى من استعداداتها الحربية •

وكان طبيعيا أن تجنى المصانع الحربية الكبرى ثروات طائلة من وراء انتاج المدافع والبوارج والذخيرة وغير ذلك من ضروب العتاد الحربى • ولم يقف أرباب المصانع الحربية الخاصة عند حد انتاج أسلحة الخراب والدمار ، وانما ذهبوا الى أبعد من ذلك • فقد بدأوا فى الحقيقة يملأون قلوب الناس فزعا ورعبا من الحرب ، وذلك بقصد دفع الدول والأقطار لشراء مزيد من الأسلحة • وكانت هذه المصانع الحربية الكبرى غنية وقوية جدا • وكثيرون من الوزراء وذوى المناصب

العالية فى انجلترة وفرنسا والمانيا وغيرها كانوا من المساهمين فيها ، وكان يهمهم أن تزدهر وتتضاعف أرباحها ، وازدهار مصانع الأسلحة يأتى عادة من نشر الخوف من الحرب ثم من الحرب الفعلية • فالموقف الغريب هنا هو أن الوزراء وأرباب المناصب الكبرى فى كثير من الحكومات كانت لهم مصلحة مالية فى قيام الحرب واشعال نيرانها !

وقد لجأت هذه المصانع الحربية الى طرق شتى لزيادة اعتمادات الحرب في دول مختلفة • من ذلك أنها اشترت صحفا ومجلات لتؤثر عن طريقها فى الرأى العام ، وكثيرا ما رشت ذوى المناصب الحكومية الكبرى ، ونشرت أنباء كاذبة بقصد اثارة مشاعر الناس • فما أفظع وأشنع صناعة الأسلحة التى تحيا على موت الآخرين ، والتى لاتتردد فى تشجيع خلق الرعب فى الاذهان من أهوال الحرب كى تثرى وتربح على حساب ذلك ! لقد ساعدت هذه الصناعة الى حد ما على التعجيل بنشوب حرب عام ١٩١٤ ، ولا تزال هذه الصناعة حتى اليوم تلعب نفس الدور •

وبعد ، فأرى لزاما على وأنا فى معرض الحديث عن الحرب أن أحدثك عن محاولة غريبة للابقاء على السلام • فقيصر روسيا نيقولا الثانى ، قام دون سائر الناس ، واقترح على الدول العظمى أن تجتمع لتمهد السبيل الى عصر من السلام العالمى • ذلك هو القيصر الذى حطم كل حركة تدعو الى الحرية فى امبراطوريته ، والذى ملأ سيبيريا بالسجناء والمنفيين الاحرار ! فدعوته للكلام عن السلام بعد ذلك تبدو كما لو كانت ضربا من الفكاهة والمزاح •

ومن الجائز أنه كان مخلصا فى دعوته ، فاستقرار السلام العالمى بالنسبة له كان يعنى دوام الأحوال القائمة فى امبراطوريته ، واستمرار حكمه الفردى الاستبدادى •

واستجابة لدعوته عقد مؤتمران فى لاهاى بهولندة فى عامى ١٨٩٩ و ١٩٠٧ ، ولكنهما لم ينجحا فى الوصول الى أى شىء ذى بال . ولم تكن هذه النتيجة بالأمر المستغرب ، فالسلام لايتنزل فجأة من السماء ، وانما يأتى فقط من استئصال أسباب الاضطراب والمشاكل من جذورها .

لقد حدثتك كثيرا عن منافسات الدول العظمى ومخاوف بعضها من بعض . فالدول الصغيرة الفقيرة حظها التجاهل والاهمال دائما ، الا اذا ساء تصرفها . ففى شمال أوربا توجد بعض الدول الصغيرة التى تستحق الاهتمام ، لأنها تختلف اختلافا بينا عن الدول العظمى البخيلة الجشعة . ومن هذه الدول الصغيرة النرويج والسويد والدنمارك .

فهذه الدول ليست بعيدة عن القطب الشمالى ، ومناخها بارد ، والحياة فيها قاسية ، ولا يستطيع أن يعيش على مافيها الا عدد قليل محدود من السكان . ولكونها تعيش خارج الدائرة التى يتركز فيها حقد الدول العظمى وغيرتها ومنافستها ، نراها تحيا حياة هادئة ، وتنفق جهودها فى سبل من الحياة المتمدينة ، كما نرى العلوم والآداب ترقى وتزدهر فى ربوعها .

وحدث أن انضمت النرويج والسويد معا وكونتا دولة واحدة حتى عام ١٩٠٥ ، ثم قررت النرويج أن تنفصل وأن تمارس حياتها مستقلة . ولهذا اتفقت الدولتان أن تفصما عرى اتحادهما سلميا ، ومنذ ذلك الحين أصبحتا دولتين مستقلتين . ولم تنشب حرب بينهما ، ولم تحاول احداهما أن تكره الأخرى على مالا ترضى ، وانما استمرتا تعيشان جارتين صديقتين :

وقد ضربت الدنمارك الصغيرة مثلا رائعا للدول الكبرى والصغرى

معا عندما ألغت جيشها وأسطولها • وشعب الدنمارك شعب زراعى ، والفرق بين مزارعيه الأغنياء والفقراء ليس كبيرا • وهـذه المساواة التى يتمتع بها هذا الشعب ترجع فى جملتها الى تطور الحركة التعاونية فيها ونموها نموا كبيرا •

ولكن ليس كل دول أوربا الصغرى نماذج للفضيلة تحتذى كالدنمارك • فهولندة ، على صغرها ، تتحكم فى امبراطورية كبيرة فى الهند الشرقية من جاوة [(1)] وسومطرة الخ ••

ويلى هولندة بلجيكا التى تستعمر الكنغو فى افريقية وتستغله • وأهمية بلجيكا الحقيقية فى السياسة الأوربية تأتى من موقعهـا الجغرافى ، فهى تكاد تكون على الطريق الرئيسى بين فرنسا والمانيا ، وكل حرب تقوم بين هاتين الدولتين تجر بلجيكا اليها • وسوف تذكرين أن « ووترلو » [(2)] قريبة من « بروكسل » عاصمة بلجيكا • ولهذا السبب كان يطلق على بلجيكا اسم « ميدان قتال ديوك أوربا » ، وقد اتفقت الدول العظمى على احترام حياد بلجيكا فى حالة الحرب ، ولكن هذا الاتفاق أو الوعد ، كما سنرى تبدد وتلاشى عندما قامت الحرب •

على أن أكثر الدول الصغرى شجارا وشقاقا ، سواء فى أوربا أو غيرها ، هى دول البلقان • فهذا الخليط المتنافر من الناس والأجناس ، ومن ورائه عداوة ومنافسة أجيال ، يتفشى بينه الحقد والصراع المتبادلان •

---

(١) كان ذلك قبل استقلال اندونيسيا •
(٢) الموقعة التى انهزم فيها نابليون •

فحروب البلقان فى عامى ١٩١٢ و ١٩١٣ كانت حروبا دموية منكرة ، ومع أنها قامت لفترة قصيرة وكانت تدور رحاها فى منطقة صغيرة فان خسائرها كانت فادحة • ويقال ان البلغار ارتكبوا ضد الأتراك المتقهقرين واللاجئين جرائم فظيعة شنعاء • وقد حفل سجل الأتراك أنفسهم فى السنوات الأولى بضروب شتى من القسوة والوحشية • والصرب التى هى الآن جزء من يوغوسلافيا اكتسبت سمعة شريرة فى حوادث الاغتيال •

ففى الصرب تألفت عصابة سرية ممن يسمون أنفسهم بالوطنيين هدفها الاغتيال • وقد أطلق على هذه العصابة « اليد السوداء » • وكان من بين أعضائها بعض ذوى المناصب العليا فى الدولة ، واليها يعزى ارتكاب بعض حوادث اغتيال بشعة •

فملك الصرب وملكتها ، الملك اسكندر والملكة دراجا ، وأخوة الملكة ، ورئيس الوزراء وغيرهم ، قتلوا جميعا بطريقة تثير التقزز والاشمئزاز • وهذه كانت ثورة قصر فقط أريد بها افساح الطريق لشخص آخر ليتولى الملك •

هكذا بدأ القرن العشرون برعد وبرق فى سماء أوربا ، وعلى توالى السنين اكفهر هذا الجو واشتدت عواصفه • ثم زادت العراقيل والأحابيل ، وأصبحت حياة أوربا مقيدة بعقد لا يمكن حلها أو قطعها فى النهاية الا بالحرب •

وقد توقعت كل الدول العظمى حدوث حرب ، ولهذا غشيتهم حمى الاستعداد لها • ومن يدرى ؟ فلعل أحدا من هذه الدول لم يكن راغبا فيها أو متلهفا عليها • فجميعهم كانوا خائفين منها الى حد ما ، لأنه لم يكن فى استطاعة أية دولة أن تتنبأ تنبؤا جازما بالنتائج التى تنتهى اليها الحرب ، ومع هذا فقد دفعهم الخوف من الحرب الى الحرب •

وكما أخبرتك من قبل ان معسكرى أوربا قد تحالف أحدهما ضد الآخر • وقد أطلق على هذين المعسكرين « ميزان القوة » وكان فى الواقع ميزانا دقيقا حساسا جدا تكاد أى دفعة أو هبة أن تطوح به •

فاليابان على بعد ما بينها وبين أوربا ، وعلى عدم اهتمامها الكثير بمشاكل أوربا المحلية ، كانت طرفا فى أحد حلفيها أو فى ميزان القوة هذا • كانت اليابان حليفة انجلترة ، وقد قصد بهذا الحلف أن ترعى اليابان المصالح الانجليزية فى الشرق وبخاصة فى الهند • ويرجع هذا التحالف الانجليزى اليابانى الى أيام المنافسة بين روسيا وانجلترة ، وقد استمر هذا التحالف ، على الرغم من انضمام روسيا الى معسكر انجلترة • وكانت أمريكا هى الدولة الكبرى الوحيدة التى ظلت بمعزل عن نظام الأحلاف الأوربية وموازين قوتها •

هكذا كانت الأحوال عام ١٩١٤ • ولعلك تذكرين أن انجلترة فى هذا الوقت كانت تواجه متاعب كثيرة فى ارلندة بسبب الحكم الداخلى فيها • فألستر Ulster كانت ثائرة ، والمتطوعون من أبنائها كانوا يتدربون على القتال فى الشمال والجنوب ، وكان هناك كلام عن حرب أهلية فى ارلندة •

ومن المحتمل جدا أن الحكومة الالمانية قدرت أن الاضطراب الارلندى قد يشغل انجلترة فلا تتدخل اذا نشبت حرب أوربية • ولكن الحكومة الانجليزية كانت ، فى الواقع ، قد التزمت سرا بالانضمام الى فرنسا فى حالة الحرب ، ولكن هذا الالتزام لم يكن أمرا معروفا •

وفى يوم ٢٨ يونية عام ١٩١٤ انطلقت الشرارة التى أشعلت نيران الحرب • فى هذا اليوم ذهب الأرشيدوق فرانسيس فردناند وارث عرش النمسا لزيارة « سيراجيفو » Serajevo عاصمة البوسنة فى

البلقان • وكما أخبرتك من قبل ، كانت النمسا قد ضمت البوسنة الى امبراطوريتهــا قبل هــذه الزيارة بســنوات قليلة ، وعندما كان الأتراك الذين تتألف منهم حركة « تركيا الفتاة » يحاولون التخلص من سلطانهم •

فبينما كان الأرشيدوق وزوجته يطوفان فى شوارع « سيراجيفو » فى عربة مكشوفة اغتالهما مجهول باطلاق الرصاص عليهما •

لقد ثارت النمسا حكومة وشعبــا لهذا الحــادث ، واتهمت حكومة الصرب ، والصرب جارة البوسنة ، بالاشتراك فى هذه الجريمة ، ولكن حكومة الصرب بطبيعة الحال أنكرت ما نسب اليها •

وقد دلت التحريات والتحقيقات بعــد وقوع الحادث بوقت طويل على أن حكومة الصرب ، ولو أنها غير مســئولة عن الحــادث ، لم تكن جاهلة كل الجهل بالمؤامرات التى كانت تبيت لارتكابه • فالمسئولية عن هذا الاغتيال يجب أن يقع الجزء الأكبر منها على عاتق منظمة « اليد السوداء » الصربية •

أما حكومة النمسا فقــد وقفت موقفا عدائيا جــدا ازاء الصرب ، وهى فى ذلك كانت مدفوعة بباعث الغضب الى حــد ما ، وببــاعث السياسة الى حد كبير • لهذا قررت أن تذل الصرب اذلالا لا قيامة لها من بعده ، معتمدة فى ذلك على مساعدة المــانيا القوية فى حالة نشوب حرب على صعيد أوسع • ومن ثم لم تقبل النمسا الاعتذارات الصربية، وفى يوم ٢٣ يولية ١٩١٤ أرسلت انذارا نهائيا الى الصرب • وبعــد هذا الانذار بخمسة أيام ، وعلى التحــديد يوم ٢٨ يوليــة ، أعلنت النمسا الحرب على الصرب •

فى هـذا الوقت ، كانت مقاليد السـياسة النمسوية فى يد وزير مغرور أحمق منطو على الحرب • وقـد اسـتميل الامبراطور المعمـر فرانسيس جوزيف الذى تبوأ عرش النمسا منذ عام ١٨٤٨ للموافقة على الحرب ، كما فسر شـبه وعد من المـانيا على أنه تأكيـد تام بالمساعدة •

ومن المحتمل جـدا أن لا أحد غير النمسا من الدول العظمى كان راغبا فى الحرب وقتئذ • فألمـانيا مع كل استعدادها وولعها بالقتال لم تكن متلهفة على الحرب ، وقد حاول حتى القيصر ولهيلم الثانى الى حد ما أن يمنع وقوعها • وكانت انجلترة وفرنسـا غير متلهفتـين عليها • وكانت الحكومة الروسية تعنى القيصر ، وهو شخص أحمق ضعيف تحيط به بطانة اختـارها من الحمقى والمرائين والمحتـالين والمخادعين ، توجهه حسبما تريد ، وتؤرجحه هنا وهناك •

ومع هذا فكان معلقا فى يدى هذا الرجل مصير ملايين من الناس • لقد كان هو نفسه معارضا للحرب غير ميـال للدخول فيها ، ولـكن مستشاريه خوفوه من نتائج التردد والتأخير وما زالوا به حتى وافق على تعبئة الجيش • وقد عنت هذه « التعبئة » استدعاء الجنود للخدمة العاملة ، وكان طبيعيا أن تستغرق هذه العملية وقتا فى قطر شاسع الأطراف كروسيا •

وربما كان الخوف من هجوم ألمـانى هو ما عجل بعمليـة التعبئـة الروسية • وقد انزعجت المـانيا لأنباء هذه التعبئـة التى بدأت فى ٣٠ يولية ، ولهذا طالبت روسـيا بضرورة ايقافها ، ولـكن ما كان يمكن وقتئذ ايقاف آلة الحرب الضخمة •

وفى اليوم الأول من شـهر أغسطس عبأت المـانيا قواها وأعلنت الحرب على كل من روسيا وفرنسا ، وبدأت فى الحـال جيوش المـانية

تغزو بلجيكا لتنفذ منها الى فرنسا لسهولة هذا الطريق ٠

ومما لاشك فيه أن بلجيكا المسكينة لم تصب ألمـانيا بأى ضرر أو أذى ،ولكن الشعوب عندما تحارب من أجل الحيـاة والموت لا تبـــالى بالعهود والوعود ٠

لقد طلبت الحكومة الالمـانية من بلجيكا أن تصرح لجيوشها بالمرور عبر أراضيها ، ولكن بلجيكا بطبيعة الحال رفضت الاستجابة الى طلب المـانيا فى غيظ وغضب ٠

وقد قامت ضجة كبرى فى انجلترة وغيرها بسبب الاعتــداء على حياد بلجيكا ، واتخذت انجلترة من هذا تكأة لاعــلان الحرب ضــد ألمـانيا ٠ وفى الواقع ان اختيار انجلترة كان قد تم منذ وقت طويل ، أما موضوع بلجيكا فقد جاء كعذر مناسب ٠

ويبدو الآن أن الجيش الفرنسى أيضا كان قد أعد خططا فى سنوات ما قبل الحرب لارسال جيوش فرنسية عبر بلجيكا لمهاجمة المـانيا اذا ما استدعى الأمر ذلك ٠

على أية حال لقد حاولت انجلترة أن تصــطنع موقف المدافع عن الحقيقة والحق ، وموقف الحامى للشعوب الصغيرة من شر المـانيا التى قيل انها نقضت وعودها ومعاهداتها واعتبرتها « قصاصات من الورق»

وفى منتصف ليلة اليوم الرابع من شهر أغسطس أعلنت انجلترة الحرب ضد المـانيا ، ولكنها كانت قد احتاطت فأرسلت سرا حملة من جيشها عبر القنال الانجليزى قبل اعلان الحرب بيوم واحــد لتتفادى وقوع أى كارثة ٠ وعلى هذا فبينما كان العــالم يفكر فيما اذا كانت

انجلترة ستدخل الحرب ، أو لاتدخل ، كانت فرق من جيشها قد احتلت مواقعها على القارة الأوربية ٠

وهكذا نرى النمسا ، وروسيا ، وفرنسا ، وانجلترة قد اشتبكت فى الحرب ، كما اشتبكت فيها أيضا الصرب ، هذه الدولة الصغرى التى كانت الى حد ما السبب المباشر لهذا الانفجار ٠

ولكن ماذا كان موقف ايطاليا ، حليفة النمسا والمانيا ؟ لقد وقفت ايطاليا بمعزل ، وأخذت ايطاليا ترقب لترى مع أى جانب تكون المنفعة ٠ وساومت ايطاليا ، وأخيرا ، وبعد ستة أشهر من بدء الحرب ، انضمت ايطاليا نهائيا الى معسكر فرنسا وانجلترة وروسيا ضد حليفتيها القديمتين ٠

وهكذا شهدت الأيام الأولى من شهر أغسطس عام ١٩١٤ تجمع جيوش أوربا وزحفها ٠ وماذا كانت هذه الجيوش ؟ كانت الجيوش فى العصور القديمة تتألف من عدد من الجنود المحترفين ، وكانت جيوشا دائمة ٠ ولكن الثورة الفرنسية ، على أية حال ، أحدثت تغييرا كبيرا ٠ فعندما كانت الثورة فى خطر من هجوم أجنبى ، كان يدعى المواطنون العاديون ويدربون فى أعداد كبيرة ٠

ومنذ ذلك التاريخ فصاعدا ظهر فى أوربا اتجاه يرمى الى أن يحل محل الجيوش المتطوعة المحترفة القليلة العدد ، جيوش أخرى تتألف من كل ذى جسم صحيح قوى فى القطر ، وهؤلاء تفرض عليهم الخدمة العسكرية اجباريا بحكم القانون ٠ وعلى هذا فنظام الخدمة العسكرية الشائع اليوم ، والذى يعتمد على ذوى الأجسام القوية السليمة هو ربيب الثورة الفرنسية ٠

وقد انتشر هـذا النظام العسكرى فى أوربا ، حيث كان على كل شاب أن يتلقى تدريبا عسكريا لسنتين أو أكثر فى معسكر ما ، وأن يقوم بواجب الخدمة العسكرية عنـدما يدعى اليها • وعلى هـذا فأى جيش أثناء الحرب يعنى فى الغالب كل شباب الشعب •

وكان هذا النظام معمولا به فى فرنسا والمـانيا والنمسا وروسيا ، والتعبئة فى هذه الأقطار تعنى استدعاء كل الرجال الشبان القادرين على حمل السلاح من بيوتهم فى المدن والقرى البعيدة •

ولم يكن فى انجلترة خدمة عسكرية عامة من هـذا النوع عندما نشبت الحرب • ولاعتمادها على أسطولها البحرى القوى ، كان لديها جيش صغير نسبيا من المتطوعين الدائمين • بيد أنها اضطرت أثنـاء الحرب الى أن تجارى الدول الأخرى ، وتدخل على جيوشهـا نظـام الخدمة العسكرية الاجبارية •

ونتيجة لهذه الخدمة العسكرية العامة كان الشعب كله مجندا • وقد تأثرت بقوانين التعبئـة العامة كل مدينـة ، وكل قرية ، وكل أسرة • وفى الجزء الأكبر من أوربا توقفت الحيـاة فجـأة فى الأيام الأولى من شهر أغسطس ، وهجر الرجال القادرون ملايين البيوت الى غير عودة • وكان فى كل مكان تحرك ، ووقع أقـدام ، وهتـافات للجنود ، ومظاهر من الحماسة الوطنية ، وشد لأوتار القلوب وخفة روح ، ذلك لأن أهوال السنين القادمة وفظائعها ما كانت لتدرك على حقيقتها وقتئذ •

فهذه الوطنيـة الحادة الجـارفة اكتسحت كل شـخص أمامهـا • فالاشتراكيون الذين كانوا ينادون بمبـدأ المصـالح المشـتركة بين الشـعوب ، والمركسـيون الذين دعوا عمـال العـالم للاتحاد ضـد الرأسمالية عدوهم المشترك ، كل هؤلاء انضموا كوطنيين متحمسـين

الى هذه الحرب التى شنها الرأسماليون • وبعض هؤلاء ظلوا فى موقفهم ، ولكنهم كانوا يحقرون ويلعنون وكثيرا ما عوقبوا • وكثير من الناس ذهب بعقولهم الحقد على العدو •

وبينما يقتل العمال الانجليز والالمان بعضهم بعضا ، كان المثقفون والعلماء ومفكرو هاتين الدولتين ، وأمثالهم من أبناء الدول المتحاربة يلعن بعضهم بعضا ، ويصدق كل منهم أبشع القصص عن الآخر •

وهكذا انتهى بظهور الحرب دور القرن التاسع عشر ، وابتلعت فجأة دوامة الحرب نهر المدنية الغربية ، هذا النهر الفياض الهادىء العظيم • لقد انتهت الدنيا القديمة الى الأبد ، ثم تكشفت هذه الدوامة عن شىء جديد بعد حرب عالمية دامت أكثر من أربع سنوات •

١٤٨ — حرب ١٩١٤ - ١٩١٨

٣١ مارس ١٩٣٣

ماذا أكتب اليك عن هـذه الحرب ؟ ماذا أكتب اليـك عن الحرب العالمية ، أو الحرب العظمى ، كما يسمونها ؟ ماذا أكتب اليك عن تلك الحرب التى دامت أكثر من أربع سنوات منيت فيها أوربا وبعض بقاع آسيا وافريقية بالخراب والدمار ، وراح ضحيتها ملايين من الرجال فى ريعان شبابهم ؟

ان الحرب ليست موضوعا سارا شائقا يتملاه الانسان ويفكر فيه · انها شيء قبيح كريه ، ولكن كثيرا ما نجد من يمجدها ، ويصورها بألوان براقة خلابة ·

ويقال : كما أن النار تصهر المعادن الكريمة وتطهرها وتنقيها من الشوائب ، كذلك الحرب تصهر وتقوى الشعوب الخائرة الكسلانة ، الشعوب التى ران عليها الفساد والرخاوة لكثرة ما هى عليه من ترف وبذخ وحب للحياة · وهناك من يعددون أمثلة من صور الشـجاعة الفائقة والتضحيات المؤثرة التى تجلت عنها الحروب ، كأنما الحرب هى أصل هذه الفضائل ·

لقد حاولت أن نتحرى معا بعض أسباب هذه الحرب : حاولت أن

نتحرى كيف أن جشع بعض الأقطار الصناعية الرأسمالية، ومنافسات الدول العظمى الاستعمارية اصطدم بعضها ببعض وجعل الحرب أمرا لا مفر منه • حاولنا أن نتحرى كيف أراد زعماء الصناعة فى كل هذه الأقطار فرصا أكثر ومناطق أوسع للاستغلال ، وكيف أراد رجال المال أن يضاعفوا من ثرائهم وغناهم ، وكيف أراد صناع الاسلحة أرباحا فوق أرباح •

من أجل ذلك كله انغمس هؤلاء الناس فى الحرب ، وبأمرهم وأمر السياسيين الكبار الذين يمثلونهم ويمثلون طبقتهم هب شباب الشعوب يمسك بعضهم برقاب بعض •

على أن الغالبية العظمى من هؤلاء الشباب ومن العامة فى الدول المتحاربة لم تعرف شيئا عن هذه الأسباب التى أدت الى الحرب • ولم يكن يهمهم فى الحقيقة معرفة الأسباب ، وسواء انتهت الحرب بالنصر أو الهزيمة فانهم الخاسرون على كلتا الحالين •

لقد كانت الحرب لعبة الرجل الغنى ، ولم يلعبها بنفسه وانما لعبها بأرواح العامة من الناس ولاسيما الشبان منهم • وما كان يمكن لأى حرب أن تقوم اذا لم يعد عامة الناس ويهيأوا لخوضها •

وكما أخبرتك ، كان فى جميع الاقطار الأوربية خدمة عسكرية اجبارية ، وفى انجلترة جاء ذلك متأخرا بعد قيام الحرب • ولكن لايستطيع حتى الاجبار أن يكره الناس على أمر كهذا اذا كانوا فى جملتهم غير مريدين له ، ولهذا بذلت جهود جبارة فى جميع الدول المتحاربة لالهاب حماسة الجماهير واذكاء حبهم للوطن • وأخذ كلا الجانبين المتحاربين ينعت الآخر بأنه « المعتدى » ويدعى بأنه ، اذ يحارب ، انما يحارب دفاعا عن النفس فقط •

فألمــانيا زعمت أنها مطوقة بطوق من الأعداء يحاولون خنقهــا ، واتهمت فرنسا وروسيا بالمبادأة بغزوها ٠

وانجلترة ادعت أنها دخلت الحرب للدفاع العــادل عن بلجيــكا الصغيرة التى اعتدت ألمانيا اعتداء صارخا على حيادها ٠ وهكذا وقفت كل دولة من الدول المشتبكة فى الحرب موقفا عادلا فى نظر نفســها وألقت باللائمة على عدوها ٠

وقد حاول الساسة فى كل دولة أن يبلغوا بشعوبهم الى الاعتقاد بأن حريتهم فى خطر ، وأن عليهم أن يحاربوا دفاعا عن هذه الحرية٠ كذلك لعبت الصحافة دورا كبيرا فى خلق جو الحرب هــذا فى كل مكان ، وهذا بدوره ولد الحقد المرير فى نفوس أبناء كل دولة على أعدائها ٠

وكانت موجة الجنون هذه قوية غاية القوة ، حتى لقد اكتسحت كل شىء أمامها ٠ ولم يكن سهلا عليها أن تستثير انفعالات الجماهير فحسب ، وانما استثارت أيضا ذوى الطباع الهادئة رجالا ونساء من الكتاب والمفكرين والعلماء والأساتذة فى كل الاقطــار المتحــاربة وملأتهم بشهوة الدم وبالحقد على شعوب الاعداء ٠

وكان رجال الدين الذين يفترض فيهم أنهم رجال سلام أشد من غيرهم تعطشا الى الدماء ٠ حتى أعداء الحروب والاشتراكيون فقدوا عقولهم ونسوا مبادئهم ٠ لقد فقدوا عقولهم ، ولكن ليس كلهم تماما، فقد كان هناك قلة قليلة من الناس فى كل قطر أبوا أن يجنوا وأن يسمحوا لأنفسهم بأن يصابوا بحمى الحرب هذه ٠ لقد كانوا غرضا للهزء والسخرية ، وكانوا يسمون بالجبناء ، وكثيرون منهم زج بهم فى السجون لرفضهم أداء أى خدمة حربية ٠ وبعض هــؤلاء كانوا اشتراكيين ، وبعضــهم كانوا رجــال دين ، كجماعة « الكويكرز »

Quakers الذين تأبى ضمائرهم اجازة الحرب • وصدق من قال : أن الحرب عند ما تندلع نيرانها يصاب جميع المشتبكين فيها بالجنون•

وقد اتخذت حكومات الدول المختلفة من اعلان الحرب تكأة لمنع الحقائق عن شعوبها ، ولنشر كل أنواع الاكاذيب ، وللحجر على حريات الافراد الشخصية • أما الجانب الآخر فقد كان ، بطبيعة الحال ، مجهولا تماما ، فالناس ما كان يسمح لهم أن يعرفوا من القضية الا جانبا واحدا ، مشوها مكذوبا الى حد كبير • وعلى الاجمال لم يكن من الصعب استغفال الناس على هذا النحو •

وقد خدعت الناس حتى فى زمن السلم أكاذيب الصحافة والدعاية القومية الضيقة الأفق ، وهيأت أذهانهم للحرب •

كذلك مجدت الحرب • ففى ألمانيا ، أو على الأصح فى بروسيا ، أصبح تمجيد الحرب هذا هو الفلسفة المقررة للحكام من القيصر فما دونه • وليس هذا فحسب ، وانما ألفت كتب لتبرير الحرب والبرهنة على أنها « ضرورة بيولوجية » بمعنى أنها ضرورية للحياة الانسانية والتقدم •

وكثيرا ما سلطت أضواء الدعاية المغرضة على قيصر ألمانيا لما كان يند عنه من أقوال وأفكار فجة تدل على الصلف والتعاظم ، ولكن أفكارا مماثلة لأفكار القيصر كانت تسود الدوائر العسكرية والطبقة العليا في انجلترة وغيرها من الأقطار •

والكاتب الانجليزى « رسكين » Ruskin يعد من كبار الكتاب الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر• وهو أحد المؤلفين الذين يفضلهم غاندى ، وربما تكونين قد قرأت بعض كتبه • وقد قال هذا الرجل النبيل العقل بلا شك فى أحد كتبه :

« لقد تبين لى على وجه الاجمال ، أن كل الشعوب الكبرى قد وعوا مافى كلماتهم من صــــدق ، وما فى أفــكارهم من قوة ابان الحرب ، وضيعوا ذلك فى وقت السلم ، وأن ما علمتهم الحرب اياه سلبه خداع السلم منهم ، وأن ما اكتسبوه من مران بالحرب قــد خانهم السـلم فيه . وفى كلمــة واحــدة لقــد ولدوا فى الحرب وقضوا نحبهم فى السلم » .

ولكى أريك مدى صراحة « رسكين » الاستعمارى أقتبس لك هنا نبذة أخرى من كلامه ، قال :

« ذلك ما يجب على انجلترة أن تفعله أو يقضى عليهــا . يجب أن تبنى مستعمرات لنفسها .. يجب أن تغتصب كل قطعة من الأرض مثمرة تستطيع أن تضع قدمهــا عليهــا .. وهنــاك يجب أن تعلم المستعمرين من أبنائها أن هدفهم الأول هو فى أن يعـلوا سلطـان انجلترة على الأرض وفوق البحار .. »

ودعينى أقتبس لك هنا أيضا نبذة من كتاب ألفه ضابط فى الجيش الانجليزى . ففى هذا الكتاب يرى مؤلفــه أن الانتصــار فى الحرب يكاد يكون مستحيلا « الا بالكذب المتعمد وباستخدام الكذب والتلفيق» .. وبناء على رأيه ان أى مواطن « يرفض أن يعمل هذا .. انما يقوم متعمدا بدور الخائن لرفقائه ومرءوسيه ، وأقل ما يمكن أن ينعت به هو أنه أكثر الجبناء الحقراء جبنا واحتقارا » . ثم يقول : « وما قيمــة الأخلاق أو عدم الأخلاق بالنسبة للشعوب الكبيرة اذا كان مصيرها معرضــا للخطر ؟ ان أى شعب يجب أن يضرب ويضرب حتى يتلقى خصمه الضربة القاضية على حياته » .

لست أدرى ماذا كان يقول « رسكين » اذا سمع أو قرأ كل هذا ؟ لاتظنى أن هذا ، طبعا ، أنموذج عادل للعقل الانجليزى . ولا تظنى

أيضا أن أقوال القيصر الطنانة الجوفاء تمثل الالماني العادى . ولكن الكارثة هى أن الناس الذين يفكرون كثيرا ما تكون فى أيديهم مقاليد الحكم ، وهؤلاء يكادون يتقدمون دائما الصفوف فى أوقات الحرب .

ومثل هذه التصريحات والاعترافات الصريحة ليست فى العادة مما يقال علنا جهارا ، لأن الساسة يحاولون دائما أن يخلعوا على الحرب رداء القداسة .

وعلى هذا ، فبينما تشتعل نار مذبحة هائلة وقودها الرجال والنساء والأطفال ، على جبهة قتال مساحتها مئات الأميال فى أوربا وغيرها ، كان الزعماء والساسة يصطنعون فى الداخل عبارات بليغة رنانة لتبرير القتل وتضليل الشعوب .

كان الناس يسمعون مثل هذه العبارات :

انها حرب من أجل الحرية والشرف ..

انها الحرب التى تنهى الحرب ..

انها الحرب التى تنقذ الديمقراطية ..

انها حرب تقرير المصير ..

انها حرب من أجل حرية الشعوب الصغيرة .. الخ

والغريب أن كثيرين من رجال المال والصناعة والأسلحة ممن جلسوا آمنين فى بيوتهم يرددون هذه العبارات اغراء للرجال على الالقاء بأنفسهم فى أتون الحرب ، كانوا قد حققوا لأنفسهم هم أرباحا طائلة ، وصاروا من أرباب الملايين .

وقد حاول كلا المعسكرين المتحاربين أن يضم الى جانبه دولا محايدة

برشوتها سرا • ولو أن عروض الرشوة هذه قدمت علنا لقضت على المثل العليا والعبارات البليغة التى كانت تتردد من أعلى الأماكن •

وكانت قدرة انجلترة وفرنسا على اســـتخدام الرشوة أكثر من قدرة المـــانيا ، ولهذا فمعظم الدول المحـــايدة التى اســـتدرجت الى الحرب بالرشوة انضمت الى جانب انجلترة وفرنسا وروسيا •

فحلف انجلترة استطاع أن يضم اليه ايطاليا حليفة المـــانيا القديمة بعقد معاهدة سرية معها وعدت فيها ايطاليا ببقاع فى آســـيا الصغرى وفى جهات أخرى ، كذلك عقدت معـــاهدة سرية أخرى مع روســـيا وعدت فيها بالاستيلاء على القسطنطينية • ولا شك أن تقسيم العالم فيما بينهم على هذا النحو كان عملا سارا لهم !

والعجيب أن هذه المعاهدات السرية كانت تتعارض تمام المعارضة مع التصريحات التى كان يدلى بها علانية زعماء الحلفـــاء وساستهم • ولو لم ينشر بلاشفة الروس هذه المعاهدات بعد توليهم مقاليد الحكم فى روسيا ، لمـــا كان من الممكن لأحد أن يعرف شيئا عن أمر هـــذه المعاهدات •

وقـــد انتهى الأمر الى أن يكون هنـــاك اثنتا عشرة دولة أو أكثر تحارب على جانب الحلفاء • وعلى سبيل الاختصار دعينـــا نطلق منذ الآن على المعسكر الانجليزى الفرنسى اسم « الحلفاء » •

وهذه الدول هى : بريطانيا وامبراطوريتها ، وفرنسا ، وروسيا ، وايطاليا ، والولايات المتحـــدة الأمريكية ، وبلجيـــكا ، والصرب ، واليابان ، والصين ، ورومانيا ، واليونان ، والبرتغـــال • وربما كان هناك دولة أو دولتان أخريان لا أذكر اسمهما الآن •

وعلى الجانب الألمانى كان هناك المانيا ، والنمسا ، وتركيا ، وبلغاريا .

وقد دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى سنتها الثالثة . فاذا استثنينا الولايات المتحدة مؤقتا ، كان من الواضح أن موارد الحلفاء أكثر بكثير من موارد الجانب الالمانى ، فالحلفاء كانوا أكثر رجالا ، وأكثر مالا ، وكانت مصانع أسلحتهم وذخيرتهم أكثر عددا . وفوق كل هذا كان لهم السيادة على البحار ، وهذا بدوره يسر لهم فرص الافادة من موارد العالم المحايد .

لهذا كان فى استطاعة الحلفاء أن يحصلوا على الأسلحة أو المواد الغذائية ، وأن يقترضوا من أمريكا ، بفضل سيادتهم البحرية .

أما المانيا وحلفاؤها فقد أطبق عليهم الأعداء وطوقوهم . وكان حلفاء المانيا شعوبا ضعيفة ، ومن ثم كانت مساعدتهم لها مساعدة ضئيلة لاتكاد تذكر . وكثيرا ما كانوا عبئا ثقيلا عليها ، وبدل أن يضيفوا الى قوتها قوة كانت تشد هى من أزرهم وتعينهم .

من ذلك نرى أن المانيا كانت تقف وحدها تقريبا فى الميدان ضد معظم شعوب العالم . ومع أن هذا الصراع يبدو من جميع وجهات النظر صراعا غير متكافىء ، فان المانيا وقفت أمام العالم أربع سنوات وكادت أكثر من مرة أن تنتصر .

لقد كان ذلك مجهودا عجيبا بالنسبة لشعب واحد ، ولكن الفضل فى صمود المانيا كل هذا الصمود يرجع الى ما بنته لنفسها من قوة عسكرية هائلة . حتى عندما هزمت المانيا هى وحلفاؤها نهائيا كان الجيش الألمانى لا يزال سليما ، وكانت معظم وحداته لاتزال محتلة مواقعها فى أقطار أجنبية .

أما على جانب الحلفاء فقد وقع عبء الحرب على الجيش الفرنسى . والفرنسيون هم الذين وقفوا أمام قوة المانيا العسكرية على حساب تضحيات جسيمة هائلة فى الشباب ، وقد تمثلت مساهمة انجلترة فى أسطولها وقوتها البحرية ، وفى سياستها ودعايتها .

أما المانيا المعجبة المدلة بجيشها فكانت سياستها مع الدول المحايدة وأساليب دعايتها بينهم أبعد ما تكون عن الحذق والمهارة .

ولا شك أن انجلترة هى الدولة الوحيدة التى حازت قصب السبق من بين جميع الدول فى احكام دعاية الكذب وتشويه الحقائق أثناء الحرب .

وكان دور روسيا وايطاليا وغيرهما من دول الحلفاء الأخرى فى الحرب لايعدو دورا صغيرا نسبيا . ومع ذلك فربما كانت خسائر روسيا فى الحرب أكثر من خسائر أى دولة أخرى .

أما الولايات المتحدة الأمريكية التى دخلت الحرب قرب نهايتها فقد قامت بالدور النهائى الفاصل فى تحطيم المانيا .

وفى الأشهر الأولى من بدء الحرب حدث توتر شديد فى العلاقات بين انجلترة وأمريكا لدرجة كان يخشى معها من وقوع حرب بينهما . وقد نجم هذا الخلاف بسبب تدخل انجلترة فى سفن أمريكا بحجة الاشتباه فى أنها تحمل سلعا وبضائع الى المانيا . ولكن سرعان ما نشطت أجهزة الدعاية البريطانية ، وبذلت جهودا جبارة لافى تخفيف حدة التوتر القائم بين البلدين فحسب ، بل فى كسب أمريكا أيضا الى صفوف الحلفاء .

وكان أول ما عمل فى هذا السبيل هو حملة دعاية معادية للتشهير

بألمـانيا ، ونشر قصص فظيعة عما كان يفعله الجيش الالمـانى المتوحش فى بلجيكا •

وبعض هذه القصص كان له نصيب من الصحة ، كقصـة تخريب مكتبة وجامعة « لوفان » ، ولكن معظم هذه القصص لم تخرج عن كونها مجرد اختراعات وتلفيقات • وكانت هناك قصة غريبة عن مصـنع للجثث قيل ان الالمـان كانوا يديرونه ! ومع ذلك فقـد بلغ حقـد الشعوب المتعادية بعضها على بعض حدا جعلهم على استعداد لتصديق كل ما يقال عن أعدائهم •

وتستطيعين أن تكونى فكرة عن مدى ضخامة الدعاية البريطانيـة عندما أخبرك أن بعثة الحرب الى أمريكا تألفت من خمسـمائة من الموظفين الرسميين ، وعشرة آلاف مساعد ! وبجانب هـذا قام آخرون بضروب من النشاط غير رسمية • وقد اسـتخدمت كل الوسائل ، شريفة أو غير شريفة ، فى هـذه الدعاية • وفى اسـتكهلم عاصـمة السويد افتتح البريطانيون رسميا صالة رقص للترفيـه كى يظفروا بعطف السويديين !

وقد نجحت هذه الدعاية ، كما نجـح نشاط الغواصات الالمـانية فى استمالة أمريكا الى جانب الحلفاء • ولكن العامل الفاصل فى النهاية كان هو المـال •

ان الحرب تكاليفها باهظة •• باهظة جدا • فهى تبتلع جبالا من المواد الغالية الثمينة ، ولا تعطى شـيئا فى مقـابل ذلك غير الخراب والدمار • وهى تعطل ضروب النشـاط التى تنتـج الغنى والثـراء والرخاء ، كما تركز جهود الناس على التدمير والابادة والافناء •

فمن أين كان يأتى كل هذا المـال ؟

اذا نظرنا الى جانب الحلفاء نرى دولتين غنيتين ، هما انجلترة وفرنسا • فهاتان لم تدفعا حصتهما فى تكاليف الحرب فقط ، وانما عاونتا حلفاءهما أيضا باقراضهم المال والعتاد •

على أن موارد فرنسا المالية لم تمكنها من المضى فى تحمل أعباء الحرب ونفقاتها • ولهذا مولت لندن وحدها الجانب الحربى للحلفاء ، ولكن لم تكد السنة الثانية من الحرب تنتهى حتى وجدت انجلترة نفسها فى نفس المأزق • وقبيل نهاية عام ١٩١٦ كانت الموارد المالية لكل من انجلترة وفرنسا قد نضبت واستنزفت •

عندئذ سافرت الى أمريكا بعثة انجليزية من بعض كبار الساسة الانجليز لتلتمس العون المالى • وقد وافقت أمريكا على اقراض المال ، وبذلك أخذت أمريكا على عاتقها عبء تمويل الحرب معونة منها للحلفاء •

وقد بلغت ديون الحلفاء لأمريكا أرقاما هائلة ، وأخذت هذه الديون تتضاعف على مر الأيام ، وكان ذلك سببا فى أن المصارف الكبرى ورجال المال فى أمريكا ممن أقرضوا الحلفاء أخذوا يهتمون بأمر انتصار الحلفاء • وكان طبيعيا أن يظهر هذا الاهتمام منهم ، اذ ماذا كان يكون مصير الأموال الطائلة التى أقرضتها أمريكا للحلفاء اذا هزمتهم المانيا ؟ ان جيوب رجال المصارف الأمريكية كانت قد تأثرت ، ولهذا أخذ اهتمامهم بالحرب يزداد صيانة لمصالحهم • ومن أجل هذه المصالح نشطت الدعاية التى تحبذ انضمام أمريكا الى الحلفاء حتى دخلت أمريكا الحرب فى النهاية •

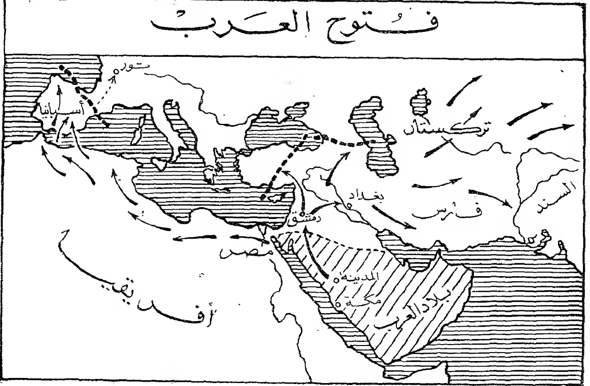
ونحن نسمع الآن كثيرا عن موضوع الدين الذى لأمريكا لدى الحلفاء ، والصحف مليئة بأخباره • فهذا الدين المعلق حول رقبتى

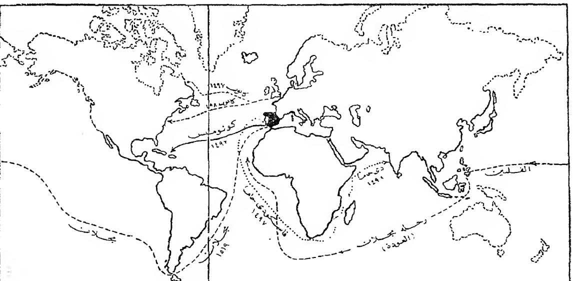
انجلترة وفرنسا كحجر الطاحون ، والذى لاتستطيعان دفعه وأداءه ، قد تراكم عليهما فى أيام الحرب ·

فلو لم تظهر هـذه الأموال الأمريكية وتخف لنجـدة انجلترة وفرنسا ابان الحرب ، لكان من المحقق أن تنهار مالية هاتين الدولتين انهيارا تاما · ومن يدرى فلعل أمريكا وقتئذ كانت لم تدخل الحرب ، ولم تنضم الى الحلفاء ·

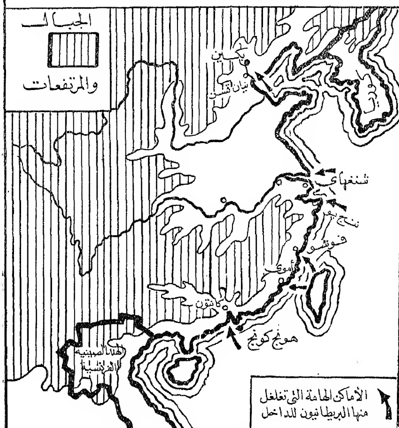
إمبراطورية الإسكندر

مقدونيا
آسيا الصغرى
أثينا
الإسكندرية
مصر
بلاد ما بين النهرين
بابل
سوس
برسوبوليس
فارس
پارثيا
قندهار
سمرقند
جيحون
خيبر
السند
الهند

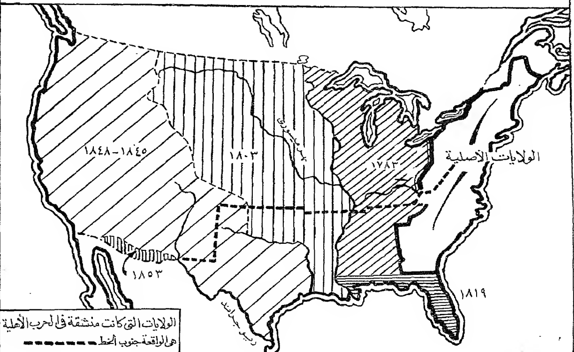

فتوح العرب
تور
أسبانيا
تركستان
بغداد
دمشق
فارس
السند
مصر
المدينة
مكة
بلاد العرب
أفريقيا



الاستكشافات الجغرافيـة



بريطانيا والصين
الجبال
والمرتفعات
بكين
تيان تسن
شنغهاى
ننج بو
فوتشو
أموى
كانتون
هونج كونج
الهند الصينية الفرنسية
الأماكن الهامة التى تغلغل منها البريطانيون للداخل


اتساع رقعة الولايات المتحدة الأمريكية
١٨٤٥-١٨٤٨
١٨٠٣
١٧٨٣
الولايات الأصلية
١٨٥٣
١٨١٩
نهر ميسوري
ريو جراند
الولايات التي كانت منشقة في الحرب الأهلية
هي الواقعة جنوب الخط

فهرس

الموضوع			صفحة
تصدير			
مقدمة المؤلف			
مقدمة المترجم			

مكتبة الثقافة الشعبية

مجموعة جديدة تقدمها دار المعارف إلى العالم العربى متوخية فيها تحقيق الأهداف الآتية :

١ — أن تجعل القارئ العربى متصلا بجميع الحضارات على اختلاف مذاهبها ومناهجها فيقف عليها ويستوعبها بما تضعه هذه المجموعة بين يديه من ترجمات دقيقة أمينة .

٢ — أن تساعد محبى الاطلاع والتوسع على تنمية ثقافتهم العامة فتزودهم بموضوعات جليلة الشأن ولكنها سهلة المأخذ تقتطفها لهم من مختلف حدائق الفكر .

٣ — أن توفر للراغب فى التخصص موضوعات تكون له بمثابة المدخل إلى كتب التخصص .

مكتبة الثقافة الشعبية

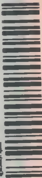
لايستغنى عنها القراء على مختلف درجات ثقافتهم

ظهر منها :

١ — لمحات من تاريخ العالم بقلم جواهر لال نهرو
ترجمة الدكتور عبد العزيز عتيق

تحت الطبع

٢ — الأجور والعمال بقلم جورج صول
ترجمة الأستاذ ماهر نسيم





دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة